

# عَدَّةُ الصَّابِرِينَ وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

تأليف

الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

خرج أحاديثه وعلق عليه

أبو سهل

نجاح عوض صيام

مكتبة الأيمان  
المنصورة - أمام جامعة الأزهر  
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾

[سورة إبراهيم: ١٤]



عِدَّةُ الصَّابِرِينَ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

## بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة المحقق

الحمد لله حمد الشاكرين\* والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين\* وعلى آله الطيبين الطاهرين\* ورضى الله عن صحابته الغر الميامين.  
﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.  
﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.  
وقال تعالى: ﴿... لئن شكرتم لأزيدنكم﴾. ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾  
..ويعد.

فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر؛ وهما وصفان من أوصاف الله تعالى عز وجل، واسمان من أسمائه الحسنى.  
إذ سمي نفسه سبحانه وتعالى صبوراً، وشكوراً.

ولما كان حال المؤمن لا يخلو عن هذين الأمرين، كما جاء في الحديث الشريف عن صهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء، شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

لذلك كان من الضروري إيضاح هذين الشطرين، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بشطري الإيمان؛ ثم هو غفلة عن وصفين من صفات الرحمن عز وجل.

ومن أجلّ وأجمع ما كتبت في هذا الموضوع كتاب «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»(\*) للإمام شمس الدين ابن القيم - رحمه الله تعالى - حيث تناول فيه المؤلف

---

(\*) تنبيه: طبع الكتاب مرات كثيرة، وضبط عنوانه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» بضم العين، والصواب «عدة» بكسر العين وفتح الدال غير مشددة، من وعد، يعد، عدة، وموعدة؛ من الوعد - والهاء عوض عن الواو - أي ما وعد الله عباده الصابرين من الأجر والثواب. وأما العدة بالضم من الاستعداد، فيقال: أخذ للأمر عُدته وعتاده.

حقيقة الصبر وأقسامه وفضله وآدابه، وما أعدّه الله لعباده الصابرين، وتكلم فيه أيضاً عن الشكر وبين منزلته، وجزاء الشاكرين. وتكلم أيضاً عن حقيقة الدنيا، وبين الفرق بين الفقير الصابر والغنى الشاكر.

فجاء كتاباً حافلاً نافعاً فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يُعصَّ عليه بالنواجز. فله در مصنفه.

ولما كان هذا الكتاب - كما قال مؤلفه - يصلح للملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، والصوفية والفقهاء، ينهض بالقاعد إلى المسير، ويؤنس السائر في الطريق، وينبه السالك على المقصود.

رأيت إخراج هذه الصورة فقامت بترقيم فقرات الكتاب، وعزو آياته إلى مواضعها من المصحف الشريف، وتخريج أحاديث النبوة على وجه الاختصار، فحيث خرج المصنف الحديث بينت موضعه الذي أشار إليه، وأحياناً أزيد في تخريجه لحاجة تدعو لذلك. وما سكنت عنه عزوته إلى مصادره، فإن كان في البخاري ومسلم أو أحدهما اقتصرت عليه، نظراً لصحتهما، وما كان في غيرهما بينت موضعه مشفوعاً بحكم الأئمة عليه من حيث الصحة والضعف.

هذا وقد قمت أيضاً بضبط ما أشكل من ألفاظه مع إيضاح غريبه.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

والله الموفق والمستعان.

وكتب

أبو سهل

نجاح عوض صيام

## المقدمة

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الصبور الشكور . العلى الكبير . السميع البصير . العليم القدير الذى شملت قدرته كل مخلوق . وجرت مشيئته فى خلقه بتصاريف الأمور . وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور . قدر مقادير الخلائق وآجالهم . وكتب آثارهم وأعمالهم وقسم بينهم معاشهم وأموالهم ، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . القاهر القادر . فكل عسير عليه يسير . وهو المولى النصير فنعم المولى ونعم النصير . يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض . وله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن . والله بما تعملون بصير . خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ماترون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله جل عن الشبه والنظير . وتعالى عن الشريك والظهير وتقدس عن تعطيل الملحين كما تمزه عن شبه المخلوقين . فليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من بريته وصفوته من خليقته . وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عبادته أعرف الخلق به وأقومهم بخشيته ، وأنصحهم لأمرته ، وأصبرهم لحكمه ، وأشكرهم لنعمه ، وأقربهم إليه وسيلة ، وأعلاهم عنده منزلة وأعظمهم عنده جاهاً ، وأوسعهم عنده شفاعاً . بعثه إلى الجنة داعياً . وللإيمان منادياً ، وفى مرضاته ساعياً ، وبالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً . فبلغ رسالات ربه وصدع بأمره . وتحمل فى مرضاته مالم يتحمله بشر سواء وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه . فثبت فى مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين . وترقى فى درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين ، فحمد الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العالمين . فأدم تحت لوائه ومن دونه الأنبياء والمرسلين . وجعل الحمد فاتحة كتابه الذى أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفى التوراة والإنجيل . وجعله آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه . وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم

إلى الوجود، لحمدهم له على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمداً لله وذكرأ، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبراً وشكراً فصلى الله وملائكته وأنبيأؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحد الله وعرف به ودعا إليه. وسلم تسليماً كثيراً.

٢- أما بعد: فإن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يـكـبو<sup>(١)</sup>، وصارماً<sup>(٢)</sup> لا يـنبو، وجنداً لا يـهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم ولا يـثـلم<sup>(٣)</sup>، فهو والنصر أخوان شقيقان فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحلّه من الظفر كمحل الرأس من الجسد.

٣- ولقد ضمن الوفى الصادق لأهله فى محكم الكتاب أنه يوفيهـم أجـزهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدائته ونصره العزيز وفتحـه المبين، فقال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾<sup>(٤)</sup> فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها، بنعمه الباطنة والظاهرة.

٤- وجعل سبحانه الإمامة فى الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى ويقولـه اهتدى المهتدون ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾<sup>(٥)</sup>.

٥- وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين، فقال تعالى: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾<sup>(٦)</sup>.

٦- وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾<sup>(٧)</sup>.

٧- وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصلّاه إلى محل العز والتمكين فقال: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾<sup>(٨)</sup>.

٨- وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل ذلك عنه المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾<sup>(٩)</sup>.

(١) الجواد: النجيب من الخيل؛ و(كبا) لوجهه: تعثر وسقط.

(٢) الصّارم: السيف، و(نبا) السيف: إذا لم يعمل فى الضريبة أى سيفاً بتاراً.

(٣) (ثلم) الحائط وغيره: أحدث فيه خللاً.

(٤) سورة الأنفال: آية (٤٦).

(٥) سورة السجدة: آية (٢٤).

(٦) سورة النحل: آية (١٢٦).

(٧) سورة آل عمران: آية (١٢٠).

(٨) سورة يوسف: آية (٩٠).

٩- وأخبر عن محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين. فقال تعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾<sup>(١)</sup>.

١٠- ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾<sup>(٢)</sup>.

١١- وأوصى عباده بالإستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾<sup>(٣)</sup>.

١٢- وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾<sup>(٤)</sup>.

١٣- وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾<sup>(٥)</sup>.

١٤- وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسىء كأنه ولي حميم فقال: ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾<sup>(٦)</sup>، وأن هذه الخصلة ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾<sup>(٧)</sup>.

١٥- وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم ﴿إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾<sup>(٨)</sup>.

١٦- وقسم خلقه قسمين أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة، وخص أهل الميمنة أهل التواصي بالصبر والرحمة وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزاً لهم بهذا الحظ الوفور، فقال في أربع آيات من كتابه ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾<sup>(٩)</sup>.

(١) سورة آل عمران: آية (١٤٦).

(٢) سورة البقرة: آية (٤٥).

(٣) سورة القصص: آية (٨٠).

(٤) سورة فصلت: آية (٣٥).

(٥) سورة النحل: آية (١٥٥).

(٦) سورة المؤمنون: آية (١١١).

(٧) سورة فصلت: آية (٣٤).

(٨) سورة العصر: آية (٢، ٣).

(٩) سورة إبراهيم: آية (٥)، ولقمان: آية (٣١)، وسبأ: آية (١٩)، وسورة الشورى: آية (٣٣).

١٧- وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر، وذلك على من يسهه عليه يسير فقال: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (١).

١٨- وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تحاربه أربابها لا تنور، فقال: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (٢).

١٩- وأمر رسوله بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره إنما هو لربه وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ (٣) وقال: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم \* ولأنك في ضيق مما يمكرون \* إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (٤).

٢٠- والصبر آخية (٥) المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وشاق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) سورة هود: آية (١١).

(٢) سورة الشورى: آية (٤٣).

(٣) سورة الطور: آية (٤٨).

(٤) سورة النحل: آية (١٢٧-١٢٨).

(٥) الآخية بالمد والتشديد حَبِيل أو عويد يُعرض في الحائط ويُدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة وتشد فيها الدابة.



## [فصل]

٢١- ولما كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

٢٢- فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما فجاء كتاباً جامعاً حاوياً نافعاً فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يعرض عليه بالنواجذ<sup>(١)</sup>، وتثنى عليه الخناصر<sup>(٢)</sup>، ممتعاً لقارئه، صريحاً للناظر فيه مسلياً للحزين، منهضاً للمقصرين محرضاً للمشمزين مشتملاً على نكات حسان من تفسير القرآن، وعلى أحاديث نبوية معزوة إلى مظانها، وآثار سلفية منسوبة إلى قائلها، ومسائل فقهية حسان مقررة بالدليل، ودقائق سلوكية على سواء السبيل، لا تخفى معرفة ذلك على من فكر وأحضر ذهنه.

٢٣- فإن فيه ذكر أقسام الصبر ووجوه الشكر وأنواعه، وفصل النزاع في التفصيل بين الغنى الشاكر والفقر الصابر وذكر حقيقة الدنيا وما مثلها الله ورسوله والسلف الصالح به والكلام على سير هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال وذكر ما يذم من الدنيا ويحمد، وما يقرب منها إلى الله ويبعد وكيف يشقى بها من يشقى ويسعد بها من يسعد وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب سواه وذلك محض منة من الله على عبده وعطية من بعض عطاياه.

٢٤- فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء والأغنياء والفقراء والصوفية والفقهاء ينهض بالقاعد إلى المسير ويؤنس السائر في الطريق وينبه السالك على المقصود ومع هذا فهو جهد المقل وقدرة المفلس حذر فيه من الداء وإن كان من أهله ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين.

(١) (النواجذ) : الضَّرْس.

(٢) (الخناصر) : الإصبع الصغرى، وما يليه البنصر ويليهِ الوسط ثم السبابة، ثم الإبهام. وقوله «تثنى عليه الخناصر» : أى يُدأ به إذا ذُكر أمثاله وأشكائه من الكتب.

فما كان فى الكتاب من صواب، فمن الله وحده فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، والله برئ منه ورسوله وهذه بضاعة مؤلفه المزجاء<sup>(١)</sup> تساق إليك، وسلعته تعرض عليك فلقارته غنمه وعلى مؤلفه غرمه. وبنات أفكاره تُزف إليك فإن وجدت حراً كريماً كان بها أسعد وإلا فهي خود<sup>(٢)</sup> تزف إلى عينين<sup>(٣)</sup> مقلد.

٢٥- وقد جعلته ستة وعشرين باباً وخاتمة.

الباب الأول: فى معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها.

الباب الثانى: فى حقيقة الصبر وكلام الناس فيه.

الباب الثالث: فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه.

الباب الرابع: فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة.

الباب الخامس: فى أقسام الصبر باعتبار محله.

الباب السادس: فى أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه.

الباب السابع: فى بيان أقسامه باعتبار متعلقه.

الباب الثامن: فى انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

الباب التاسع: فى بيان تفاوت درجات الصبر.

الباب العاشر: فى انقسام الصبر إلى محمود ومذموم.

الباب الحادى عشر: فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام.

الباب الثانى عشر: فى الأسباب التى تعين على الصبر.

الباب الثالث عشر: فى بيان إن الإنسان لا يستغنى عن الصبر فى حال من الأحوال.

الباب الرابع عشر: فى بيان أشق الصبر على النفوس.

(١) أى قليلة.

(٢) خود: شابة ناعمة حسنة الخلق.

(٣) هو الذى لا يقدر على الجماع لمرض أو لكبر سن.

- الباب الخامس عشر: فى ذكر ماورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز.
- الباب السادس عشر: فى ذكر ماورد فيه من نصوص السنة.
- الباب السابع عشر: فى ذكر الآثار الواردة عن الصحابة فى فضيلة الصبر.
- الباب الثامن عشر: فى ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها.
- الباب التاسع عشر: فى أن الصبر نصف الإيمان وأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.
- الباب العشرون: فى بيان تنازع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر.
- الباب الحادى والعشرون: فى الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين.
- الباب الثانى والعشرون: فى اختلاف الناس فى الغنى الشاكر والفقر الصابر أيهما أفضل وما هو الصواب فى ذلك.
- الباب الثالث والعشرون: فى ذكر ما احتجت به الفقهاء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.
- الباب الرابع والعشرون: فى ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.
- الباب الخامس والعشرون: فى بيان الأمور المضادة للصبر، والمنافية له، والقادحة فيه.
- الباب السادس والعشرون: فى بيان دخول الصبر فى صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور الشكور.
- ٢٦- سميت « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » واللّه المستول أن يجعله خالصاً لوجهه مدنياً من رضاه وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا نعم الوكيل.

\*\*\*



## الباب الأول

### فى معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

٢٧- أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكى، والجوارح عن لطم الحدود وشق الثياب ونحوهما ويقال صبر يصبر صبراً وصبر نفسه قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾<sup>(١)</sup> وقال عنترة<sup>(٢)</sup>:

فَصَبِرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حَرَةً      ترسو إذا نفسُ الجبان تطلعُ

يقول حبست نفساً عارفة، وهى نفس حر يأنف لا نفس عبد لا أنفة له. وقوله: «ترسو» أى تثبت وتسكن إذا خفت نفس الجبان واضطربت.

ويقال صبرت فلاناً إذا حبسته، وصبرته بالتشديد إذا حملته على الصبر، وفى حديث الذى أمسك رجلاً وقتله آخر «يقتل القاتل ويصبر الصابر»<sup>(٣)</sup> أى يحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت، وصبرت الرجل إذا قتلت صبراً أى أمسكته للقتل، وصبرته أيضاً وأصبرته إذا حبسه للحلف ومنه الحديث الصحيح «من جلف على يمين صبر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عنه معرض»<sup>(٤)</sup> ومنه الحديث الذى فى القسامة «ولا تُصبر يمينه حيث تُصبر الأيمان»<sup>(٥)</sup> والمصبورة اليمين المحلوف عليها، وفى الحديث: «نهى عن المصبورة»<sup>(٦)</sup> وهى الشاة والدجاجة ونحوها تصبر للموت فتربط فترمى حيث تموت.

(١) سورة الكهف: آية (٢٨).

(٢) هو عنترة بن شداد، الشاعر الجاهلى المعروف، وأحد فرسان العرب فى الجاهلية.

(٣) أخرجه الدارقطنى فى السنن (١٤٠/٣) عن إسماعيل بن أمية بهذا اللفظ مرسلأ كما رواه موصولأ بالفاظ متقاربة.

قال الحافظ فى بلوغ المرام (٢٤٢/٣): صححه ابن القطان ورجاله ثقات إلا أن البيهقى رجح المرسل.

(٤) من حديث عبد الله بن مسعود، أخرجه البخارى (٦٦٧٧)، ومسلم (١٣٨).

(٥) جزء من حديث ابن عباس أخرجه البخارى (٣٨٤٥).

(٦) رواه البخارى (٥٥١٣) عن أنس أن النبى ﷺ «نهى أن تُصبر البهائم»، والترمذى (٩٤٧٣) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ «نهى عن المجنمة وهى التى تصبر بالنبل».

وفعل هذا الباب صبرت أصبر بالفتح فى الماضى والكسر فى المستقبل، وأما صبرت  
أصبر بالضم فى المستقبل فهو بمعنى الكفالة، والصبر الكفيل، كأنه حبس نفسه للغرم،  
ومنه قولهم أصبرنى أى جعلنى كفيلا.

٢٨- وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصبر للدواء المعروف لشده  
مرارته وكراسته، قال الأصمعى: إذا لقى الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها،  
ومنه الصبر بضم الصاد للأرض ذات الخصب لشدها وصلابتها، ومنه سميت الحرة أم  
صبار، ومنه قولهم: وقع القوم فى أمر صبور بتشديد الباء أى أمر شديد، ومنه صبرة  
الشقاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده.

٢٩- وقيل مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع  
والجزع ومنه صبرة الطعام، وصبرة الحجارة.

٣٠- والتحقيق أن فى الصبر المعانى الثلاثة: المنع والشدة والضم. ويقال: صبر إذا  
أتى بالصبر، وتصبر إذا تكلفه واستدعاه، واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه وصابر إذا وقف  
خصمه فى مقام الصبر. وصبر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر: واسم  
الفاعل صابر وصبار وصبور ومصابر ومصطبر فمصابر من صابر. ومصطبر من  
اصطبر. وصابر من صبر، وأما صبار وصبور فمن أوزان المبالغة من الثلاثى، كضراب  
وضروب، والله أعلم.

\*\*\*

## الباب الثاني

### فى حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

٣١- قد تقدم بيان معناه لغة، وأما حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

٣٢- وسئل عنه الجنيد بن محمد فقال: «تجرع المرارة من غير تعبس».

٣٣- وقال ذو النون: «هو التبعاد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

٣٤- وقيل «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

٣٥- وقيل «هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى».

٣٦- وقال أبو عثمان: «الصبار هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره».

٣٧- وقيل: «الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية» ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر.

٣٨- وقال عمرو بن عثمان المكي: «الصبر هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء يصدر واسع لا يتغلغل بالضيق والسخط والشكوى».

٣٩- وقال الخواص: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

٤٠- وقال رويم<sup>(١)</sup>: «الصبر ترك الشكوى، فسرّه بلازمه».

٤١- وقال غيره «الصبر هو الاستعانة بالله».

٤٢- وقال أبو على: «الصبر كاسمه».

(١) رُوِيَ عن أحمد بن يزيد بن رويم: صوفى شهير، من جلة مشايخ بغداد. توفى عام ٣٣٠هـ.

٤٣- وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو».

٤٤- وقال أبو محمد الحريري: «الصبر أن لا يفرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما».

٤٥- قلت: وهذا غير مقدور ولا مأمور به، فقد ركب الله الطباع على التفريق الحالتين، وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد وساحة سافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور «إن لم يكن لك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي»<sup>(١)</sup> ولا يناقض هذا قوله ﷺ «ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»<sup>(٢)</sup>؛ فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له.

٤٦- وقال أبو علي الدقاق «حد الصبر أن لا يعترض على التقدير» فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر. قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾<sup>(٣)</sup> مع قوله: ﴿مسنى الضر﴾<sup>(٤)</sup> - قلت: فسر اللفظة بلازمها.

٤٧- وأما قوله «على غير وجه الشكوى» فالشكوى نوعان:

أحدهما: الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ مع قوله: ﴿فصبر جميل﴾<sup>(٥)</sup> وقال أيوب: ﴿مسنى الضر﴾ مع وصف الله له بالصبر، وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي... الخ».

وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك».

(١) هو الدعاء المشهور الذي دعا به النبي ﷺ عند رجوعه من الطائف بعد إعراس أهلها من دعوته، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر وأوله «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس... الحديث». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٦): فيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات، ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير (١١٩/٢).

(٢) جزء من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) سورة ص: آية (٤٤).

(٤) سورة الأنبياء: آية (٨٣).

(٥) سورة يوسف: آية (١٨).



والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال والمقال، فهذه لا تجمع الصبر بل تضاده وتبطله، فالفرق بين شكواه والشكوى إليه، وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى.

٤٨- وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن هاهنا أخذ القائل قوله: الشجاعة صبر ساعة.

٤٩- وقيل الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب.

٥٠- والصبر والجزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾<sup>(١)</sup>.

والجزع قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكيس<sup>(٢)</sup> ومادته؛ فلو سئل الجزع من أبوك؟ لقال العجز، ولو سئل الكيس من أبوك؟ لقال: الصبر.

٥١- والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب.

٥٢- وحفظ من خطب الحجاج، اقدعوا<sup>(٣)</sup> هذه النفوس فإنها طلعة<sup>(٤)</sup> إلى كل سوء، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرها بزماتها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه.

٥٣- قلت: والنفس فيها قوتان، قوة الإقدام وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه. وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره.

٥٤- ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره. فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه. ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك. وأفضل الناس أصبرهم على النوعين.

(١) سورة إبراهيم: آية (٢١).

(٢) الكيس: العقل والفتنة.

(٣) اقدعوا: كفه، وقدها فانقذ كفه فانكف.

(٤) الطلعة: الكثير الطلوع والتطلع، ونفس طلعة: أي كثيرة التطلع إلى الشيء.

٥٥. فكّر من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد، وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار المنافقين، بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين.

٥٦. وقيل: «الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة» ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يحب وباعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما وهو سجال<sup>(١)</sup>، ومعرك<sup>(٢)</sup> هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات.

\*\*\*

---

(١) السَّجَالُ: النصيب من الشيء، والحرب بينه (سجال) أي نُصِرَتْهَا بينهم متداولة.  
(٢) المعرك: المعترك، وتجمع على معارك.

### الباب الثالث

#### فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

- ٥٧- لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماءه بحسب متعلقه.
- ٥٨- فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة، وضدها الفجور والزنا والعهر.
- ٥٩- وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمي شرف نفس وشيخ نفس، وسمى ضده شرهاً ودناءة ووضاعة نفس.
- ٦٠- وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاء أو سباً أو كذباً أو قذفاً.
- ٦١- وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، وضده حرصاً، وإن كان على قدر يكفى من الدنيا سمي قناعة وضدها الحرص أيضاً.
- ٦٢- وإن كان عن إجابة داعى الغضب سمي حلاًماً وضده تسرعاً.
- ٦٣- وإن كان عن إجابة داعى العجلة سمي وقاراً وثباتاً وضده طيشاً وخفة.
- ٦٤- وإن كان عن إجابة داعى الفرار والهرب سمي شجاعة وضده جبناً وخوراً.
- ٦٥- وإن كان عن إجابة داعى الانتقام سمي عفواً وصفحاً وضده انتقاماً وعقوبة.
- ٦٦- وإن كان عن إجابة داعى الإمساك والبخل سمي جوداً وضده بخلاً.
- ٦٧- وإن كان عن إجابة داعى الطعام والشراب فى وقت مخصوص سمي صوماً.
- ٦٨- وإن كان عن إجابة داعى العجز والكسل سمي كسلاً.

٦٩- وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلِّ<sup>(١)</sup> على الناس وعدم حمل كلهم سمي مروة.

٧٠- فله عند كل فعل وترك اسم يخصه، بحسب متعلقه، والإسم الجامع لذلك كله «الصبر». وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها. وهكذا يسمى عدلاً إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم. ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار. وعلى هذا جميع منازل الدين.

\*\*\*

---

(١) الكَلِّ: هو الثقل من كل ما يُكَلِّف، ومنه حديث خديجة رضى الله عنها «إنك لتحمل الكَلَّ...».

## الباب الرابع

### فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

٧٣- الفرق بين هذه الأسماء بحسب حلالى العبد فى نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعى مالا يحسن إن كان خلقاً له وملكة سى صبراً. وإن كان بتكلف وتمرن ونجوع لمرارته سى تصبراً، كما يدل عليه هذا البناء لفة، فإنه موضوع للتكلف كالتحمل والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها.

٧٤- وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «ومن يتصبر يصبره الله» (١) وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية كذلك سائر الأخلاق.

٧٥- وهى مسألة اختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها أو التخلق لا يصير خلقاً أبداً؟ كما قال الشاعر:

يُرَادُّ من القلب نسيانكم وتَأبى الطباعُ على الناقل

وقال آخر:

يا أيها المتعلى غير شيمته إنَّ التخلقَ يأتى دونه الخلقُ

فقبحُ التطيع شيمة المطبوع

٧٦- قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخلق والخلق والرزق والأجل.

وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك. قالوا والمزاوالت تعطى الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة.

٧٧- قالوا: والعوائد تنقل الطباع. فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير

---

(١) جزء من حديث أبى سعيد الخدرى، أخرجه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

الصبر له سحبة ، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطباع .

٧٨- قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم فنقل الطباع عن مقتضياتها غير مستحيل ، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث ، وقد يكون قوياً ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد . وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً ، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذي انتقل عنه .

٧٩- وأما الاضطراب فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاضطراب ، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اضطراباً .

٨٠- وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاة والمضاربة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾<sup>(١)</sup> فأمرهم بالصبر ، وهو حال الصابر في نفسه والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة فقد يصبر العبد ولا يصابر . وقد يصابر ولا يرباط . وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى ، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى ، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته .

\*\*\*

(١) سورة آل عمران: آية (٢٠٠) .

(٢) سورة البقرة: آية (١٨٩) .

## الباب الخامس

### فى انقسامه باعتبار محله

٨١- الصبر ضربان، ضرب بدنى وضرب نفسانى. وكل منهما نوعان: اختيارى واضطرارى، فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدنى الاختيارى كتعاطى الأعمال الشاقة على البدن اختياراً وإرادةً.

الثانى: البدنى الاضطرارى كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات، والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفسانى الاختيارى، كصبر النفس عن فعل مالا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

الرابع: النفسانى الاضطرارى، كصبر النفس عن محبوبها قهراً إذا حيل بينها وبينه.

٨٠- فإذا عرفت هذه الأقسام فهى مختصة بنوع الإنسان دون البهائم ومشاركة للبهائم فى نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبراً من الإنسان، وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره فى النوع الذى يشارك فيه البهائم لا فى النوع الذى يخص الإنسان فيعد صابراً وليس من الصابرين.

٨١- فإن قيل: هل يشارك الجن والإنس فى هذا الصبر؟

قيل نعم هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهى، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك.

فإن قيل فهل هم مكلفون على الوجه الذى كلفنا نحن به أم على وجه آخر؟

قيل ماكان من لوازم النفوس كالحب والبغض والإيمان والتصديق والمالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان كغسل الجنابة و غسل الأعضاء فى الوضوء والاستنجاء والحلقان وغسل الحيفض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا فى

تكلفه، وإن تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم.

٨٢- فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة فى شيء من أقسام الصبر؟

قيل الملائكة لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم. كالنفس لنا فلا يتصور فى حقهم الصبر الذى حقيقته ثبات باعث الدين والعقل فى مقابلة باعث الشهوة والهوى، وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

٨٣- فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشیاطين وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم.

٨٤- قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم.

٨٥- ولما خلق الإنسان فى ابتداء أمره ناقصاً لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه، فصبره فى هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تميزه قوة الاختيار، فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختيارى على ضعفها فيه، فإذا علقت به شهوة التكاثر ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقوى استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصدة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها، رأى فى ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما. فتَلَمَّح العواقب وليس لأمة<sup>(١)</sup> الحرب وأخذ أنواع الأسلحة. ووقع فى حومة الحرب بين داعى الطبع والهوى وداعى العقل والهدى. والمنصور من نصره الله والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل فى إحدى المنزلتين. ويصير إلى ما خلق له من الدارين.

(١) (لأمة) الحرب: أى أدوات الحرب كلها من رمح وسيف ودرع وغيرها.



## الباب السادس

### فى بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

٨٦- وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعى الدين فيرد جيش الهوى مفلولاً<sup>(١)</sup>. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم المتصورون فى الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿ربنا الله ثم استقموا﴾<sup>(٢)</sup> وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾<sup>(٣)</sup> وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين. وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعى الهوى فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا.

وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم. وهذه حال العاجز الضعيف.

الثانية: أن يصير الشيطان من جنده. وهذه حال الفاجر القوى المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكننت امرأة من جند إبليس فارتقى  
بى الحال حتى صار إبليس من جندى  
فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه

(٢) سورة فصلت: آية (٣٠).

(١) أى مهزوماً.

(٣) سورة فصلت: آية (٣٠، ٣١).

الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

وجند أصحابها المكر والخداع والأمانى الباطلة والغرور والتسويق بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»<sup>(١)</sup>.

٨٨ - وأصحاب هذه الحالة أنواع شتى فمنهم المحارب لله ورسوله. الساعى فى إبطال ما جاء به الرسول. يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول. المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين. الذى يأكل بالكفر والإسلام ومنهم الماجن المتلاعب الذى قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلا مطمع لى فيها. ومنهم من يقول ليس الله محتاجاً إلى صلاتى وصيامى وأنا لا أنجو بعملى والله غفور رحيم. ومنهم من يقول ترك المعاصى استهانة بعفو الله ومغفرته!!

فكثُر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول ماذا تقع طاعتى فى جنب ما قد عملت. وما ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقى بدنه غريق. ومنهم من يقول سوف أتوب. وإذا جاء الموت ونزل بساحتى تبت وقيلت-توبتى. إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم فى أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا فى دقائق الخيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهواته، فمقله مع الشيطان كالأسير فى يد الكافر، يستعمله فى رعاية الخنازير وعصر الخمر وتحمل الصليب، وهو يقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلماً، وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

(١) جزء من حديث شهاد بن أوس، وعلمه «الكيس» من «ان نفسه»، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله.

أخرجه الترمذى (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٢٤/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٣٨/٧).

## [فصل]

٨٩- وها هنا نكتة<sup>(١)</sup> بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان يصد أن يستأسره ويقهره ويشقى غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربتة، واستسلم له سلط عليه عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ \* إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون \* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون<sup>(٢)</sup>.

٩٠- فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقررراً له: ﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ \* وما كان له عليهم من سلطان إلا لتعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك<sup>(٤)</sup>.

٩١- قيل: السلطان الذي أثبت له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم ووسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

(١) النكتة: هي الدققة، وجمعها النكت، سميت بذلك لتأثيرها في النفوس، من نكت في الأرض إذ ضرب فائر فيها بقضيب أو نحوه، أو لحصولها بحالة فكرية شبيهة بالنكت، أو مقارنة لها غالباً، ويقال لها اللطيفة إذا كان تأثيرها في النفس حيث تورث نوعاً من الاستبطاط.

(٢) سورة إبراهيم: آية (٢٢).

(٣) سورة النحل: آية (٩٨-١٠٠).

(٤) سورة سبأ: آية (٢٠-٢١).

الثانى: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم فى جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن من قصد أعظم أولياته وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

### [فصل]

٩٢- الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين، فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

٩٣- وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة.

٩٤- ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة، وهذه الأحوال الثلاث هى أحوال الناس فى الصحة والمرض، فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة، ومنهم من يقهر داءه قوته ويكون السلطان للداء، ومنهم من الحرب بين دأبه وقوته نوباً فهذا متردد بين الصحة والمرض.

### [فصل]

٩٤- ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس، ومثال الأول كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة والثانى كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصصره بغير مشقة، فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان.

٩٥- قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « لقي رجلاً من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصصره الإنسى. فقال مالى أراك ضئيلاً ؟ فقال إنى من بينهم لضليع » فقالوا -أهو عمر بن الخطاب ؟ فقال « من ترونه غير عمر ».

٩٦- وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن ينضى<sup>(١)</sup> شيطانه كما ينضى أحدكم بغيره في السفر».

٩٧- وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن شيطاناً لقي شيطاناً فقال مالي أراك شحياً ؟ فقال إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا أكل معه. وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه وإن دخل بيته ذكر اسم الله قأبئت خارج الدار، فقال الآخر لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فأكل أنا وهو جميعاً. وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها.

٩٨- فمن اعتاد الصبر هابه عدوه. ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.

\*\*\*

---

(١) يُنضى: أى يهزل ويجعله نضواً، والنضو: الدابة التى أهزلتها الأسفار. قلت: وهو حديث مرفوع أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٠) عن أبى هريرة وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

## الباب السابع

### فى ذكر أقسامه باعتبار متعلقه

٩٩- الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

١٠٠- وهذه الأنواع الثلاثة هى التى قال فيها الشيخ عبد القادر<sup>(١)</sup> فى «فتوح الغيب»: لا يد للعبد من أمر يفعله ونهى يجتنبه. وقدر يصبر عليه.

١٠١- وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذى من جهة الرب فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعى دينى وحكم كونى قدرى. فالشرعى متعلق بأمره. والكونى متعلق بخلقه. وهو سبحانه له الخلق والأمر وحكمه الدينى الطلبى نوعان بحسب المطلوب فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله إما واجباً وإما مستحباً. ولا يتم ذلك إلا بالصبر. وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة. وذلك أيضاً موقوف على الصبر. فهذا حكمه الدينى الشرعى. وأما حكمه الكونى فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التى لا صنع له فيها. ففرضه الصبر عليها وفى وجوب الرضا بها قولان للعلماء وهما وجهان فى مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب. فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور وترك المحظور. والصبر على المقدور.

١٠٢- وأما الذى من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفاً ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف.

(١) هو الشيخ عبد القادر الجيلانى، إمام الحنابلة وشيخ الصوفية فى عصره، قال عنه الحافظ ابن رجب: «... انتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته، ومكاشفاته، وهابه الملوك فمن دونهم». من مؤلفاته «الغنية»، و«الفتح الربانى»، و«فتوح الغيب» توفى فى سنة ٦٦١ هـ. (انظر شدوات الذهب ٢٠٢-١٩٨/٤، معجم المطبوعات ص ٧٢٨-٧٢٧).

فقيام عبودية الأمر والنهى والقدر على ساق الصبر. لا تستوى إلا عليه كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها. فالصبر متعلق بالمأمور والمحذور والمقدور بالخلق والأمر. والشيخ<sup>(١)</sup> دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة. كقوله يا بنى أفعل المأمور واجتنب المحذور واصبر على المقدور.

١٠٣- وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه فى قوله: ﴿يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾<sup>(٢)</sup> فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به. وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه. وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الأمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى.

١٠٤- وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى قوله: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾<sup>(٣)</sup>.

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان فى هذه الأوصاف. فوصفهم بالوفاء بعهده الذى عاهدهم عليه. وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهد إليهم بينهم وبينه. وبينهم وبين خلقه ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه.

ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويدخل فى هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه. فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له. والقيام بطاعته والإنابة إليه. والتوكل عليه. وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه. والاستكانة له والخضوع والذلة له. والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد.

١٠٥- وقد أمر الله بهذه الأسباب التى بينه وبين عبده أن توصل وأمر أن توصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه فى كل شىء، والرضا لحكمه والتسليم له. وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين. صلوات الله

(١) أى المرشد المربى.

(٢) سورة لقمان: آية (١٧).

(٣) سورة الرعد: آية (١٩-٢٢).

وسلامه . فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله . وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة . فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام ذلك مما أمر به أن يوصل . وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسى ولا نكلفهم فوق طاقتهم . وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا ، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر ، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتى إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جلسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه . فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل .

١٠٦- ثم وصقهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشية وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الرصلة .

١٠٧- ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ ، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه .

١٠٨- ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهي الصلاة فقال : ﴿وأقاموا الصلاة﴾ . وهذا هما العنوانان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة ، فقال تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾<sup>(٢)</sup> .

١٠٩- ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرّاً وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم .

١١٠- ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثل ، بل يدرأون بالحسنة السيئة ، فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾

(١) سورة البقرة: آية (٤٥) .

(٢) سورة البقرة: آية (١٥٣) .



وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾<sup>(١)</sup> وقال النبي ﷺ « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةُ تَمْحُهَا »<sup>(٢)</sup> والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

١١١- والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها: اشتملت على فعل المأمور وترك المحذور، والصبر على المقدور.

وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾<sup>(٣)</sup> وقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرُ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة. فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحذور.

---

(١) سورة هود: آية (١١٤).

(٢) جزء من حديث أبي ذر، أخرجه الترمذي (١٩٨٧) والدارمي (٢٧٦٤). وأحمد (١٥٣/٥). وقال الترمذي: حسن صحيح، وتماه «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن».

(٣) سورة آل عمران: آية (١٢٥).

(٤) سورة يوسف: آية (٩٠).

## الباب الثامن

### فى انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به

- ١١٢- وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح.
- ١١٣- فالصبر الواجب ثلاثة أنواع: أحدهما الصبر عن المحرمات، والثانى الصبر على أداء الواجبات، والثالث الصبر على المصائب التى لا صنع للعبد فيها، كالأمراض والفقر وغيرها.
- ١١٤- وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجانى بمثل فعله.
- ١١٥- وأما المحظور فأنواع: أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت. وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت. قال طاوس وبعده الإمام أحمد: من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار.
- ١١٦- فإن قيل: فما تقولون فى الصبر عن المسألة فى هذه الحال.
- قيل: اختلف فى حكمه هل هو حرام أو مباح، على قولين هما لأصحاب أحمد وظاهر نضه أن الصبر عن المسألة جائز، فإنه قيل له إذا خاف إن لم يسأل أن يموت؟ فقال لا يموت، يأتية الله برزقه، أو كما قال، فأحمد منع وقوع المسألة. ومتى علم الله ضرورته وصدقه فى ترك المسألة قبض الله له رزقاً.
- وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعى: يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصياً لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف.

### [فصل]

- ١١٧- ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سيع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره فى الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب، كما دلت عليه النصوص الكثيرة، وقد سئل النبى ﷺ عن هذه المسألة بعينها فقال: «كن كخير ابنى آدم» وفى لفظ: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد

الله القاتل» وفي لفظ: «دعه يئوه بإثمه وإثمك»، وفي لفظ آخر: «فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك»<sup>(١)</sup> وقد حكى الله استسلام خير ابنى آدم وأثنى عليه بذلك<sup>(٢)</sup>. وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام، فإن كان عن معصوم غيره وجب. وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع، وأوجبه بعضهم، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرّمته بالفاحشة.

### [فصل]

١١٧- وأما الصبر المكروه فله أمثلة: أحدها أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه. الثاني صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به الثالث صبره على المكروه. الرابع: صبره عن فعل المستحب.

### [فصل]

١١٨- وأما الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين خير بين فعله وتركه والصبر عليه.

١٢٠- وبالجملّة فالصبر على الواجب واجب وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه. والصبر عن المباح مباح. والله أعلم.

(١) قوله: «كن كخير ابنى آدم» أخرجه أبو داود (٤٢٥٧) من حديث سعد بن أبي وقاص، ومن حديث أبي موسى الأشعري رقم (٤٢٥٩)، وأخرجه الترمذي (٢٢٠٤) عن أبي موسى أيضاً وقال حسن غريب صحيح. وقوله: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل» أخرجه أحمد (١١٠/٥) والطبراني في الكبير (٦٨/٤) عن خباب بلفظ «فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول» قال أبو أيوب ولا أعلمه إلا قال «ولا تكن عبد الله القاتل قلت: فيه راء لم يسم من عبد القيس، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٣/٧) لم أعرفه وبقيّة رجاله رجال الصحيح

وقوله: «دعه يئوه بإثمه وإثمك» أخرجه أبو داود (٤٢٦١) وابن ماجه (٣٩٥٨) من حديث أبي ذر بلفظ «إن خشيت أن يهرك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك فيئوه بإثمك وإثمك». (٢) قال تعالى: «لئن بسطت إلى يدك لتفعلن ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين» [سورة المائدة: آية (٢٨)].

## الباب التاسع

### فى بيان تفاوت درجات الصبر

١٢١- الصبر كما تقدم نوعان: اختياري واضطرابي، والاختياري أكمل من الاضطرابي، فإن الاضطرابي يشترك فيه الناس ويتأتى عن لا يتأتى منه الصبر، الاختياري.

١٢٢- ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله فى ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألغوه فى الحب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد، ومن الصبر الثانى إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين فى الأرض.

١٢٣- وكذلك صبر الخليل، عليه السلام، والكلیم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله أولى العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾<sup>(١)</sup> وأولو العزم هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾<sup>(٢)</sup> وفى قوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾<sup>(٣)</sup> كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف، ونهاه سبحانه أن يتشبّه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾<sup>(٤)</sup>.

١٢٤- وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل فى الظرف وهو قوله: ﴿إذ نادى﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهى عنه، إذ يصير المعنى لا تكن مثله فى ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه فى هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به فقال: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت

(٢) سورة الشورى: آية (١٣).

(٤) سورة القلم: آية (٤٨).

(١) سورة الأحقاف: آية (٣٥).

(٣) سورة الأحزاب: آية (٧).

من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نتجى المؤمنين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وفى الترمذى وغيره عن النبى ﷺ أنه قال « دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> . فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به فى هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به فى السبب الذى أفضى به إلى هذه المناداة وهى مغاضبته التى أفضت به إلى حبسه فى بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم الذى قد امتلأ غيظاً وغضباً وهماً وحزناً وكظم عليه فلم يخرج.

١٢٥- فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل فى الظرف؟

قيل: ما فى صاحب الحوت من معنى الفعل.

١٢٦- فإن قيل: فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهى بقيد أو زمن كان داخلاً فى حيز النهى، فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت فى هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت، فنهى أن يشبه به فى الحال التى أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها فى الموضع الآخر واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

١٢٧- فإن قيل: فما متعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه، أى لا تكن مثله فى ندائه وهو ممتلىء غيظاً وهماً وغماً، بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لانداء كظيم.

قيل هذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن النهى لم يقع عن التشبه به فى مجرده، وإنما نهى عن التشبه به فى الحال التى حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن فى بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾، ثم قال: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ أى فى ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التى نهى عنها هى ضد الحالة التى

(١) سورة الأبياء: آية (٨٧-٨٨).

(٢) سنن الترمذى (٣٥٠٥) من حديث سعد بن أبى وقاص، وكذا رواه عنه النسائى فى عمل اليوم والليلة (٦٦١)، وأحمد (١/ ١٧٠)، والحاكم (٢/ ٣٨٣)، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبى.

أمر بها.

١٢٨- فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدرى الذى يقدره عليه ولا تكن كصاحب الخوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته.

قيل منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك فى قوله ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبِّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجبت له فنجيناه من الغم وكذلك تنجى المؤمنين ﴿١﴾ فكيف ينهى عن التشبه به فيما يتى عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ وعلى يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٤﴾. وقد شكى إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتى» (٥) الحديث. فالشكوى إليه سبحانه لا تنافى الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر والله تعالى يتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودهاءه. وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿٦﴾ والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه. والرب تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم كيف تشتكى إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال ربي يرضى ذل العبد إليه.

١٣٠- والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً وهذا أكمل الصبر ولهذا دارت قصة الشفاعة (٧) يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١) سورة الأنبياء: آية (٨٨-٨٧).

(٢) سورة الأنبياء: آية (٨٣).

(٣) سورة يوسف: آية (٨٦).

(٤) سورة القصص: آية (٢٤).

(٥) سورة المؤمنون: آية (٧٦).

(٦) سورة القصص: آية (٢٤).

(٧) سورة القصص: آية (٢٤).

(٨) سورة القصص: آية (٢٤).

(٩) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٠) سورة القصص: آية (٢٤).

(١١) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٢) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٣) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٤) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٥) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٦) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٧) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٨) سورة القصص: آية (٢٤).

(١٩) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٠) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢١) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٢) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٣) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٤) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٥) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٦) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٧) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٨) سورة القصص: آية (٢٤).

(٢٩) سورة القصص: آية (٢٤).

(٣٠) سورة القصص: آية (٢٤).

(٣١) سورة القصص: آية (٢٤).

(٣٢) سورة القصص: آية (٢٤).

١٣١- فإن قيل: أى أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور أم الصبر عن المحظور أم الصبر على المقدور؟

قيل الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهى أفضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتى به البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل. وأعظمهم اتباعاً أصبرهم فى ذلك، وكل صبر فى محله وموضعه أفضل: فالصبر عن الحرام فى محله أفضل، وعلى الطاعة فى محلها أفضل.

١٣٢- فإن قيل: أى الصبرين أحب إلى الله؟ صبر من يصبر على أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه؟

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس. فقالت طائفة الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب، فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون، قالوا ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شئ وأفضله.

١٣٣- وقالوا ولأن ترك المحبوب الذى تحبه النفس دليل على أن من ترك لأجله أحب إليه من نفسه وهواه، بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك قالوا وأيضاً فالمروءة والفتوة كلها فى هذا الصبر. قال الإمام أحمد: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى، فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر.

١٣٤- قالوا وليس العجب ممن يصبر على الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محاب للنفس الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المناهى التى أكثرها محاب للنفس فيترك المحبوب العاجل فى هذه الدار للمحبوب الآجل فى دار أخرى والنفس الموكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبيعتها.

١٣٥- قالوا: ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو إليها: نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شئ على النفوس وأمره.

١٣٦- قالوا فالمنهى من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحمية مع قيام داعى التناول وقوته من أصعب شئ وأشقه قالوا ولذلك كان باب قربان النهى مسدوداً كله . وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع كما قال النبي ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »<sup>(١)</sup>. فدل على أن باب المنهيات أضيّق من باب المأمورات وأنه لم يرخص فى ارتكاب شئ منه كما رخص فى ترك بعض المأمورات للعجز والعذر. قالوا: ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور، فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حداً معيناً فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختلف العلماء هل على تاركها حد أم لا ؟  
فهذا بعض ما احتجت به الطائفة.

١٣٧- وقالت طائفة أخرى بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك المحذور، لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحذور، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى، وبيان ذلك من وجوه.

١٣٨- أحدها: أن فعل المأمور مقصود لذاته فهو مشروع شرع المقاصد، فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه، وإخلاص العمل له ومحبة والرضا به والقيام فى خدمته هو الغاية التى خلق لها الخلق وثبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه والمنهيات إنما نهى عنها لأنها صادة عن ذلك، أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله. ولذلك كانت درجاتها فى النهى بحسب صدها عن المأمور وتعويقها عنه وتفويتها لكماله، فهى مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لنفسه، فلو لم يصد الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التوادر والتحاب الذى وضعه الله بين عباده لما حرمه، وكذلك لو لم يحل بين العبد وبين عقله الذى به يعرف الله ويعبده ويحمده ويمجده ويصلى له ويسجد لما حرمه. وكذلك سائر ما حرمه إنما حرمه لأنه يصد عما يحبه ويرضاه ويحول بين العبد وبين إكماله.

١٣٩- الثانى: أن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبة والتوكل عليه والإنابة إليه فمتعلقها ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته، ومتعلق المنهيات ذوات الأشياء المنهى عنها. والفرق من أعظم ما يكون.

(١) جزء من حديث أبى هريرة أخرجه البخارى (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).



١٤٠- الثالث: أن ضرورة العبد وحاجته إلى فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور. فإنه ليس إلى شيء أحوج وأشد فاقة منه إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له، وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة، وضرورته إلى ذلك أعظم من ضرورته إلى نفسه، ونفسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذى به قوام بدنه بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه لا يبدنه وقلبه، كما قيل:

يا خادماً الجسم كم تشقى بخدمته      فأنْتَ بالقلب لا بالجسم إنسان  
وترك المنهى إنما شرع له تحصيلاً لهذا الأمر الذى هو ضرورى له وما أحوجُه وأفقره إليه.

١٤١- الرابع: أن ترك المنهى من باب الحمية<sup>(١)</sup>، وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذى لا تقوم البنية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تركه الحمية وإن كان بدنه عليلًا أشد ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذى يحفظها فهذا مثل المأمورات والمنهيات.

١٤٢- الخامس: أن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين: ترك المأمور وفعل المحظور، ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود فى النار. ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلداً فى السعير، فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار، إلى شيء وزن الجبال منه أضعافاً مضاعفة لا تقتضى الخلود فى النار، مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

١٤٣- السادس: أن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة إلا بالشرك أو الوفاة عليه، ولا خلاف بين الأمة إن كل محظور يسقط بالتوبة منه، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية، وفى المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه.

١٤٤- السابع: أن ذنب الأب<sup>(٢)</sup> كان بفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتنابه ربه فتاب عليه وهدى. وذنب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه، وجعل

(٢) أى آدم عليه السلام.

(١) الحمية: الإقلال من الطعام وغيره.

هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة.

١٤٥- الثامن: أن المأمور محبوب إلى الرب، والمنهى مكروه له، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى. أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك. وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة. على العبد والعفو عنه، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغير ذلك مما هو أحب إليه تعالى من فواته بعدم تقدير ما يكرهه، وإذا كان إنما قدر ما يكرهه لأنه يكون وسيلة إلى ما يحب، علم أن محبوبه هو الغاية، ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه، بل إذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر كان المبغوض مراداً له إرادة الوسائل، كما كان النهي عنه وكراهته لذلك. وأما المحبوب فمراده إرادة المقاصد كما تقدم، فهو سبحانه إنما خلق الخلق لأجل محبوبه وأموره وهو عبادته وحده. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(١)</sup> وقدر مكروهه ومبغوضه تكميلاً لهذه الغاية التي خلق خلقه لأجلها فإنه ترتب عليه من المأمورات ما لم يكن يحصل بدون تقديره كالجهاد الذي هو أحب العمل إليه والموالة فيه والمعاداة فيه، ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما يكون سبباً لحصولها.

١٤٦- التاسع: أن ترك المحظور لا يكون قربة مالم يقارنه فعل المأمور، فلو ترك العبد كل محظور لم يشبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون تركه لله، فافتقر ترك المنهيات بكونه قربة يثاب عليها إلى فعل المأمور، ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبداً، وهذا من أبطال الباطل.

١٤٧- العاشر: أن النهي عنه مطلوب إعدامه. والمأمور مطلوب إيجاده والمراد إيجاد هذا وإعدام ذاك، فإذا قدر عدم الأمرين أو وجودهما كان وجودهما خير من عدمهما فإنه إذ عدم المأمور لم ينفع عدم المحظور، وإذا وجد المأمور فقد يستعان به على دفع المحظور أو دفع أثره، فوجود القوة والمرض خير من عدم الحياة والمرض.

١٤٨- الحادي عشر: أن باب المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف

(١) سورة الذاريات: آية (٥٦).

إلى أضعاف كثيرة، وباب المحذور السيئة فيه يمثلها وهي بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار، والحسنة الماحية والمصيبة المكفرة واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم النهي.

١٤٩- الثاني عشر: أن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويطل أثره بأمر عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يطله بالتوبة النصوح وبلاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين، فهذه ستة في حال حياته. وبتشديد الموت وكربه وسياقه عليه. فهذا عند مفارقتها الدنيا. وبهول المطلع وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له وشدة الموقف وعناثه وصعوبته، وبشفاعة الشافعين فيه. وبرحمة أرحم الراحمين له. فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بد له من دخول النار. ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبيثه ودرنه. فإن الله حرم الجنة إلا على كل طيب، فمادام درنه ووسخه وخبيثه فيه فهو في كبر التطهير حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبيث، وأما باب المأمورات فلا يطله إلا الشرك.

١٥٠- الثالث عشر: أن جزاء المأمورات الثواب وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات العقوبة وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته سبحانه تغلب غضبه: فما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه مما تعلق بالغضب والعدل، وتغلب ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب.

١٥١- الرابع عشر: أن باب المنهيات تُسقط الآلاف المؤلفة منه الواحدة من المأمورات، وباب المأمورات لا يُسقط الواحدة منه الآلاف المؤلفة من المنهيات.

١٥٢- الخامس عشر: أن متعلق المأمورات الفعل وهو صفة كمال، بل كمال المخلوق من فعاله فإنه فعل فكمّل. ومتعلق النهي الترك، والترك عدم، ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالاً، فإن العدم المحض ليس بكمال، وإنما يكون كمالاً لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودي الذي هو سبب الكمال، وأما أن يكون مجرد الترك الذي هو عدم محض كمالاً أو سبباً للكمال فلا.

مثال ذلك لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالاً، وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمناً ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب

وموالاته وطاعته، فعلم أن الكمال كله في المأمور، وأن المنهى مالم يتصل به فعل المأمور لم يقد شيئاً ولم يكن كمالاً، فإن الرجل لو قال للرسول لا أكذبك ولا أصدقك ولا أواليك ولا أعاديك. ولا أحاربك ولا أحارب من يحاربك، لكان كافراً ولم يكن مؤمناً بترك معاداته وتكذيبه ومخاوبته مالم يأت بالفعل الوجودي الذي أمر به.

١٥٣- السادس عشر: أن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهى عنه ولا بد. فالمقصود إنما هو فعل المأمور، ومع فعله على وجهه يتعذر فعل المنهى فالمنهى عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة، فإن العبد إذا فعل ما أمر به من العدل والعفة وامتنع من صدور الظلم والفواحش منه، فنفس العدل يتضمن ترك الظلم، ونفس العفة تتضمن ترك الفواحش، فدخل ترك المنهى عنه في المأمور به ضمناً وتبعاً، وليس كذلك في عكسه فإن ترك المحظور لا يتضمن فعل المأمور فإنه قد يتركهما معاً كما تقدم. فعلم أن المقصود هو إقامة الأمر على وجهه. ومع ذلك لا يمكن إرتكاب النهى البتة. وأما ترك المنهى عنه فإنه يستلزم إقامة الأمر.

١٥٤- السابع عشر: أن الرب تعالى إذا أمر عبده بأمر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعاً كان قد حصل محبوب الرب وبغيضه. فقد تقدم له من محبوبه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته. ولا سيما إذا كان فعل ذلك المحبوب أحب إليه من ترك ذلك البغيض فيهب له من جنائته ما فعل من هذا بطاعته، ويهجاور له عما فعل من الآخر.

ونظير هذا في الشاهد أن يقتل الرجل عدواً للملك هو حريص على قتله. وشرب مسكراً نهاه عن شربه. فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها في جنب ما أتى به من محبوبه. وأما إذا ترك محبوبه وبغيضه فإنه لا يقوم ترك بغيضه بمصلحة فعل محبوبه أبداً. كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب مسكر فعصاه في قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر. فإن الملك لا يهب له جرمة بترك أمره في جنب ترك مانهاه عنه. وقد فطر الله عباده على هذا. فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهن. ليس التارك منهم محبوب الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمر ومكروهه.

١٥٥- يوضحه الوجه الثامن عشر: أن فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع مكروهه بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه فيستحيل الإتيان بجميع

مكروهه وهو يفعل ما أحبه وأبغضه فغايتته أنه اجتمع الأمران فيحبه الرب تعالى من وجه ويبغضه من وجه. أما إذا ترك المأمور به جملة فإنه لم يقم به ما يحبه الرب عليه فإن مجرد ترك المنهى لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر. فصار ميغوضاً للرب تعالى من كل وجه إذ ليس فيه ما يحبه الرب عليه. فتأمل.

١٥٦- يوضحه الوجه التاسع عشر: وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمر وجودى أمر به إيجاباً أو استحباباً ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا فى موضع واحد فإنه يحب التوابين ويحب المحسنين. ويحب الشاكرين. ويحب الصابرين ويحب المتطهرين. ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. ويحب المتقين ويحب الذاكرين، ويحب المتصدقين، فهو سبحانه إنما علق محبته بأوامره إذ هى المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾<sup>(١)</sup> فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره، وما نهاهم إلا عما يصددهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها.

١٥٧- يوضحه الوجه العشرون: أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذى أمر الله بها لم يكن للنهى عنها معنى، وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها لها وصددها عنها، فالنهى عنهما من باب التكميل والتتمة للمأمور، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجرى فى مجاريه غير معوق، فالأمر بمنزلة الماء الذى أرسل فى نهر الحياة البلاد والعباد، والنهى بمنزلة تنظيف طرقه ومجره وتنقيتها مما يعوق الماء، والأمر بمنزلة القوة والحياة، والنهى بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والدواء الخادم لها.

١٥٨- قالوا: وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس، وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين، وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهى فقوة صبره هناك ضعيفة، ومنهم من هو بالعكس من ذلك ومنهم من قوة صبره فى جانب الأمر أقوى، ومنهم من هو بالعكس والله أعلم.

(١) سورة الذاريات: آية (٥٦).

## الباب العاشر

### فى انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

١٥٩- فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتقويت ماخلق له. وهذا كما أنه أفصح الصبر فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذى لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالزهد فى هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهد: «ما رأيت أزهده منك». فقال: «أنت أزهده منى، أنا زهدت فى الدنيا وهى لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت فى الآخرة، فمن أزهده منا؟». قال يحيى بن معاذ الرازى: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، وأعجباً كيف يصبرون» وفى هذا قيل:

الصبرُ يحمّدُ فى المواطنِ كلّها      إلا عليك فإنه لا يحمّدُ

ووقف رجل على الشبلى فقال: «أى صبر أشد على الصابرين؟» فقال «الصبر فى الله». قال (لا) فقال: «الصبر لله». فقال: (لا). قال: «فالصبر مع الله» قال: (لا) قال: «فإيش<sup>(١)</sup> هو». قال: (الصبر عن الله) فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق.

١٦٠- وقيل: «الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء»، وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه فى محبته، ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبرُ عنك لمذمومٌ عواقبه      والصبرُ فى سائرِ الأشياءِ محمودٌ

وقال آخر فى الصبر عن محبوبه:

إذا لعبَ الرجالُ بكلِّ شيءٍ      رأيتَ الحبَّ يلعبُ بالرجالِ  
وكيفَ الصبرُ عمن حلَّ مني      بمنزلةِ اليمينِ مع الشمالِ

(١) هذا اللفظ «إيش» منحوت من (أى شيء) وقد تكلمت به العرب.

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسى من حبه فقال: «لو كنت صادقاً لما صبرت عنى».

ولما شكوت الحب قالت كذبتني ترى الصب عن محبوبه كيف يصبر

### [فصل]

١٦١- وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله، وصبر بالله، قال الله تعالى:

﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾<sup>(٢)</sup>.

١٦٢- وقد تنازع الناس أى الصبرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرأ وتقرباً إلى الله لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به، فما كان له سبحانه فهو متعلق بالوحيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بالوحيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجى من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرد، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شئ وربهم ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

١٦٣- وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى: ﴿واصبر﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذى يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾، فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التى تدل عليها باء المصاحبة كقوله: «فى يسمع وبى يبصر، وبى يبطش وبى يمشى»<sup>(٣)</sup> وليس المراد بهذه الباء الاستعانة. فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصى. فإن مالا يكون بالله لا يكون، بل هى باء المصاحبة والمعية التى صرح بمضمونها فى قوله: ﴿إن الله مع الصابرين﴾<sup>(٤)</sup> وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له. فيه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه. ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله. كما فى الأثر الإلهى يعنى: «وما يتحمل المتحملون من أجلى». فدل قوله: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾، على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه

(٢) سورة الطور: آية (٤٨).

(٤) سورة البقرة: آية (١٥٣).

(١) سورة النحل: آية (١٢٧).

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٦٥).

المصير، وكيف يصبر على الحكم الأمرى امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدرى احتمالاً له وإضطلاعاً به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع فى درجة الصبر المحمود عواقبه. من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع فى درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمح وبصره وبطشه ومشيه بالله.

وهذا هو المراد من قوله: «كنت سمعته الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به. ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها» ليس المراد أنى كنت نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة، وإن ذات العبد هى ذات الرب تعالى الله عن قول إخوان النصارى علواً كبيراً، ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره، ولا بين حالتي تقربه إلى ربه بالتواضع وتمقته إليه بالمعاصى بل لم يكن هناك متقرب ومتقرب إليه، ولا عبد ولا معبود، ولا محب ولا محبوب فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهاً تعرف بالتأمل الظاهر. وقد فسر المراد من قوله: «كنت سمعته وبصره ويده ورجله» بقوله «فبى يسمع وبى يبصر بى يبطش وبى يمشى»، فبصر عن هذه المصاحبة التى حصلت بالتقرب إليه بمحابه بالطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار له بمنزلة سمعته وبصره ويده ورجله.

ونظير هذا قوله: «الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه»<sup>(١)</sup>.

١٦٤- ومثل هذا شائع فى الاستعمال أن ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبيب أنت روحى وسمعى وبصرى. وفى ذلك معنيان: أحدهما أنه صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعته وبصره. والثانى: أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه كما فى الحديث يقول الله تعالى: «أنا جليس من ذكرنى»<sup>(٢)</sup>

---

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣٢٨/٦)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٨٥/٢) عن جابر، ولا يصح من هذا الطريق، فيه إسحاق بن بشر وهو كذاب.  
والديلمى فى الفردوس (١٥٩/٢) عن أنس ورمز السيوطى لضعفه فى الجامع الصغير (٤٠٩/٣)، (٤١٠).  
وعزاه العراقى فى تخريج الإحياء (١٠٣/١) للحاكم وصححه من حديث ابن عمر.  
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (٣٧٤/١) ط الهند ١٩٧٥ م عن أبى بن كعب، والديلمى فى الفردوس (٤٥٣٣) عن ثوبان أن موسى عليه السلام قال: «يارب اقرب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك فقيل له: يا موسى أنا جليس من ذكرنى»



وفى الحديث الآخر: «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه»<sup>(١)</sup> وفى الحديث: «إذا أحببت عبدى كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً»<sup>(٢)</sup> ولا يعبر عن هذا المعنى بأنهم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها وإيضاح هذه العبارة مما يزيد بها جفاء وخفاء.

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله. وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره. وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو على: «فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيته». قال تعالى: «إن الله مع الصابرين»<sup>(٣)</sup>.

١٦٥- وهاتنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه. وقد قيل إن الله سبحانه أوحى إلى داود «تخلق بأخلاقى فإن من أخلاقى إني أنا الصبور» والرب تعالى يحب أسماء وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها فى العبد فإنه جميل يحب الجمال عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين، شكور يحب الشاكرين، وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الإنصاف، فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله «كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً».

### [فصل]

١٦٦- وزاد بعضهم قسماً ثالثاً من أقسام الصبر وهو الصبر مع الله وجعلوه أعلى أنواع الصبر. وقالوا هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التى ذكرت، وهى الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائماً مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٥٤٠، وابن ماجه (٣٧٩٢) والحاكم (٤٩٦/١) وصححه وأقره الذهبى، وابن حبان (٨١٥) الإحسان.

عن أبى هريرة، والبخارى تعليقا (٤٩٩/١٣).

(٢) تقدم نحوه، وهذا اللفظ أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٥٧٧).

(٣) سورة البقرة: آية (١٥٣).

حق ولكن مدبر، على الصبر على الأنواع المتقدمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر، فهذا حق ولكن جعله قسماً رابعاً من أقسام الصبر غير مستقيم.

١٦٧- واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا. فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه.

١٦٨- وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسماه الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له. وهذا كما يقال فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو<sup>(١)</sup> نزع

وقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿وجاهدوا في الله﴾<sup>(٣)</sup> وفي حديث جابر «إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: تمن قال يارب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أقتل فيك مرة ثانية»<sup>(٤)</sup>. قال عليه السلام: «ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد»<sup>(٥)</sup>.

١٦٩- وهذا يفهم منه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله. وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث: «تعلمت فيك العلم»<sup>(٦)</sup>.

(١) خبيب: صحابي جليل، وقد سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبراً.

وشلو: أى عضو، يجمع على الأشلاء، وقبل هذا البيت  
ولست أبالي حين أقتل مسلماً  
على أى شئ كان لله مصرعى

روى البخارى (٣٠٤٥) البيهقي مع قصة قتله.

(٢) سورة العنكبوت: آية (٦٩).

(٣) سورة الحج: آية (٧٨).

(٤) حديث جابر أخرجه أحمد في المستدرك (٣/٣٦١) والحاكم في المستدرك (٢/١٢٠) بهذا اللفظ وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي وقال أبو حماد هو المفضل بن صدقة قال النسائي متروك.

قلت: وأخرجه البخارى (٧٢٢٦) ومسلم (١٨٧٦) عن أبي هريرة وفيه «وددت أن أقاتل في سبيل الله ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل».

(٥) جزء من حديث أنس، أخرجه الترمذى (٢٤٧٢) وقال حسن غريب وابن ماجه (١٥١).

(٦) جزء من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد (٢/٣٢٢) بهذا اللفظ، وأخرجه أيضاً مسلم (١٩٠٥)، والنسائي بلفظ «تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن».

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم: «ذلك في الله» في هذا المعنى، فتأمل قوله ﷺ: «ولقد أوديت في الله» وقول حبيب «وذلك في ذات الإله»، وقوله عبد الله بن خزام «حتى أقتل فيك» وكذلك قوله: «والذين جاهدوا فينا»؛ فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست «في» هاهنا للظرفية ولا لمجرد السببية، وإن كانت النسبية هي أصلها فانظر إلى قول: «في نفس المؤمن مائة من الإبل»<sup>(١)</sup>، وقوله: «دخلت امرأة النار في هرة»<sup>(٢)</sup> كيف تجد فيه معنى زائداً على السببية، وليست «في» للوعاء في جميع معانيها فقولك «فعلت هذا في مرضاتك» فيه معنى زيد على قولك «فعلته لمرضاتك» وأنت إذا قلت «أوديت في الله» لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك «أو ذيت لله» ولا «بسبب الله» وإذا فهم المعنى طوى حكم العبارة، والمقصود أن الصبر في الله إن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر على أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في الله كالجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله. والله الموفق.

١٧٠- وأما قول بعضهم: (الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء)، فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ماسنح له وتصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم ونحن نشرح هذه الكلمات.

١٧١- أما قوله: (الصبر لله غناء)، فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمрад الله وهذا أشق شيء على النفس، وأصعبه، فإن قطع المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديداً جداً على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل، يعنى على المؤمن وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.

وأما قوله: (والصبر بالله بقاء)، فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلًا، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه، كان لقلبه وروحه

(١) جزء من حديث عمرو بن حزم، أخرجه مالك في الموطأ (٨٤٩/٢)، والسنائي (٨/٥٧-٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٦١٩) عن أبي هريرة.

وجود آخر وشأن آخر، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالحلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيمًا وقرة عين. كما قال بعض الزهاد: عاجلت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة. ومن كانت له قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

١٧٣- وأما قوله: (والصبر في الله بلاء)، فالبلاء فوق العناء، والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم، فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له، فكل مجاهد في الله وصابر في الله. مجاهد له وصابر له، من غير عكس فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه إسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة.

١٧٤- وأما قوله: (والصبر مع الله وفاء)، فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة فتعطى المعية حقها من التوفية كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾<sup>(١)</sup>، أى وفى ما أمر به بصره مع الله على أوامره.

١٧٥- وأما قوله: (والصبر عن الله جفاء)، فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذى لا مولى له سواه. ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته والقرب منه. وإيثار مرضاته على كل شيء. فأى جفاء أعظم من الصبر عنه. وهذا معنى قول من قال: الصبر على ضد بين صبر العابدين وصبر المحبين. فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا كما قيل:

يبين يوم البين أن اعتزامه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب  
وقال الآخر:

ولما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر  
قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿فصبر جميل﴾<sup>(٢)</sup>  
ورسول الله ﷺ إذا وعد وفى. ثم جملة الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال:  
﴿يا أسفا على يوسف﴾<sup>(٣)</sup>، فلم يكن عدم صبره عنه منافياً لقوله: ﴿فصبر جميل﴾، فإن

(١) سورة النجم: آية (٣٧).

(٢) سورة يوسف: آية (١٨).

(٣) سورة يوسف: آية (٨٤).

الصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد أمثل ما أمر به وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي». الحديث<sup>(٢)</sup>.

١٧٦- وأما قول بعضهم إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى من هو، فهذا من الصبر الجميل، لأن من فقد الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة وبالله التوفيق.

١٧٧- وزاد بعضهم فى الصبر قسماً آخر وسماه الصبر على الصبر وقال: هو أن يستغرق فى الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر كما قيل:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحسب بالصبر صبرا

وليس هذا خارجاً عن أقسام الصبر. وإنما هو المراقبة على الصبر والثبات عليه... والله أعلم.

\*\*\*

---

(١) سورة يوسف: آية (٨٦).

(٢) تقدم.

## الباب الحادى عشر

### فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

١٧٨- كل أحد لابد أن يصبر على بعض مايكره، إما اختياراً وإما اضطراراً، فالكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمد عليه، ويذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتاً. ولم ينتزع عنه مكروهاً وأن المقدور لا حيلة فى دفعه ومالم يقدر لا حيلة فى تحصيله، فالجزع ضره أقرب من نفعه، قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل مايفعله الأحق بعد شهر» كما قيل:

وأن الأمر يفضى إلى آخر فيصير آخره أولاً

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر فى أوله بما يستدبره الأحق فى آخره، وقال بعض العقلاء «من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم» فالكريم ينظر إلى المصيبة فإن رأى الجزع يردّها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

### [فصل]

١٧٩- وأما اللئيم فإنه يصبر اضطراراً فإنه يحرم حول ساحة الجزع فلا يراها تحدى عليه شيئاً فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضاً فالكريم يصبر فى طاعة الرحمن، واللئيم يصبر فى طاعة الشيطان، فاللئام أصبر الناس فى طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبراً فى طاعة ربهم، فيصبر على البذل فى طاعة الشيطان أتم صبر. ولا يصبر على البذل فى طاعة الله فى أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه فى مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق فى مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال فى عرضه فى المعصية، ولا يصبر على ما يقال فى عرضه إذا أودى فى الله بل يفر من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خشية أن يتكلم فى عرضه فى ذات الله، ويبدل عرضه فى هوى نفسه

ومرضاته صابراً على ما يقال فيه، وكذلك يصبرهم على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء عليهم التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريماً عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم، أين المتقون.

## الباب الثاني عشر

### فى الأسباب التى تعين على الصبر

١٨٠- لما كان الصبر مأموراً به جعل الله سبحانه له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه ونصب له أسباباً تمده وتعين عليه كما أنه ما قدر داءً إلا وقدر له دواءً وضمن الشفاء باستعماله.

١٨٢- فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التى تداوى بها القلوب والأبدان، فلا بد من جزء علمى وجزء عملى فمنهما يركب هذا الدواء الذى هو أنفع الأدوية.

١٨٣- فأما الجزء العلمى فهو إدراك ما فى المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما فى المحذور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغى أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية. وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة.

١٨٤- وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر، فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر، كالحال مع القوة والمرض سواء.

فإذا قوى باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه. أو يملكه ولكن لا يملك طرفه أو يملكه ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكير فيما ينفعه فى دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

١٨٥- أحدهما: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجارى الشهوة ويكسر حدتها، ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.



١٨٦- الثاني: أن يجتنب محرك الطلب وهو النظر فليقتصر لجام طرفه ما أمكنه، فإن داعى الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة، وفي المسند عنه عليه السلام: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»<sup>(١)</sup>. وهذا السهم يسدده إبليس نحو القلب ولا يصادف جنة<sup>(٢)</sup> دونه، وليست الجنة إلا غرض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي، فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم، وإن نصبت قلبك عرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

١٨٧- الثالث: تسليية النفس بالمباح المعوض عن الحرام، فإن كل ما يشتهي الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه. وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبي ﷺ فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضارى لإضعاف قوتها والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير عن البهيمة لئلا تتحرك قوتها له عند المشاهدة والدواء الثالث يشبه إعطائها من الغذاء ما يميل إليه طبعها بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبهما ؛ ولا تغلب بإعطائهما الزيادة على ذلك.

١٨٨- الرابع: التفكير في المفاصد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر<sup>(٣)</sup>. فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاصد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعى ولو تكلفنا عدداً لفأقت الحصر. ولكن عين الهوى عمياء.

١٨٩- الخامس: الفكرة في مقايح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره ؛ فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب كما قيل:  
سأترك وصلكم شرفاً وعزاً      لحسة سائر الشركاء فيه  
وقال آخر:

إذ كثر الذبابُ على طعامٍ      رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ  
وتجتنب الأسودُ ورودَ ماءٍ      إذا كان الكلابُ يَلْعَنُ<sup>(٤)</sup> فيه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣١٤/٤)، والديلمي في الفردوس (٦٨٧٢)، والأصبهاني في الترغيب (٣٨) عن خذيفة وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: إسحاق بن عبد الواحد وإ. وأخرجه الطبراني عن ابن مسعود، وفيه ضعف انظر مجمع الزوائد (٦٣/٨).

(٢) الجنة: السترة.

(٣) الوطر: الحاجة.

(٤) ولعَ الكلب يلعن فيه: أى شرب منه بلسانه.

وليزكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوى. فإن ريق الفاسق داء كما قيل:

تسلّ يا قلب عن سمح بمهجته      مبذل كل ما يلقاه يقرفه  
كالماء أى صيد يأتيه ينهله      والغصن أى نسيم من يعطفه  
وإن حلا ريق فاذا ذكر مرارته      فى فم أبخر<sup>(١)</sup> يحفيه ويرشفه

ومن له أدنى مروءة ونخوة بأنف<sup>(٢)</sup> لنفسه من مواصلة من هذا شأنه؛ فإن لم تحبه نفسه إلى الإعراض ورضى بالمشاركة فليتنظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبايح الباطنة، فإن من مكن نفسه من فعل القبايح فنفسه أقبح من نفوس البهائم، فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلاً إلا ما يحكى عن الخنزير، وأنه ليس فى البهائم لوطى سواء، فقد رضى هذا الممكن من نفسه أنه يكون بمنزلة الخنزير.

وهذا القبح يغطى كل جمال وملاحة فى الوجه والبدن. غير أن حبك الشيء يعمى ويصم، وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلمها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم، ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذى يعلو وجه أحدهما فى كبره، وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه كما قيل شعراً:

لو فكّر العاشق فى منتهى      حُسن الذى يسييه لم يسيه  
وتفصيل هذه الوجوه يطول جداً فيكفى ذكر أصولها.

### [فصل]

١٩٠- وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

١٩١- الثانى: مشهد محبته سبحانه، فيترك معصيته محبة له؛ فإن المحب لمن يحب

(١) البخر: داء يصيب الفم يجعله كريحه الرائحة.

(٢) الأنفة: العزة والحمية.

مطيع وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته يون<sup>(١)</sup> بعيد.

١٩٢- الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لثام الناس. فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته. حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه ومخالفاته ومعاصيه وقبائح صاعدة إلى ربه. فملك ينزل بهذا. وملك يعرج بذاك. فأقبح بها من مقابلة.

١٩٣- الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

١٩٤- الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، ويزول عنه من الاسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً. ويكفى في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة. فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعثها. تذهب الشهوة وتبقى الشقوة. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن»<sup>(٢)</sup>.

قال بعض الصحابة ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة. فإن تاب رجع إليه وقال بعض التابعين ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص فإن تاب لبسه، ولهذا روى عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «الزناة في التنور عراة»<sup>(٣)</sup>؛ لأنهم تعروا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنوراً ظاهراً يحمي عليه في النار.

١٩٥- السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشیطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعاً وأتم فرحة. وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد

(١) اليون: الفرق.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٦) والترمذي (٢٦٢٥) عن أبي هريرة وأخرجه البخاري (٦٧٧٢)، ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة أيضاً بلفظ «لا يزنى الزاني وهو مؤمن» بدون قوله «حين».

(٣) جزء من حديث سمرة بن جندب، أخرجه البخاري (٧٠٤٧) مطولاً، وفيه «وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل التنور فهم الزناة والزواني».

وأعاده إلى صحته واعتداله.

١٩٦- السابع: مشهد العوض وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوّض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

١٩٧- الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا يخفى عليه حاله. وقد تقدم هذا. والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟ إنما هي كأحلام نائم أو كظلم زائل.

١٩٨- التاسع: مشهد المغافصة<sup>(٤)</sup> والمعالجة وهو أن يخاف أن يغافسه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة فيألها من حسرة ما أمرها وما أصعبها لكن ما يعرفها إلا من جربها. وفي بعض الكتب القديمة: يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم.. الحذر الحذر!

١٩٩- العاشر: مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها. فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم. وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية، فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه، وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم والله أعلم.

٢٠٠- الحادي عشر: أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حيثئذ همته، فإن ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتقاد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها

(١) سورة البقرة: آية (١٥٣).

(٢) سورة النحل: آية (١٢٨).

(٣) سورة العنكبوت: آية (٦٩).

(٤) غَافَصَهُ: أَخَذَهُ عَلَى غُرَةٍ.

تلك الأعمال، ولذلك تجدد قوى الحمّالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البرّاز<sup>(١)</sup> والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة، ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

٢٠١- الثاني عشر: كف الباطل عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤوبها ويُسّاكنها فإنها تصير أمانى، وهى رؤوس أموال المفاليس، ومتى ساكن الخواطر صارت أمانى ثم تقوى فتصير هموماً ثم تقوى فتصير إرادات ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

٢٠٢- الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التى تدعوه إلى موافقة الهوى. وليس المراد أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه ويستعمله فى تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله فى معاصيه، فإن كل شىء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان وما لا يستعمله لله استعماله لنفسه وهواه ولا بد. فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى. والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق. والمال إن لم ينفق فى طاعة الله أنفق فى طاعة الشيطان والهوى. والجاه إن لم يستعمله صاحبه فى هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها فى أمر الله استعماله فى معصيته. فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره. ومن عود نفسه لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله. وهذا فى جميع أبواب الأعمال، فليس شىء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

٢٠٣- الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التى ندب عباده إلى التفكير فيها، وهى آياته المتلوة وآياته المجلوة<sup>(٢)</sup>، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن<sup>(٣)</sup> من أسكنه أن لا يزال محاضراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاضرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان.

(١) البرّاز: بائع البرّ، وهو الحرير.

(٢) أى الظاهرة.

(٣) غبن: رزبه: ضعف ونقص، والغبنة الخديعة.

٢٠٤- الخامس عشر: التفكير في الدنيا وسرعة زوالها قرب انقضائها فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقاءه وخلوده أحسن ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له. فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم. بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً.

٢٠٥- السادس عشر: تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام. فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»<sup>(١)</sup>. ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه. فمن أعطى منشور الدعاء أعطى الإجابة ، فإنه لو لم يُرد إجابته لما ألهمه الدعاء كما قيل:

لو لم تُردْ نيلَ ما أرجو وأطلبُهُ من جُودِ كفكَ مادعوتني الطلبيا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه ولا أمرضه إلا ليشفيه ولا أفقره إلا ليغنيه ولا أماته إلا ليحييه وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال. كما قيل: يا آدم لا تجزع من قولي لك واخرج منها فلك خلقتها وسأعيدك إليها.

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحه بسقمه فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

٢٠٦- السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحتته بين الجاذبين. جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين فكُلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل حتى ينتهي إلى موضعه من سجين. ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل فلينظر أين روحه في هذا العالم فإنها إذا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، والكبير (٢٣٤/١٩) عن محمد بن مسلمة وفي سنده ضعف انظر مجمع الزوائد (٢٣١/١٠).

فارت البدن تكون فى الرفيق الأعلى الذى كانت تجذبه إليه فى الدنيا فهو أولى بها. فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزاءً وكل مهتم بشئ فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع. وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى: ﴿ كل كل يعمل على شاكلته ﴾<sup>(١)</sup> فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهما وأعمالها إلى أعلى. والنفوس السفلة إلى أسفل.

٢٠٧- الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة وتنقيته من الدغل<sup>(٢)</sup> شرط لكمال الزرع. فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً. بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذى يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهر العبد قلبه وفرغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرضه لمهاب رياح الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة فى أوانه، كان جديراً بحصول المقل<sup>(٣)</sup>. وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث فى وقته. كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله فى الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة. فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب فى حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية فى حصول مسبباتها، ولكن العبد بجعله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، ويظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه. ولو فرغ العبد المحل وهياً وأصلحه لراى العجائب، فإن فضل الله لا يرد إلا المانع الذى فى العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجذبة سكر<sup>(٤)</sup> وسد كثيف فصاحبها يشكو الجذب والنهر إلى جانب أرضه.

(١) سورة الإسراء: آية (٨٤).

(٢) (الدغل): الفساد، وأصله من قولهم أدغلت فى هذا الأمر، إذ أدخلت فيه ما يخالفه ويفسده.

(٣) المقل: ثمر الدوم، والدوم نوع من أنواع الأشجار ضخمة يشبه النخيل.

(٤) السكر: ما يسد به النهر ونحوه.

٢٠٨- مع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف. وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده. لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه، والرسول صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له الذم ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم، فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقاً، لأن صاحب هذا الملك حر، والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر مملوك في زى مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة والبصير الموفق يعير نظره من الأواثل إلى الأواخر: ومن المبادئ إلى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

٢٠٩- العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروج عن العوايد فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً، ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «ومن سمع بالدجال فليتنا عنه»<sup>(١)</sup>. فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة والله أعلم.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩)، وأحمد (٤٣١/٤)، والحاكم (٥٣١/٤) وصححه وسكت عنه الذهبي.



### الباب الثالث عشر

#### فى بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبر فى حال من الأحوال

٢١٠- فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجرى عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات.

وكل ما يلحق العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده والآخر يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما.

٢١١- أما النوع الموافق لغرضه: فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شئ إلى الصبر فيها من وجوه.

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر<sup>(١)</sup> والأشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله أهله.

الثانى: أن لا ينهمك فى نيلها ويبالغ فى استقصائها. فإنها تنقلب إلى أضدادها فمن بالغ فى الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فُسْلَبَها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها فى الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه فى الحرام، فإن احتراز كل الاحتراز أوقعته فى المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون.

قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون».

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

---

(١) البَطَر: الطغيان عند النعمة وطول الفنى.

٢١٢- ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾<sup>(٢)</sup>.

ليس المراد من هذه العدواة ما يفهمه كثير من الناس أنها عدواة البغضاء والمحاداة أي عدواة المحبة الصادقة للأباء عن الهجرة والجهاد، وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا مالك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبهم فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ الآية. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح<sup>(٣)</sup>.

٢١٣- وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث «الولد مبخلة مجبنة»<sup>(٤)</sup> وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني زيد ابن واقد قال حدثني عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان، ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما. وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

### [فصل]

٢١٤- وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدره، والجائع عند غيبة

(١) سورة المنافقون: آية (٩).

(٢) سورة التغابن: آية (١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٣١٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦)، وأحمد في المسند (١٧٢/٤) عن يعلى العامري، وقال البوصيري في الزوائد (١٦٠/٣) إسناده صحيح، كما رواه أبو يعلى الموصلي (١٠٣٢) عن أبي سعيد، وسنده ضعيف لضعف عطية العوفي، انظر الميزان للذهبي (٧٩/٣).

الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

### [فصل]

٢١٥- وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أولاً يرتبط أوله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه فهذا ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يرتبط باختياره: وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإثارة الراحة ولا سيما إذا إتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب<sup>(١)</sup>، والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائب القلب، ذاهلاً عنها طالباً لفراقها كالجالس إلى الجيفة. وأما الزكاة فلما في النفس من الشح والبخل. وكذلك الحج والجهاد للأميرين جميعاً، وطبعاً.

٢١٦- ويحتاج العبد هاهنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفيه المأمورية حقها.

٢١٧- الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلزم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلزم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الأمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحباً لذكره في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

(١) الرين: الطبع والتغطية ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والران أيضاً هو الدنس وكل ما غطى القلب من ذنوب وآثام.

٢١٨- الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يظلم عمله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾<sup>(١)</sup>. فليس الشأن الإتيان بالطاعة. إنما الشأن في حفظها مما يظلمها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية فإن العبد يعمل العمل سرّاً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

### [فصل]

٢١٩- وأما الصبر عن المعاصي فأموره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة وقطع العوائد، فإن العادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

### [فصل]

٢٢٠- القسم الثاني مالا يدخل تحت الاختيار: وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها، كموت من يعز عليه وسرقة ماله، ومرضه ونحو ذلك، وهذا نوعان: أحدهما ما لا صنع للعبد الآدمي فيه، والثاني ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسب والضرب وغيرهما.

٢٢١- فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدها: مقام العجز: وهو مقام الجزع والشكوى والسخط وهذا مالا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٦٤).

المقام الثالث: مقام الرضا وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر وهو أعلى من مقام الرضا فإنه يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلى عليها.

٢٢٢- وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات، ويضاف إليه أربعة أخرى:

أحدها: مقام العفو والصفح.

والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفى والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها.

الثالث: مقام شهود القدر، وإنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك فالذى قدره عليك وأجره على يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه، فالمنسخط من أذى الحر والبرد غير حازم، والكل جارٍ بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الخامس: مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالى فلا يرضى لنفسه بأحسن المقامات وأسفلها.

### [فصل]

٢٢٣- القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطراب، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التى لا حيلة فى دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة فى دفع السكر بعد تناول السكر، فهذا كان فرضه الصبر عنه فى أوله، فلما فات به بقى فرضه الصبر عليه فى آخره، وأن لا يطيع داعى هواه ونفسه، وللشيطان هاهنا دسيسة عجيبة، وهى أن يُخَيِّلَ إليه أن ينل بعض مامنع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى، وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة، وقد أجاز به كثير من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوى لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه. وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه فى هذا

الدواء، بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾<sup>(٢)</sup>، فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغن أحدهما عن صاحبه.

٢٢٤- فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مفرطاً يتعاطى أسبابه، وهل يكون معاقباً على ما تولد منه وهو غير اختياري له؟

قيل نعم إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها. ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، لأن اتباعهم تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل<sup>(٣)</sup> من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾<sup>(٥)</sup>.

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟ قيل التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقاً بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان. ولهذا كان من توبة الداعى إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه فقال: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ إلا الذين تابوا

(٢) سورة يوسف: آية (٩٠).

(٤) سورة النحل: آية (٢٥).

(١) سورة آل عمران: آية (١٨٦).

(٣) الكفل: الحظ والنصيب.

(٥) سورة العنكبوت: آية (١٣).

وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم<sup>(١)</sup>.

وهذا ما شرط فى توبة المنافقين الذين كان ذنبهم فساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول ﷺ، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

\*\*\*

---

(١) سورة البقرة: آية (١٥٩-١٦٠).

## الباب الرابع عشر

### فى بيان أشق الصبر على النفوس

٢٢٦- مشقة الصبر بحسب قوة الداعى إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شىء على الصابر. وإن فقد أحدهما وسهل الصبر عنه. وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وضعب من وجه.

فمن لا داعى له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش. ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شىء وأسهله. ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شىء عليه. ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشاب عن الفاحشة وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمرح.

٢٢٧- وفى المسند وغيره عن النبي ﷺ: «عجب ربك من شاب ليست له صبوة»<sup>(١)</sup>، ولذلك استحق المذكورون فى الحديث<sup>(٢)</sup> أن يظلمهم الله فى ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل فى قسمه وحكمه ورضاه وغضبه. وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعى ومنصبه، وصبر المتحابين فى الله على ذلك فى حال اجتماعهما واقتراحهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس من أشق الصبر.

٢٢٨- ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزانى والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها فى حقهم،

(١) الصبوة: الميل إلى الهوى.

والحديث أخرجه أحمد (١٥١/٤) عن عتبة بن عامر، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «سبعة يظلمهم الله ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه».



فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه .

٢٢٩- ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان، كالنميمة والغيبة والكذب، والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغيه . ومدح من يحميه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك» . فقال: وإنا لمؤاخدون بما نتكلم به فقال «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»<sup>(١)</sup> . ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها .

٢٣٠- ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار . ويتورع<sup>(٢)</sup> من إسناده إلى وسادة حرير، لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خصَّ أهل الصلاح، العلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم .

٢٣١- وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام، كما يحكى أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواععتها قال: ياهذه غطى وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام!! وقد سأل رجل عبد الله بن عمر عن دم البعوض فقال: انظروا إلى هؤلاء يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ .

واتفق لى قريب من هذه الحكاية: كنت في حال الإحرام فأتاني قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل المحرم القمل، فقلت ياعجباً لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلها ويسألون عن قتل القملة في الإحرام! .

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها .

٢٣٢- ويذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٣١/٥) عن معاذ بن جبل، وقال الترمذي حسن صحيح

(٢) الورع: هو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات .  
وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه «كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام» .

وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة.

٢٣٣- وقال ميمون بن مهران: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية.

٢٣٤- وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال: صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه. وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به. والله أعلم.

---

(١) سورة الرعد: آية (٢٤).

## الباب الخامس عشر

### فى ذكر ماورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز

٢٣٥- قال الإمام أحمد رحمه الله «ذكر الله سبحانه الصبر فى القرآن فى تسعين موضعاً» اهـ . ونحن نذكر الأنواع التى سبق فيها الصبر وهى عدة أنواع:

٢٣٦- أحدها: الأمر به: كقوله: ﴿واصبر وماصبرك إلا بالله﴾<sup>(١)</sup>، ﴿واصبر لحكم ربك﴾<sup>(٢)</sup>.

٢٣٧- الثانى: النهى عما يضاده: كقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾<sup>(٥)</sup>، وبالجملة فكل ما نهى فإنه عنه يضاد الصبر المأمور به.

٢٣٨- الثالث: تعليق الفلاح به: كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾<sup>(٦)</sup>، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

٢٣٩- الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره: كقوله: ﴿وأولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾<sup>(٧)</sup>، وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾<sup>(٨)</sup>. قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾، قال كالماء المنهمر.

٢٤٠- الخامس: تعليق الإمامة فى الدين به وباليقين: قال الله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾<sup>(٩)</sup>، فبالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم: قال تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾<sup>(١٠)</sup> قال

- |                             |                               |
|-----------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة النحل: آية (١٢٧).  | (٢) سورة الطور: آية (٤٨).     |
| (٣) سورة الأحقاف: آية (٣٥). | (٤) سورة آل عمران: آية (١٣٩). |
| (٥) سورة القلم: آية (٤٨).   | (٦) سورة آل عمران: آية (٢٠٠). |
| (٧) سورة القصص: آية (٥٤).   | (٨) سورة الزمر: آية (١٠).     |
| (٩) سورة السجدة: آية (٢٤).  | (١٠) سورة البقرة: آية (١٥٣).  |

أبو على الدقاق «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته.

٢٤١- السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم: وهى الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم. قال تعالى: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون \* أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»<sup>(١)</sup>. وقال بعض السلف وقد عزى على مصيبة نالته فقال مالى لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

٢٤٢- الثامن: أنه سبحانه جعل الصبر عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: «واستعينوا بالصبر والصلاة»<sup>(٢)</sup>، فمن لا صبر له لا عون له.

٢٤٣- التاسع: أنه سبحانه علق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين»<sup>(٣)</sup>، لهذا قال النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»<sup>(٤)</sup>.

٢٤٤- العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره. فما استجن العبد من ذلك جنة أعظم منهما. قال تعالى «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً»<sup>(٥)</sup>.

٢٤٥- الحادى عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم كما قال «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»<sup>(٦)</sup>.

٢٤٦- الثانى عشر: أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»<sup>(٧)</sup>. فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم

(١) سورة البقرة: آية (١٥٥-١٥٧)

(٢) سورة البقرة: آية (٤٥)

(٣) سورة آل عمران: آية (١٢٥)

(٤) أخرجه أحمد (٣٠٧/١) عن ابن عباس وأوله «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك...» الحديث وفيه «وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب»، وإسناده حسن. ورواه الطبراني فى الكبير بهذا السياق عن عبد الله بن جعفر بسند ضعيف انظر مجمع الزوائد (١٩٠-١٨٩/٧).

(٦) سورة الرعد: آية (٢٣-٢٤)

(٥) سورة آل عمران: آية (١٢٠)

(٧) سورة النحل: آية (١٢٦)

باللام بعده ثم باللام التى فى الجواب.

٢٤٧- الثالث عشر: أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>. وهؤلاء ثنية الله<sup>(٢)</sup> من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

٢٤٨- الرابع عشر: أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أى بما يعزم من الأمور التى إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٤)</sup>.

٢٤٩- الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهى كلمته التى سبقت لهم وهى الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر فقال تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾<sup>(٥)</sup>.

٢٥٠- السادس عشر: أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ \* فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(٦)</sup>.

٢٥١- السابع عشر: أنه سبحانه قال عن خصال الخير إنه لا يلقاها إلا الصابرون، فى موضعين من كتابه، فى سورة القصص فى قصة قارون، وإن الذين أوتوا العلم قالوا للذين غنوا مثل ما أوتى: ﴿وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾<sup>(٧)</sup>. وفى سورة حميم: السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتى هى أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذى بينه وبينه عداوة كأنة حبيب قريب. ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾<sup>(٨)</sup>.

(٧) أى الذين استثناهم الله تعالى

(٤) سورة لقمان: آية (١٧)

(٦) سورة آل عمران: آية (١٤٦)

(٨) سورة فصلت: آية (٣٥)

(٦) سورة هود: آية (١١)

(٣) سورة الشورى: آية (٤٣)

(٥) سورة الأعراف: آية (١٣٧)

(٧) سورة القصص: آية (٨٠)

٢٥٢- الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور فقال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾ \* إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿١﴾. وقال تعالى في لقمان: ﴿الم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمت الله ليريكمن من آياته﴾ \* إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٢﴾. وقال في قصة سبأ: ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ \* إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٣﴾. وقال تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ \* إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ \* إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٤﴾. فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

٢٥٣- التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ ﴿٥﴾، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابراً. وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلى فإنه يشس العبد.

٢٥٤- العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رايح سواهم فقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لو سعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوته: قوة العلم وقوة العمل وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

٢٥٥- الحادي والعشرون: أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة﴾ \* أولئك أصحاب الميمنة ﴿٦﴾. وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان، والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه. ويليه من له صبر ولا رحمة عنده

(٢) سورة لقمان: آية (٣١)

(٤) سورة الشورى: آية (٣٣)

(٦) سورة البلد: آية (١٧-١٨).

(١) سورة إبراهيم: آية (٥)

(٣) سورة سبأ: آية (١٩).

(٥) سورة ص: آية (٤٤)

ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

٢٥٦- الثاني والعشرون: أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾<sup>(١)</sup>؛ وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾<sup>(٢)</sup>؛ وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيُصْبِرُ﴾<sup>(٣)</sup>؛ وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾<sup>(٤)</sup>؛ وجعله قرين الحق كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾<sup>(٥)</sup>؛ وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾<sup>(٦)</sup>؛ وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ﴾<sup>(٧)</sup>؛ وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾<sup>(٨)</sup>؛ وجعله سبب محبته ومعيته ونصرته وعونه وحسن جزائه. ويكفي ذلك شرفاً وفضلاً واللّٰهُ أعلم.

\*\*\*

(٢) سورة هود: آية (١١).  
(٤) سورة إبراهيم: آية (٥).  
(٦) سورة البلد: آية (١٧).  
(٨) سورة الأحزاب: آية (٣٥).

(١) سورة البقرة: آية (٤٥).  
(٣) سورة يوسف: آية (٩٠).  
(٥) سورة العصر: آية (٣).  
(٧) سورة السجدة: آية (٢٤).

## الباب السادس عشر

### فى ذكر ماورد فيه من نصوص السنة

٢٥٧- فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى على صبي لها، فقال لها: «اتقى الله واصبرى»، فقالت وما تبالى بمصيبتى، فلما ذهب قيل لها إنه رسول الله ﷺ. فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت يارسول الله لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة»<sup>(١)</sup>. وفى لفظ: «عند الصدمة الأولى».

وقوله الصبر عند الصدمة الأولى مثل قوله: «ليس الشديد بالصرعة»<sup>(٢)</sup> إنما الشديد الذى يملك نفسه وقت الغضب»<sup>(٣)</sup>، فإن مفاجآت المصيبة لها روعة تززع القلب وتزعجه بصدمة. فإن صبر للصدمة الأولى إنكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر. وأيضاً فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهى الصدمة الأولى. وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطراب. وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لايجدى عليها شيئاً جاءت تعتذر إلى النبي ﷺ، كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.

ويدل على هذا المعنى ما رواه سعيد بن زريق عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مر النبي ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكى، فقال لها: «يا أمة الله اتقى الله واصبرى»، قالت: يا عبد الله ثكلى. قال: «يا أمة الله اتقى الله واصبرى». قالت: يا عبد الله لو كنت مصاباً عذرتنى. قال: «يا أمة الله اتقى الله واصبرى». قالت: يا عبد الله قد أسمعت فأنصرف عنى، فمضى رسول الله ﷺ واتبه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها: ما قال لك الرجل الذاهب قالت: قال لى كذا وكذا وأجبت بكذا، قال: هل تعرفينه؟ قالت لا، قال: ذلك رسول الله ﷺ قال فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهى تقول: أنا أصبر أنا أصبر يارسول الله فقال: «الصبر عند الصدمة

(٢) الصرعة: أى الذى يصرع الناس كثيراً

(١) البخارى (١٢٨٣)، ومسلم (٦٢٦)

(٣) أخرجه البخارى (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عن أبى هريرة.



### الأولى. الصبر عند الصدمة الأولى<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي الدنيا حدثنا بشر بن الوليد وصالح الكندي بن مالك قالا حدثنا سعيد بن زريق فذكره فهذا السياق يبين معنى الحديث. قال أبو عبيد: معناه أن كل ذي رزية فإن قصاره الصبر ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

٢٥٨- قلت: وفي الحديث أنواع من العلم:

أحدها: وجوب الصبر على المصائب، وأنه من التقوى التي أمر العبد بها.

الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن سكر المصيبة وشدها لا يسقطه عن الأمر الناهي.

الثالث: تكرار الأمر والنهي مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه.

الرابع: احتج به على جواز زيارة النساء للقبور، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ولو كانت الزيارة حراماً لبين لها حكمها وهذا كان في آخر الأمر، فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة: وأجيب عن هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء. ويدل عليه أنها لما علمت أن الأمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة، وأيضاً فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه ولو شهدها. فَلَعَنَتْهُ ﷺ لזائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا في مرض موته. وفي عدم تعريفه لها بنفسه في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها إذا عرفها بنفسه في تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك وكان معصيتها له وهي لا تعلم أنه رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت، فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه.

٢٥٩- وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله، فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له،

(١) رواه أبو يعلى والبخاري، انظر مجمع الزوائد (٢/٣)

تعدت إن لي بنتاً وأنا غير، فقال: «أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها وأدهو الله أن يذهب بالغيرة»<sup>(١)</sup>، فتزوجت رسول الله ﷺ.

٢٦٠- وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم عندك أحسب مصيبتى فيها وأبدلنى خيراً منها»<sup>(٢)</sup>. فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفنى فى أهلى بر منى، فلما قبض قالت أم سلمة: إنا لله وإنا إليه راجعون عند الله أحسب عيبتى. فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله.

٢٦١- وفى جامع الترمذى ومسنند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم. فيقول ماذا قال عبدى؟ فيقولون حمدك واسترجعك. فيقول ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد»<sup>(٣)</sup>.

٢٦٢- وفى صحيح البخارى من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منها الجنة - يريد عينيه»<sup>(٤)</sup>. وعند الترمذى فى الحديث: «إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة»<sup>(٥)</sup>.

وفى الترمذى أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: «من أذهب حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة»<sup>(٦)</sup>.

٢٦٣- وفى سنن أبى داود من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفية من أهل الأرض واحتسبه بثواب دون الجنة»<sup>(٧)</sup>.

(١) صحيح مسلم (٩١٨). (٢) سنن أبى داود (٣١١٩).

(٣) سنن الترمذى (١٠٢٩) وقال حسن غريب، مسند أحمد (٤١٥/٤)، وابن حبان (٧٢٦) «مؤازة الظمان».

(٤) صحيح البخارى (٥٦٥٣). (٥) سنن الترمذى (٢٤٠٠) عن أنس، وقال حسن غريب.

(٦) سنن الترمذى (٢٤٠١) وقال حسن صحيح.

(٧) أخرجه النسائى (٢٣/٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ورمز السيوطى لصحته فى الجامع الصغير (٢٧٢/٢).

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل «ما لعبدى المؤمن جزء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»<sup>(١)</sup>.

٢٦٤- وفى صحيحه أيضاً عن عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت يارسول الله إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت أصبر. فقالت: إنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها»<sup>(٢)</sup>.

٢٦٥- وفى الموطأ من حديث عطاء بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعوده، فإن هوأذ جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول إن العبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عن سيئاته»<sup>(٣)</sup>.

٢٦٦- وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله: «إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس وهم قليلون فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون ما كان فضلكم؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسىء إلينا غفرنا، وإذا جهل علينا حلمنا، فيقال لهم أدخلوا الجنة فتمم أجر العاملين»<sup>(٤)</sup>.

٢٦٧- وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قسم مالا. فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أزيد بها وجه الله، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر»<sup>(٥)</sup>.

٢٦٨- وفى الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى

(١) البخارى (٦٤٢٤). (٢) البخارى (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(٣) الموطأ (٢/ ٩٤).

(٤) عزله السيوطى لآبى يعلى والبيهقى فى الشعب وضعفه. انظر البدور السافرة فى أمور الآخرة للسيوطى ص ١٣٥.

(٥) البخارى (٦٠٥٩)، ومسلم (١٠٦٢) عن ابن مسعود ..

٢٦٩- وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب<sup>(٢)</sup> ولا وصب<sup>(٣)</sup> ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»<sup>(٤)</sup>.

٢٧٠- وفي صحيح مسلم من حديث عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة»<sup>(٥)</sup>.

٢٧١- وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقي الله وما عليه خطيئة»<sup>(٦)</sup>.

٢٧٢- وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه. وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة»<sup>(٧)</sup>.

٢٧٣- وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً. قال فقلت يارسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً قال أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم قلت إن لك لأجرين. قال: «نعم. والذي نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياها كما تحط الشجرة ورقها»<sup>(٨)</sup>.

٢٧٤- وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: مارأيت الوجع أشد منه على رسول الله ﷺ<sup>(٩)</sup>.

٢٧٥- وفي بعض المسانيد مرفوعاً: «أن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها

(١) البخارى (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) النصب: التنبؤ.

(٣) الوصب: المرض.

(٤) البخارى (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٥) مسلم (٢٥٧٢).

(٦) مسند أحمد (٢/٢٨٧) وأخرجه أيضاً الترمذى (٢٣٩٩) عن أبي هريرة وقال حسن صحيح.

(٧) أخرجه الترمذى (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٤٣)، وأحمد (١٧٢/١) والبخارى تعليقا. انظر فتح البارى (١١١/١٠).

(٨) البخارى (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٩) البخارى (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).

بعمل حتى يتلى بيلاء في جسمه فيلقها بذلك»<sup>(١)</sup>.

٢٧٦- ويروى عن عائشة رضى الله عنها عنه ﷺ: «إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد»<sup>(٢)</sup>.

٢٧٧- وفي صحيح البخارى من حديث خباب بن الارت قال شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه. ولكنكم تستعجلون»<sup>(٣)</sup>.

وفي لفظ للبخارى: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه»<sup>(٤)</sup>.

٢٧٨- وقد حمل أهل العلم قول خباب: شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا. على هذا المحمل. وقال شكوا إليه حر الرمضاء الذى كان يصيب جباههم وأكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم، وإنما دلهم على الصبر. وهذا الوجه أنسب من تفسير من فسر ذلك بالسجود على الرمضاء. واحتج به على وجوب مباشرة المصلى بالجهة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لا دليل في اللفظ على ذلك.

الثاني: أنهم قد أخبروا أنهم كانوا مع النبي ﷺ فكان أحدهم إذا لم يستطع أن يسجد على الأرض يسط ثوبه فيسجد عليه، والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به، وقد أقرهم عليه.

(١) رواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بلفظ «إن الرجل ليكون له عند الله منزلة فما يبلغها... الحديث، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/٢٩٢) رجاله ثقات، وصححه ابن حبان (٢٨٩٧).  
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠٢/٢) رجاله ثقات، إلا أنى لم أعرف شيخ الطبرانى.

(٤) البخارى (٣٨٥٢).

(٣) البخارى (٦٩٤٣).

الثالث: أن شدة الحر في الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض بل يكاد يشوى الوجه والكف، فلا يتمكن من الطمأنينة في السجود، ويذهب خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض، والشرعة لا تأتي بهذا، فتأمل رواية خباب لهذا والذي قبله. واجمع بين اللفظين والمعنيين والله أعلم، ولا تستوحش من قوله: فلم يشكنا، فإنه هو معنى إعراضه عن شكائهم وإخباره لهم بصبر من قبلهم والله أعلم.

٢٧٩- وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابناً لي احتضر فأتتنا. فأرسل يقرئها السلام ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه لياثينها فقام معه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع الصبي إلى رسول الله فاقعده في حجره ونفسه تتقفع كأنها شن<sup>(١)</sup> ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(٢)</sup>.

٢٨٠- وفي سنن النسائي عن ابن عباس قال: احتضرت ابنة لرسول الله ﷺ صغيرة فأخذها رسول الله ﷺ وضمها إلى صدره ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله ﷺ فبكّت أم أيمن فقلت لها أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟ فقالت مالى لا أبكى ورسول الله ﷺ يبكى، فقال رسول الله ﷺ: «إني لست أبكى ولكنها رحمة». ثم قال رسول الله ﷺ: «المؤمن بخير على كل حال تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

٢٨١- وفي صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال: اشتكى ابن لآبى طلحة فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيات شيئاً وسجته فى جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، فظن أبو طلحة أنها صادقة، قال فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان

(١) تقفع (الشن) اضطرب، والقفعة هى حكاية صوت الشئ اليابس إذا حرك، والشن: القرية الخلقية اليابسة.

أى إن روحه تتحرك وتضطرب.

(٢) البخارى (١٢٨٤)، وأخرجه مسلم أيضاً (٩٢٣) عن أسامة.

(٣) سنن النسائى (١٢/٤).

منهما. فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما»<sup>(١)</sup>، قال ابن عيينة فقال رجل من الأنصار فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن.

٢٨٢- وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد، قال: هلك امرأة لى فأتاني محمد ابن كعب القرظي يعزيني فيها، فقال إنه قد كان في بني إسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد، وكانت له امرأة وكان بها معجبا، فماتت فوجد<sup>(٢)</sup> عليها وجدا شديدا حتى خلى في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس فلم يكن يدخل عليه أحد، ثم إن امرأة من بني إسرائيل سمعت به فجاءته فقالت: إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يعزيني إلا أن أشفاه بها، فذهب الناس ولزمت الباب، فأخبر فأذن لها فقالت أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت إني استعرت من جارة حليا فكنت ألبسه وأعيه زمانا، ثم إنني أرسلت إلى فيه أفأرده إليها؟ قال نعم قالت والله إنه مكث عندي زمانا، فقال ذلك أحق لردك إياه فقالت له يرحمك الله أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك، فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها<sup>(٣)</sup>.

٢٨٣- وفي جامع الترمذي عن شيخ من بني مرة قال: قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة، فقلت إن فيه لمعتبر، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بني وإذا كل شيء منه قد تغير من العذاب والضرب، وإذا هو في قشاش، فقلت له: الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار وأنت في حالتك هذه فكيف صبرك اليوم؟ فقال ممن أنت قلت من بني مرة بن عباد قال ألا أحدثك حديثا حسى أن ينفعك الله به؟ قلت هات. قال حدثني أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر»<sup>(٤)</sup>. قال وقرأ: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير»<sup>(٥)</sup>.

٢٨٤- وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: كاني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى أن نبيا من الأنبياء ضربه قومه فادموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»<sup>(٦)</sup>، فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم والدعاء لهم والاعتذار عنهم والاستعطاف بقول: «لقومي».

(٢) أى حزن عليها حزنا شديدا.

(٤) سنن الترمذي (٣٢٥٢) وقال الترمذي: حديث غريب.

(٦) البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(١) البخاري (١٣٠١).

(٣) الموطأ (٢/٢٣٧).

(٥) سورة الشورى: آية (٣٠).

٢٨٥- وفي الموطأ، من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ: «ليعزّ المسلمون في مصائبهم المصيبة بي»<sup>(١)</sup>.

٢٨٦- وفي الترمذی، من حديث يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»<sup>(٢)</sup> قال الترمذی: كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر.

٢٨٧- وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أعطى عطاء خيراً وأوسع من الصبر»<sup>(٣)</sup>.

٢٨٨- وفي بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم للقيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»<sup>(٤)</sup>.

٢٨٩- وفي جامع الترمذی عنه ﷺ «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط»<sup>(٥)</sup>.

٢٩٠- وفي بعض المسانيد عنه ﷺ مرفوعاً: «إذا أراد الله بعبد خيراً صب عليه البلاء صباً»<sup>(٦)</sup>.

٢٩١- وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال: «مالك تزفزين؟»<sup>(٧)</sup> قالت الحمى لا بارك الله فيها، قال: «لا تسبى الحمى إنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد»<sup>(٨)</sup>.

(١) الموطأ (٢/٢٣٦).

(٢) الترمذی (٧٠٧)، وابن ماجه (٣٢٠٤) عن ابن عمر واحمد (٢/٤٣).

(٣) البخاری (١٤٦٩)، مسلم (١٠٥٣).

(٤) أخرجه الديلمی في الفردوس عن أنس انظر الاتحافات السنیه فی الأحادیث القدسیة (ص ٤٣).

(٥) الترمذی (٢٣٩٦) عن أنس وقال حسن غريب، كما أخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٠٣١).

(٦) عزاه العراقي لابن أبي الدنيا في كتاب المرض، والاصبهاني في الترغيب عن أنس وفي إسناده ضعف كما أفاده العراقي في تخریج الإحياء (٤/١٢٩).

(٧) تزفزين: تتحركين بشدة أي ترتعدين.

(٨) مسلم (٢٥٧٥).



٢٩٢- ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من وعك ليلة فصر ورضى عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»<sup>(١)</sup>.

٢٩٣- وقال الحسن: إنه ليكفر عن العبد خطاياها كلها بحمى ليلة.

٢٩٤- وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو محموم فوضعت يدي من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمى، فقلت ما أشد حَمَاكَ يا رسول الله! قال: «إنا كذلك معاشر الأنبياء يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر». قال: قلت يا رسول الله فأى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء»، قلت ثم من؟ قال: «الصالحون»، إن كان الرجل ليبتلئ بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيحوبها فيلبسها، وإن كان الرجل ليبتلئ بالقمل حتى يقتله القمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم»<sup>(٢)</sup>.

٢٩٥- وقال عقبة بن عامر الجهني: قال رسول الله ﷺ: «ليس من عمل إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»<sup>(٣)</sup>.

٢٩٦- وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم نودى صاحب اليمين أن أجر على عبدى صالح ما كان يعمل وهو صحيح، ويقال لصاحب الشمال أقصر عن عبدى مادام فى وثاقى. فقال رجل عند أبي هريرة ياليتنى لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا. ذكره ابن الدنيا.

٢٩٧- وذكر أيضاً عن هلال بن بساق قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما اشتكيت قط، فقال عمار ما أنت منا أو لست منا. إن المسلم يبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يبتلى ببلىة فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لِمَ أطلق وإن عُقل لم يدر لِمَ عُقل.

٢٩٨- وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كما إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم ألا إن السقم لا يكتب له أجر فسأنا ذلك وكبر

(١) عزاه المنذرى فى الترغيب (١٥٤/٤) لابن أبى الدنيا فى كتاب الرضا.

(٢) مسند أحمد (٩٤/٣) وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٦/٤) والطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة. ضعيف. انظر مجمع الزوائد (٣٠٣/٢).

علينا، فقال ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا<sup>(١)</sup>.

٢٩٩- وهذا من كمال علمه وفقهه رضى الله عنه فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولد منها كما ذكر الله سبحانه النوعين فى آخر سورة التوبة فى قوله فى المباشر من الإنفاق وقطع الوادى «إلا كتب لهم»<sup>(٢)</sup>، وفى المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة فى سبيله وغيظ الكفار «إلا كتب لهم به عمل صالح»<sup>(٣)</sup>. فالثواب مرتبط بهذين النوعين. أما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا. ولهذا قال تعالى «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم»<sup>(٤)</sup>. والنبي ﷺ إنما قال فى المصائب: «كفر الله بها من خطاياها»، كما تقدم ذكر الفاظه ﷺ وكذا قوله: «المرض حطة»<sup>(٥)</sup>.

فالتطاعات ترفع الدرجات، والمصائب تحط السيئات. ولهذا قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصيب منه»<sup>(٦)</sup> وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»<sup>(٧)</sup> فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياها.

٣٠٠- وقال يزيد بن ميسرة: إن العبد ليمرض المرض وماله عند الله من عمل خير فيذكره الله سبحانه بعض ماسلف من خطاياها فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله إذ يبعثه مطهراً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً ولا يرد على هذا حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بأن يبنى له بيتاً فى الجنة ويسميه بيت الحمد.

٣٠١- وقال زياد بن زياد مولى ابن عباس رضى الله عنه وعن أصحاب النبي ﷺ قال دخلنا على النبي ﷺ وهو معموك أى محموم فقلنا اح اح بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن . انظر مجمع الزوائد (٣٠١/٢).

(٢) سورة التوبة آية (١٢١) . (٣) سورة التوبة: آية (١٢٠) .

(٤) سورة الشورى: آية (٣٠) .

(٥) جزء من حديث أبى عبيدة الجراح أخرجه أحمد (١٩٥/١) وفيه «ومن ابتلاه الله ببلاء فى جسده فهو له حطة» وأوله «من أنفق نفقه فاضلة فى سبيل الله فيسبعمانه . . . الحديث وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠٠/٢) رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري وفيه يسار بن أبى سيف لم أر من وثقه ولا جرحه . قلت: الصواب هو بشار بن أبى سيف الجرمي، قال ابن حجر فى التقريب مقبول من السادسة انظر التقريب (٩٧/١) .

(٦) أخرجه البخارى (٥٦٤٥) عن أبى هريرة . (٧) أخرجه البخارى (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية .

ﷺ ما أشد وعكك. قال: «إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفا» قال قلنا سبحان الله قال: «أفعبجتم إن كان النبي من الأنبياء ليقتله القمل». قلنا سبحان الله قال: «أفعبجتم إن أشد للناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»، قلنا سبحان الله، قال: «أفعبجتم إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»<sup>(١)</sup>. أح بالخاء المهملة هو المعروف من كلامهم، ومن قال بالخاء المعجمة فقد غلط.

٣٠٢ - وذكر النسائي عن عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة قالت «أتيت النبي ﷺ في نسوة نعوذه فإذا سقاء معلقة يقطر ماؤها من شدة ما كان يجد من الحمى، فقلنا لو دعوت الله يارسول الله أن يذهبها عنك، فقال: «إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»<sup>(٢)</sup>.

٣٠٣ - وقال مسروق عن عائشة رضى الله عنها: ما رأيت أحداً أشد وجعاً من رسول الله ﷺ كان يشدد عليه إذا مرض حتى إنه لربما مكث خمس عشرة لا ينام، وكان يأخذ عرق الكلية وهو الخاصرة، فقلنا يارسول الله لو دعوت الله فيكشف عنك. قال: «إنا معاشر الأنبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا»<sup>(٣)</sup>.

٣٠٤ - وفي المسند والنسائي من حديث أبي سعيد قال: قال رجل يارسول الله أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا بها؟ قال: «كفارات»<sup>(٤)</sup>، فقال أبي بن كعب يارسول الله وإن قلت؟ قال «شوكة فما فوقها». قال فدعا أبي على نفسه عند ذلك أن لا يفارقه الوعك حتى يموت ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة مكتوبة في جماعة، قال فما مس رجل جلده بعدها إلا وجد حرها حتى مات.

٣٠٥ - وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقه حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً أو

(١) أخرجه أحمد (٩٤/٣) وابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري.  
(٢) السنن الكبرى (٧٤٨٢)، وأخرجه أحمد في المسند أيضاً (٣٦٩/٦)، والطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٢/٢) إسناده حسن.  
(٣) طرفه الأول متفق عليه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠) والحديث رواه أبو يعلى بالفاظ متقاربة بسند فيه ضعف، انظر مجمع الزوائد (٢٩٢/٢).  
(٤) مسند أحمد (٢٣/٣) والسنن الكبرى للنسائي (٧٤٨٩) وصححه ابن حبان (٦٩٢) موارد الطمأن.

اكفته إلى ناقة طلق<sup>(١)</sup>، بضم الطاء واللام إذا حل عقالها - ويقال كفته إليه إذا ضمه إليه ذكره ابن الدنيا.

٣٠٦ - وذكر أيضاً عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليحرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يحرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، فذلك الذي نجاه الله من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذي يشك بعض الشك، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذي قد افتتن»<sup>(٢)</sup>.

٣٠٧ - وذكر أيضاً من مراسيل الحسن البصري عن النبي ﷺ: «إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياها كلها بحمى ليلة».

٣٠٨ - قال ابن أبي الدنيا قال ابن المبارك: هذا من الحديث الجيد.

قال: «وكانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب»<sup>(٣)</sup>.

٣٠٩ - وذكر عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكى فقال: «قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك وصبراً على بليتك وخروجاً من الدنيا إلى رحمتك».

٣١٠ - وقالت عائشة رضی الله عنها قال رسول الله ﷺ: «إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها»<sup>(٤)</sup>.

٣١١ - وقال أبو هريرة وقد عاد مريضاً، فقال له إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول. هي تاري أسلطها على عبيد المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣/٢) عن عبد الله بن عمر بن العاص، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٣/٢) إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير بسند فيه ضعف انظر مجمع الزوائد (٢٩١/٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٨٩) من قول الحسن.

(٤) عزاء السيوطي في الجامع الصغير (٤٢٠/٣) لابن قانع عن أسد بن كرز ورمز لحسنه، وأخرجه أحمد في المسند (٧٠/٤) عن أسد أيضاً بلفظ «المريض تحط خطاياها كما يتحات ورق الشجر». وقال المنذري في الترغيب (١٥١/٤) إسناده حسن.

قلت: وله شاهد في الصحيحين البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١) عن ابن مسعود «ما من مسلم يصيبه أذى: مرض فما سواه، إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٨٨) وابن ماجه (٣٤٧٠).

٣١٢- وقال مجاهد: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»<sup>(١)</sup> ثم قرأ: «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً»<sup>(٢)</sup> وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعاً، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده فينجو منها سريعاً والله أعلم. ويدل عليه حديث أبي ریحانه عن النبي ﷺ «الحمى كير من كير جهنم وهي نصيب المؤمن من النار»<sup>(٣)</sup>

٣١٣- وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها»<sup>(٤)</sup> ذكره ابن أبي الدنيا.

٣١٤- وذكر ابن أبي الدنيا أيضاً عن أبي أمامة يرفعه «ما من مسلم يصرع صرعة من مرض إلا بعث منها طاهراً»<sup>(٥)</sup>.

٣١٥- وذكر عنه ﷺ «مثل المؤمن حين يصيبه الوباء مثل الخسيلة تدخل النار فيذهب خشها ويبقى طيبها»<sup>(٦)</sup>.

٣١٦- وذكر أيضاً عنه مرفوعاً «أن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي أنا قيدت عبدى بقيد من قيودى فإن أقبضه أغفر له وإن أعافه فجمعه مغفور لأذنب له».

٣١٧- وذكر عن سهل بن أنس الجهني عن أبيه عن جده قال: دخلت على أبي الدرداء فى مرضه فقلت يا أبا الدرداء إنا نحب أن نصح ولا نمرض، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الصداع والمليحة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل

(١) قلت: قوله «الحمى حظ كل مؤمن من النار» أخرجه البزار عن عائشة بإسناد حسن انظر مجمع الزوائد (٣٠٦/٢) والترغيب للتمذرى (١٥٥/٤).

(٢) سورة مريم: آية (٧١)

(٣) حديث أبى ریحانة أخرجه الطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٠٦/٢) فيه شهر بن حوشب وفيه كلام ووقفه جماعة.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٠٨٦) وسكت عنه.

قلت: فيه الوليد بن محمد المقرئ، قال ابن حجر فى التقریب (٣٣٥/٢) متروك، وعدّ الذهبى حديثه هذا من مناكيره انظر الميزان (٣٤٦/٤).

(٥) وأخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير، ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد (٣٠٢/٢) والترغيب للتمذرى (١٥٤/٤).

(٦) وأخرجه أيضاً البزار، والطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠٢/٢) وفيه من لم يعرف.

أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل»<sup>(١)</sup> المليلة فعيلة من التمليل. وأصلها من الملة التي يخبز فيها.

٣١٨- وقالت أم سلمة عن النبي ﷺ «ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريق يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء له كفارة وطهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله يكشفه»<sup>(٢)</sup>

٣١٩- وقال عطية بن قيس «مرض كعب فعاده رهط»<sup>(٣)</sup> من أهل دمشق، فقالوا كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ قال بخير، جسد أخذ بذنبه إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه. وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً لا ذنب له»

٣٢٠- وقال سعيد بن وهب «دخلنا مع سلمان الفارسي على رجل من كندة نعوذه، فقال سلمان: إن المسلم يتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعجباً فيما بقى، وإن الكافر يتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لِمَ أطلق، وعقل فلم يدر لِمَ عقل».

٣٢١- وذكر أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار وأكب عليه فسأله فقال: يابى الله ما غمضت منذ سبع، فقال رسول الله «أى أخى اصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها:» ثم قال رسول الله «ساعات الأمراض يلهين ساعات الخطايا»<sup>(٤)</sup>.

٣٢٢- وفي النسائي من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأعرابي: «هل أخذت أم ملدم؟» قال يارسول الله وما أم ملدم؟ قال «حر يكون بين الجلد والدم». قال ما وجدت هذا. قال «يا أعرابي هل أخذك الصداع؟» قال يارسول الله وما الصداع؟ قال «عرق يضرب على الإنسان في رأسه». قال ما وجدت هذا. فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (١٩٨/٥) والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة انظر مجمع الزوائد (٣٠١/٢).

وأخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال الهيثمي في المجمع (٣٠١/٢) رجاله ثقات.

(٢) انظر الترغيب للمعذري (١٤٥/٤) فقد عزاه لابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات، وقال: [فيه] أم عبد الله ابنة أبي ذئاب لا أعرفها.

(٣) الرهط: ما دون العشرة من الرجال، (رهط) الرجل قومه وقبيلته.

(٤) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (٨٠/٤) للبيهقي في الشعب ورمز لصحته، وتعقبه المناوي بما يفيد ضعفه.

(٥) السنن الكبرى للنسائي (٧٤٩١)، وصححه الحاكم (٣٧٤/١) على شرط مسلم وأقره الذهبي، وصححه أيضاً ابن حبان (٧٠٣) موارد.

٣٢٣- وقالت أم سليم: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال «يا أم سليم أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد؟» قلت نعم يا رسول الله. قال «أبشري يا أم سليم فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه، كما يخلص الحديد من النار خبثه»<sup>(١)</sup>.

وخرج بعض الصحابة زائراً لرجل من إخوانه.، فبلغه أنه شك قبل أن يدخل عليه فقال أتيتك زائراً وأتيتك عائداً ومبشراً قال كيف جمعت هذا؟ قال: خرجت وأنا أريد زيارتك فبلغني شكاتك فصارت عيادة، وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها، أو قال لم ينلها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

٣٢٥- وقال الحسن - وذكر الوجع -: أما والله ما هو بشيء أيام المسلم، أيام نُورَت له فيها مراحل. ودُكِّرَ فيها مانسى من معاده وكُفِّرَ بها عنه من خطايا.

٣٢٦- وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس.

٣٢٧- وقال أنس بن مالك رضى الله عنه: انتهى رسول الله ﷺ إلى شجرة فزهرا حتى تُثَقِّط من ورقها ما شاء الله ثم قال: «المصائب والأوجاع في إحباط ذنوب أمتي أسرع مني في هذه الشجرة»<sup>(٣)</sup>.

٣٢٨- وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضى الله عنه يرفعه: «ما من مسلم إلا وكل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضى الله بأمره بإحدى الحسينين، إما بموت وإما بحياة، فإذا قال له العواد كيف نجذك قال أحمد الله أجدني والله المحمود بخير. قال له الملكان أبشر بدم هو خير من دمك وصحة هي خير من صحتك. وإن قال أجدني مجهوداً في بلاء شديد قال له الملكان: أبشر بدم هو شر من دماء، وبلاء أطول من بلاءك».

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤١١/٣)، وأخرج أبو داود نحوه عن أم العلاء سبن أبو داود (٣٠٩٢) والطبراني أيضاً بنحوه عن فاطمة الخزاعية قالت: عاد رسول الله ﷺ امرأة من الأنصار... الحديث وفيه «فإنها - أى الحمى - تذهب خبث ابن آدم كما يذهب الكبير خبث الحديد» وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد (٣٠٧/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أبو يعلى، وقال الهيثمي في المجمع (٣٠١/٢) فيه جابر الجعفي ضعيف، وعزاه المنذرى في الترغيب (١٤٩/٤) لابن أبي الدنيا وأبو يعلى أيضاً.

٣٢٩ - يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجهه «وارأساه» (١). وقول سعد يارسول الله قد اشتد بى الوجع وأنا ذو مال، وقول عائشة وارأساه، فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرماً وتسخفاً كان شكوى منه فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها؛ وقد يعاقب بالنية والقصد.

٣٣٠ - وقال ثابت البناني انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوذه، فخرج إلينا ابنه وقال هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه. فقال الحسن إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من أن يأكله التراب.

٣٣١ - وقال ثابت أيضاً دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوذه وهو ثقيل فقال: إنه من كان في مثل حالتي هذه ملأت الآخرة قلبه كانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب.

٣٣٢ - ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (٢) ويذكر عنه ﷺ «لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ» (٣).

٣٣٣ - وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالساً فتبسم فقلنا يارسول الله مم تبسم؟ قال «تعجباً للمؤمن من جزعه من السقم، ولو كان يعلم ماله في السقم أحب أن يكون سقيماً حتى يلقي الله». ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء. قلنا يارسول الله مم تبسم ورفعت رأسك إلى السماء؟ قال «عجبت من ملكين نزلا من السماء يلتمسان عبداً مؤمناً في مصلاه يصلى فلا يجدها، فعرجا إلى الله فقالا يارب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا فوجدناه قد حبسته في حبالك فلم نكتب له شيئاً من عمله، فقال اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمل في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئاً فعلى أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل» (٤).

(١) أخرجه البخارى (٥٦٦٥) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، وضعفه الهيثمى، انظر مجمع الزوائد (٢٩٧/٢) وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٤/١) للطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ ورمز لضعفه.

(٣) عزاه المنذرى فى الترغيب (١٦٤/٤) لابن أبى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات عن ابن عباس.

(٤) ورواه الطبرانى فى الأوسط، والبخارى باختصار، وقال الهيثمى فيه محمد بن أبى حميد وهو ضعيف جداً انظر مجمع الزوائد (٣٠٤/٢) وانظر الترغيب والترهيب للمنذرى (١٥٠/٤).



٣٣٤ - ويذكر عنه عليه السلام «من وعك ليلة فصر ورضى بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كهنية يوم ولدته أمه»<sup>(١)</sup>.

٣٣٥ - ومن مراسيل يحيى بن كثير قال: فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان فسأل عنه فأخبر أنه غليل فأتاه يعوده فقال: «شفى الله سقمك وعظم أجرك وغفر ذنبك ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك، إن لك من وجعك خلالاً ثلاثاً: أما الأولى فتذكرة من ربك يذكر بها وأما الثانية فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوى»<sup>(٢)</sup>.

وقال زياد بن الربيع، قلت لأبي بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتني. قال ما هي؟ قلت: «من يعمل سوءاً يجز به»<sup>(٣)</sup> قال ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر.

٣٣٧ - وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى والمليلة والشوكة وانقطاع شسعه»<sup>(٤)</sup> حتى البضاعة يضعها في كفه فيفقددها فيفرغ لها فيجدها في ضنبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكبر»<sup>(٥)</sup> ضنب الإنسان ما تحت يده؛ يقال اضطن كذا إذا حملة تحت يده.

٣٣٨ - وقال وهب بن منبه لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء.

٣٣٩ - وفي بعض كتب الله سبحانه «إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحبه لينظر كيف تضرعه إليه».

٣٤٠ - وقال كعب: أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير بإختصار، وضعفه الهيثمي انظر مجمع الزوائد (٢/٢٩٩).

(٣) سورة النساء: آية (١٢٣).

(٤) الشسع: أحد سيور النعل وهو الذي يدخل بين الإصبعين.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٩٢١) الإحسان، وأبو داود (٣٠٩٣).

٤١ مال معروف الكرخي «إن الله ليبتلى عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما ابتليتكم بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلكم من الذنوب فلا تشكني».

٣٤٢ - وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً قال يارسول الله ما الأسقام ؟ قال: «أو ما سقمت قط ؟» قال لا، فقال «قم عنا فلست مؤمناً»<sup>(١)</sup>.

٣٤٣ - وكان عبد الله بن مسعود قد اشتدت به العلة فدخل عليه بعض أصحابه يعوده وأهله تقول نفسى فداك ما نطعمك ما نسقيك، فأجابها بصوت ضعيف «بليت الحراقف»<sup>(٢)</sup> وطالت الضجعة، والله ما يسرنى أن الله تقصنى منه قلامة ظفر».

٣٤٤ - وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له يا أبا سليمان لاي شيء طلقته؟ قال ما طلقته لأمر رابني منها ولا ساءنى ولكن لم يصبها عندى بلاء.

٣٤٥ - ويذكر عنه عليه السلام «ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحط به عنه سيئة ورفع له به درجة»<sup>(٣)</sup>.

ولا يتنافى هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لاغير، لأن حصول الحسنة إنما هو بصره الاختيارى عليها وهو عمل منه.

٣٤٦ - وعاد رجل من المهاجرين مريضاً فقال إن للمريض أربعا: يرفع عنه القلم ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته، ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً.

٣٤٧ - وفى المسند عنه عليه السلام «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا أنه، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن» وفى لفظ «إن أمر المؤمن كله عجب: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٨٩) وفيه راو لم يُسم. (٢) (الحرقفة): عظم رأس الورك، وتجمع على حراقف.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣٤٧/١) وصححه وأقره الذهبى، والطبرانى فى الأوسط، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٠٤/٢) إسناده حسن، وحسنه المنذرى فى الترغيب (١٥٠/٤).

(٤) مسند أحمد (١٥/٦) وأخرجه مسلم أيضاً (٢٩٩٩) عن صهيب.

## الباب السابع عشر

### فى الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم فى فضيلة الصبر

٣٤٨- قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن السفر، قال: مرض أبو بكر رضى الله عنه فعاده فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال قد رأتى الطبيب قالوا فأى شىء قال لك؟ قال: إنى فعال لما أريد.

٣٤٩- وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر.

٣٥٠- وقال أيضا: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً.

٣٥١- وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له، وقال: الصبر<sup>(١)</sup> مطية لا تكبو.

٣٥٢- وقال الحسن: الصبر كثر من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

٣٥٣- وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه عاصه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه.

٣٥٤- وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا الصبر.

٣٥٥- وقال سليمان ابن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>، قال: كالماء المنهمر.

٣٥٦- وكان بعض العارفين فى جيبه رُقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها. وفيها ﴿اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾<sup>(٣)</sup>.

٣٥٧- وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت.

(١) المطية: هى الناقة التى يُركب مطاماً، أى ظُهُراً.

(٢) سورة الزمر: آية (١٠).

(٣) سورة الطور: آية (٤٨).

٣٥٨- وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال سحابة صيف ثم تنقشع.

٣٦٠- وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾<sup>(١)</sup>، لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء.

٣٦١- وقيل للأحنف بن قيس ما الحلم؟ قال أن تصبر على ما تكره قليلاً.

٣٦٢- وقال وهب: مكتوب في الحكمة قصر السفه النصب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر، وقصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته.

٣٦٣- وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشى<sup>(٢)</sup>، وله غديرتان<sup>(٣)</sup>، وهو يضرب بيده فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش، فعانه<sup>(٤)</sup> فخرج من عنده متوسناً<sup>(٥)</sup>، فوقع في اصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك فزعم على قطعها، فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشى عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر فأخذها وجعل يقبلها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية ولا إلى مالا يرضى الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾، ولم يزد عليه، ثم قال لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكية أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام شئالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة لا أباً لسانتيك<sup>(٦)</sup>، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته فقال له عيسى أما والله ما كنا نعدك للصراع قد أبقي الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجلك، فقال له ياعيسى ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به. ولما أرادوا قطع رجله قالوا له لو سقيناك شيئاً

(١) سورة السجدة: آية (٢٤).

(٢) الوشى: نقش الثوب، ويكون من كل لون، والوشى نوع من أنواع الثياب أيضاً.

(٣) الغديرة: الذوئية المصفورة من شعر المرأة، والغديرتان الزوئتان، أي له صفيرتان.

(٤) عانه: أصابه بعينه، أي حسده.

(٥) متوسناً: أي نائماً.

(٦) لسانتك: ميفضك.

كيلا تشعر بالوجع، فقال إنما ابتلاني ليري صبري أفاعارض أمره. وسئل ابنه هشام كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ قال كان يمسح عليها.

٣٦٤- وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا سلام قال سمعت قتادة يقول: قال لقمان وسأله رجل أى شيء خيراً؟ قال صبر لا يتبعه أذى قال فأى الناس خيراً؟ قال الذى يرضى بما أوتى، قال فأى الناس أعلم؟ قال الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه. قيل فما خير الكثر، من المال أو من العلم؟ قال سبحانه الله بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خيراً وجد وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه.

٣٦٥- وقال حسان بن أبى جيلة: من بث<sup>(١)</sup> فلم يصبر، ورواه ابن أبى الدنيا مرفوعاً إلى النبى ﷺ، وإن صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله.

٣٦٦- وقال حسان بن أبى جيلة أيضاً فى قوله تعالى: ﴿فصبر جميل﴾<sup>(٢)</sup>، قال: لا شكوى فيه. ورفع ابن أبى الدنيا أيضاً.

وقال مجاهد: ﴿فصبر جميل﴾ فى غير جزع.

وقال عمرو بن قيس: ﴿فصبر جميل﴾، قال: الرضا بالمصيبة والتسليم.

وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

٣٦٧- وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾<sup>(٣)</sup>، قال: كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً.

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور.

وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾، أى كمد أى كمد<sup>(٤)</sup> الحزن.

٣٦٨- وقال الحسن ماجرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم.

(١) (بث) الخبر: نشره، والبث: الحزن، والمعنى هنا اشتكى ولم يصبر.

(٢) سورة يوسف: آية (١٨)، (٨٣). (٣) سورة يوسف: آية (٨٤).

(٤) الكمد: الحزن المكثوم، كمد الرجل حزنه: كتم حزنه.

٣٦٩- وقال عبد الله بن المبارك أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه. وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر» فقله اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿إنا لله﴾<sup>(١)</sup>، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه ماله كما يريد. وقوله راجياً به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿وإنا إليه راجعون﴾<sup>(٢)</sup>، أن تُرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة وقوله وقد يجزع الرجل وهو يتجلد أى ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

٣٧٠- وقال يونس بن يزيد سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: مامتتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

٣٧١- وقال قيس بن الحجاج فى قول الله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾<sup>(٣)</sup>، قال أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يعرف من هو.

٣٧٢- وكان شمر إذا عزى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك.

٣٧٣- وقال أبو عقيل رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه إزار فى موت واقد بن عبد الله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

٣٧٤- قال ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن جعفر بن مهران قال قالت امرأة من قريش:

أما والذى لا خلد إلا لوجهه      ومن ليس فى العز المنيع له كفو  
لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه      لقد يُجنى من غبته الثمرُ الحلو  
قال وأنشدنى عمرو بن بكير:

صبرتُ فكان الصبر خيراً مغبةً<sup>(٤)</sup>      وهل جزعٌ يُجدى على فاجزع  
ملكْتُ دموعَ العين حتى رددتها      إلى ناظرى فالعينُ فى القلب تدمع

(٢) سورة البقرة: آية (١٥٦).

(٤) أى عاقبة

(١) سورة البقرة: آية (١٥٦).

(٣) سورة المعارج: آية (٥).

قال وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

نبئتُ خولة أمس قد جزعَتْ      من أن تُنوبَ نوائبَ الدهر  
لا تجزعي يا خولَ واصبري      إن الكرام بُنوا على الصبر

٣٧٥- قال وحدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمي أن رجلاً عزي رجلاً في ابنه فقال إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجیعة بالأجر، فإنها أعظم المصیبتین عليك وأنكى<sup>(١)</sup> الرزیتین لك والسلام.

٣٧٦- وعزي ابن أبي السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر، فيه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع.

٣٧٧- وقال عمر بن عبد العزيز: أما الرضا فمتزلة عزيزة أو منیعة ولكن تجعل الله في الصبر موعلاً حسناً، ولما مات ابن لعبد الملك، صلى عليه، ثم قال: رحمك الله لقد كنت لي وزيراً وكنت لي معيناً. قال: والناس ييكون وما يقطر من عينيه قطرة.

٣٧٨- وأصيب مطرف بن عبد الله في ابن له فأتاه قوم يعزونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة.

٣٧٩- وقال عمرو بن دينار، وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء.

٣٨٠- وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزي: قد مات ابن لي نفيس، فقلت لأمه: اتق الله واحتسبيه واصبري، فقالت: مصیبتی أعظم من أن أفسدها بالجزع.

٣٨١- قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني عمر بن بكير، عن شيخ من قریش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأميراً، فكثرت من يعزیه، فتذكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

٣٨٢- وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبیر يعزيني في ابني، فرأني أطوف بالبيت متقنعاً، فكشف القناع عن رأسي، وقال: الاستكانة من الجزع.

(١) (نكى) العنوة: أوقع به، وهزمه وغلبه، وأنكى الرزيتين: أي أشد الرزيتين عليك.

### [فصل]

٣٨٣- وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوباً يعرف به. قالوا: لأن التعزية سنة، وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزیه ففيه نظر، وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلوا شيئاً من ذلك، ولا نقل هذا عن أحد الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلها صريحة في رد هذا القول وقد أنكر اسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه وقال هو من الجزع.

٣٨٤- وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيرون شيئاً من زيهم قبل المصيبة ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله منافٍ للصبر والله سبحانه أعلم.

\*\*\*



## الباب الثامن عشر

### فى ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

٣٨٥- فمنها البكاء على الميت: ومذهب أحمد وأبى حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازى. وكرهه الشافعى وكثير من أصحابه بعد الموت وخصصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به فلم يجب فاسترجع وقال: «غلبنا عليك يا أبا الربيع»، فصاح النسوة ويبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن. فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإذا وجب فلا تبكين» ماكية، قالوا وما الوجوب يا رسول الله، قال: «الموت»<sup>(١)</sup>، رواه أبو داود والنسائى.

٣٨٦- قالوا: وفى الصحيحين من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»<sup>(٢)</sup>. وهذا إنما هو بعد الموت. وأما قبله فلا يسمى ميتاً.

٣٨٧- وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: «لكن حمزة لا يؤاخذ له»، فجئن نساء الأنصار فيكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال: «ويجهن أنهن ههنا يبكين حتى الآن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم»<sup>(٣)</sup>. رواه الإمام أحمد. وهذا صريح فى نسخ الإباحة المتقدمة.

٣٨٨- والفرق بين ما قبل الموت وبعده: أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

٣٨٩- قال المجوزون: قال جابر بن عبد الله: أصيب أبى يوم أحد فجعلت أبكى فجعلوا ينهونى ورسول الله ﷺ لا ينهانى، فجعلت عمى فاطمة تبكى. فقال النبى ﷺ: «تبكين أو لا تبكين مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه»<sup>(٤)</sup> متفق عليه.

(٢) أبو داود (٣١١١)، والنسائى (١٣/٤).

(٣) البخارى (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٣) مستند أحمد (٨٤/٢)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥٩١).

(٤) البخارى (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧٢).

٣٩٠- وفى الصحيحين أيضاً عن ابن عمر قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعودُه مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده فى غشية، فقال «قد قضى؟» قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال: «ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا (وأشار إلى لسانه)، أو يرحم»<sup>(١)</sup>.

٣٩١- وفى الصحيحين أيضاً، من حديث أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي فى الموت، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها فى شنة ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(٢)</sup>.

٣٩٢- وفى مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا عمر يكيبن وإياكن ونعيم الشيطان، ثم قال إنه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة، وما كان من اليد ومن اللسان فمن الشيطان»<sup>(٣)</sup>.

٣٩٣- وفى المسند أيضاً، عن عائشة أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت فوالذى نفسى بيده إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر وأنا فى حجرتى<sup>(٤)</sup>.

٣٩٤- وفى المسند أيضاً عن أبى هريرة قال: مرَّ على النبي ﷺ بجنازة يُبكى عليها وأنا معه ومعه عمر بن الخطاب فانتهر عمر اللاتى يكيبن عليها. فقال النبي ﷺ: «دعهن يا ابن الخطاب فإن النفس مصابة وإن العين دامة والعهد قريب»<sup>(٥)</sup>.

٣٩٥- وفى جامع الترمذى عن جابر بن عبد الله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق إلى ابنه إبراهيم فوجده وجود بنفسه. فأخذه النبي ﷺ فوضعه فى حجره فبكى، فقال له أتبكي. أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: «لا ولكن نهيت عن صوتين أحمرقن فاجرين، صوت عند مصيبة خمش الوجه وشق الجيوب ورنه

(٢) تقدم تخريجه.

(١) البخارى (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

(٤) مسند أحمد (١٤٢/٦).

(٣) مسند أحمد (٢٣٧/١، ٢٣٨، ٣٣٥).

(٥) مسند أحمد (١١٠/٢)، وأخرجه أيضاً النسائى (١٩/٤)، وابن ماجه (١٥٨٧).

الشیطان»<sup>(١)</sup>. قال الترمذی هذا حدیث حسن.

٣٩٦- وقد صح عنه عليه السلام أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله<sup>(٢)</sup>.

٣٩٧- وقد صح عنه عليه السلام: أنه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه<sup>(٣)</sup>.

٣٩٨- وصح عنه عليه السلام: أنه نعى جعفر وأصحابه، وعيناه تذرفان<sup>(٤)</sup>.

٣٩٩- وصح عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه: أنه قبل النبي عليه السلام وهو ميت وبكى<sup>(٥)</sup>.

٤٠٠- فهذه اثنتا عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء، فتعين حمل أحاديث النهى على البكاء الذى معه نذب ونياحة، ولهذا جاء فى بعض ألفاظ حديث عمر: «الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه»، وفى بعضها: «يعذب بما ينح عليه»، وقال البخارى فى صحيحه قال عمر: «دعهن يبكين على أبى سليمان - يعنى خالد بن الوليد - ما لم يكن نفع أو لقلقة»<sup>(٦)</sup>، والنفع حث التراب والقلقة الصوت.

٤٠١- وأما دعوى النسخ فى الحديث حمزة فلا يصح، إذ معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد.

ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد منها حديث أبى هريرة إذ إسلامه وصحبه كانا فى السنة السابعة. ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم فى السنة الثامنة. ومنها البكاء على زينب وكان موتها فى السنة الثامنة أيضاً. ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته فى الخامسة ومنها البكاء عند قبر أمه عليه السلام وكان عام الفتح فى الثامنة.

٤٠٢- وقولهم: «إنما جاز قبل الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت»، جوابه أن الباكي قبل الموت يبكى حزناً، وحزنه بعد الموت أشد. فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التى

(١) سنن الترمذى (١٠٠٥).  
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٦) عن أبى هريرة.  
(٣) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذى (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦) عن عائشة رضى الله عنها.  
(٤) أخرجه البخارى (٣٧٥٧) عن أنس.  
(٥) البخارى (١٢٤١) عن عائشة.  
(٦) البخارى كتاب الجنائز باب ما يكره النياحة على الميت تعليقاً من قول عمر رضى الله عنه انظر فتح البارى (١٦٠/٣).

يرجى فيها. وقد أشار النبي إلى ذلك بقوله: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يخطئ الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»<sup>(١)</sup>.

### [فصل]

٤٠٢- وأما النذب والنياحة فنص أحمد على تحريمها. قال في رواية حنبل النياحة معصية. وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام. وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد: يُكره تنزيهاً. وهذا لفظ أبي الخطاب في الهداية. قال ويكره النذب والنياحة وخمسه الوجوه وشق الجيوب والتحفى.

٤٠٣- والصواب القول بالتحريم لما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية»<sup>(٢)</sup>.

٤٠٤- وفي الصحيحين أيضاً عن أبي بردة، قال: وجع أبو موسى وجعاً فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا برئ مما برئ منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله برئ من الصالحة والخالقة والشاقة<sup>(٣)</sup>.

٤٠٥- وفي الصحيحين أيضاً عن المغيرة بن شعبه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من ينح عليه يعذب بما ينح عليه»<sup>(٤)</sup>.

٤٠٦- وفي الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح، كما وفّت منا امرأة إلا خمس نسوة<sup>(٥)</sup>.

٤٠٧- وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «الميت يعذب في قبره

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) عن أنس.

(٢) البخاري (١٢٩٨)، ومسلم (١٠٣).

(٣) البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤)؛ والصالقة: هي التي ترفع صوتها عند المصيبة، والخالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة والشاقة التي تشق ثوبها عند المصيبة.

(٤) البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣).

(٥) البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦).

بما نبيح عليه»<sup>(١)</sup>.

٤٠٨- وفى صحيح مسلم، عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن» الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والإستسقاء بالنجوم والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»<sup>(٢)</sup>.

٤٠٩- وفى سنن أبى داود، عن أسيد بن أبى أسيد عن امرأة من المبيعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً، ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً<sup>(٣)</sup>.

٤١٠- وفى المسند، عن أنس قال: أخذ النبى ﷺ على النساء حين بايعهن: أن لا ينحن، فقلن يارسول الله، إن نساء أسعدتنا فى الجاهلية أفنساعدن فى الإسلام؟ فقال: «لا إسعاد فى الإسلام»<sup>(٤)</sup>.

وقد تقدم قوله: «ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان»، وقوله: «نهيت عن صوتين أحمرين فاجرين، صوت عند مصيبة خممش وجوه وشق جيوب ورنه شيطان».

٤١١- وفى مسند الإمام أحمد من حديث أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الميت يعذب بكماء الحى. إذا قالت النائحة وأعضدها وأناصرها وأكاسيها، جبد الميت وقيل له أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسيها»<sup>(٥)</sup>.

٤١٢- وفى صحيح البخارى، عن النعمان بن بشير قال: أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول واجبله واكذا واكذا تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت لى شيئاً إلا قيل لى أنت كذا؟ فلما مات لم تبك عليه<sup>(٦)</sup>.

٤١٣- وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة، وهى مشتملة على التسخط على الرب وفعل ما يناقض الصبر والإضرار بالنفس، من لطم الوجه وحلق الشعر وتنفه والدعاء

(١) البخارى (١٢٩٢).

(٢) أبى داود (٣١٣١).

(٤) مسند أحمد (١٩٧/٣)، وأخرجه النسائى أيضاً (١٦/٤) والإسعاد: هو أن تقوم المرأة فتساعد جارتها فى النياحة والبكاء، وكان شائعاً فى الجاهلية. وكان ذلك فيهن عادة فإذا فعلت إحداهما ذلك بالآخرى فلا بد أن تفعل بها مثل ذلك.

(٥) أحمد (٤١٤/٤)، والعَضْدُ الساعد.

(٦) البخارى (٤٢٦٧).

عليها بالويل والثبور، والتظلم من الله سبحانه وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه، ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

٤١٤- وقال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له. قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع وأبى وائل أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان.

٤١٥- قالوا وفي الصحيحين عن أم عطية، قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾<sup>(١)</sup> كان منه النياحة، فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي من أن أسعدهم؟ فقال: «إلا آل فلان».

وفي رواية<sup>(٢)</sup> لهما أنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: «أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا»، ونهانا عن النياحة فقبضت منا امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها، قالت: فما قال لها شيئاً فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها. قالوا وهذا الإذن لبعضهن في فعله يدل على أن النهي عنه تنزيه لا تحريم، ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعاً بين الأدلة.

٤١٦- قال المحرمون: لاتعارض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائناً من كان، ولا تضرب سنته بعضها ببعض، وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتل تأويلاً، وقد انعقد عليها الإجماع.

٤١٧- وأما المرأة التي قال لها: «إلا آل فلان» والمرأة التي سكنت عنها فذلك خاص بهما لوجهين.

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سأله ذلك «لا إسعاد في الإسلام».

والثاني: أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام، وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما.

٤١٨- وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر رضى

(١) سورة الممتحنة: آية (١٢).

(٢) الرواية الأولى أخرجه مسلم (٩٣٧)، والثانية أخرجه البخاري (٤٨٩٢).

الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال: وانياء واخيلاه واصفياه (١).

٤١٩- وفي صحيح البخاري عن أنس أيضاً، قال: لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال: «ليس على أهلك كرب بعد اليوم» (٢)، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، فلما دفن، قالت فاطمة: يانس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب (٣)؟

٤٢٠- وقال النبي ﷺ: «وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»، وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسقاط له فهو كمجرد البكاء.

### [فصل]

٤٢١- وأما قول النبي ﷺ: «إن الميت ليعذب بالنياحة عليه»، فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وروى نحوه عن عمران بن حصين وأبي موسى رضي الله عنهم؛ فاختلفت طرق الناس في ذلك: فقالت فرقة يتصرف الله في خلقه بما يشاء، وأفعال الله لا تعلل، ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه، لأن الله خالق الجميع، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهاائم والمجانين بغير عمل.

٤٢٢- وقالت فرقة: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ، وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين، واحتجت بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (٣). ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت: إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا متهمين، ولكن السمع يخطئ، وقالت إنما مر النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: «إن صاحب هذا القبر يعذب وأهله يكون عليه» (٤).

وفي رواية متفق عليها عنها إنما قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً يبكاء أهله عليه» (٥). وقالت حسبكم القرآن ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (٦).

(١) مسند أحمد (٣١/٦) من حديث عائشة.

(٢) البخاري (٤٤٦٢).

(٣) سورة الأنعام: آية (١٦٤).

(٤) مسلم (٩٢٩).

(٥) البخاري (١٢٨٧)، مسلم (٩٢٩).

٢٣- وقالت فرقة أخرى منهم المزني وغيره: أن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت عادتهم ذلك. وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة:

إذا مت فأنعيني بما أنا أهله      وشقي على الجيب يا ابنة معبد  
وقول ليبد:

فقوموا فقولوا بللذي قد علمتما      ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر  
وقولاً هو المرء الذي لا صديقه      أضاع ولا خان الأمين ولا غدر  
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما      ومن يبك جولا كاملاً فقد اعتذر

٢٤- وقالت طائفة هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به. وهذا قول ابن المبارك وغيره.

٢٥- قال أبو البركات ابن تيمية: وهو أصح الأقوال كلها لأنه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضى به وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه.

٢٦- فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك. وقد حصل بذلك العمل بالآية مع إجراء الخبر على عموميه في كثير من الموارد، وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعود عليه فإنهم قد يحضرون مالا تحضره ويشهدون ماتغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصاً في حق خمسة من أكابر الصحابة.

وقوله في اليهودي لا يمنع أن يكون قد قال مارواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات آخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً بيبكاء أهله عليه»، فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذاباً بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية لم يمنع ذلك في حق المسلم، لأن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر والله أعلم.

### [فصل]

٢٧- ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفات، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره؛ فإن النبي ﷺ لم يقل أن الميت يعاقب بيبكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال



يعذب بذلك ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه. والعذاب هو الألم الذى يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص، وقد قال ﷺ: «السفر قطعة من العذاب» (١). وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى أن الميت ليتألم بمن يعاقب فى قبره فى جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان فى الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم وهو البكاء الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معروف فى نظمهم ونثرهم تألم الميت بذلك فى قبره، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا فى هذه الأحاديث والله ولى التوفيق.

\*\*\*

---

(١) أخرجه البخارى (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) عن أبى هريرة.

## الباب التاسع عشر

### فى أن الصبر نصف الإيمان

٤٢٨- والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، قال غير واحد من السلف «الصبر نصف الإيمان» وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر فى قوله ﴿إِن فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾<sup>(١)</sup>، فى سورة إبراهيم، وفى سورة حمعسق، وفى سورة سبأ، وفى سورة لقمان.

٤٢٩- وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهى ترجع إلى شطرين، فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله فى هذين الشيتين، فعل المأمور وترك المحذور.

الاعتبار الثانى: أن الإيمان مبنى على ركنين: يقين وصبر، وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهى أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحذور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان والنصف الثانى الشكر بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل قول القلب والجوارح، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾<sup>(٣)</sup>، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾<sup>(٤)</sup>، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد

(١) سورة إبراهيم آية (٥)، ولقمان: آية (٣١)، وسبأ آية (١٩)، والشورى آية (٣٣).

(٢) سورة السجدة: (٢٤).

(٣) سورة النمل: آية (١٤).

(٤) سورة العنكبوت: آية (٣٨).

علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر<sup>(١)</sup>. فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين. وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالة والمعاداة. فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعدى أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهى، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر؛ فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

٤٣٢- الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحمج عما تكرهه. والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة، وإحجام عن معاصي الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

٤٣٣- الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة، فال مؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾<sup>(٢)</sup>، وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك»<sup>(٣)</sup>؛ فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر.

٤٣٤- الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والآخرة أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى. وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر. وترك ما يضره هو الصبر.

(٢) سورة الأنبياء: آية (٩٠).

(١) سورة الإسراء: آية (١٠٢).

(٣) البخاري (٦٣١٥) عن البراء بن عازب، وأخرجه مسلم أيضاً (٢٧١٠).

٤٣٥- الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهى يتركه، وقدر يجرى عليه وفرضه فى الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

٤٣٦- الاعتبار الثامن: أن العبد فيه داعيان: داع يدعو إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعو إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأولياؤه من النعيم المقيم فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعى الله والدار الآخرة هو الشكر.

٤٣٧- الاعتبار التاسع: أن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الاصلان المذكوران فى الحديث الذى رواه أحمد والنسائى عن النبى ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد»<sup>(١)</sup>، وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق.

٤٣٨- الاعتبار العاشر: أن الدين مبنى على أصلين: الحق والصبر. وهما المذكوران فى قوله تعالى: «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»<sup>(٢)</sup>. ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق فى نفسه وتنفيذه فى الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر، لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) مسند أحمد (١٢٣/٤)، والنسائى (٥٤/٣) عن شداد بن أوس.

(٢) سورة العصر: آية (٣).

## الباب العشرون

### فى بيان تنافز الناس فى الأفضل من الصبر والشكر

٤٣٩- حكى أبو الفرج بن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن الصبر أفضل. والثانى: أن الشكر أفضل. والثالث: إنهما سواء، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بلّيت أيهما وكبت.

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة ومالها وعليها فى احتجاجها بعون الله وتوفيقه.

٤٤٠- قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأمله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعاً، وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفى فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر.

ويكفى فى فضله قوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»<sup>(١)</sup>، فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله: «مدمن الخمر كعابد وثن»<sup>(٢)</sup>، ونظائر ذلك.

٤٤٢- قالوا: وإذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها. ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما فى سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد.

(١) أخرجه البخارى معلقاً فى كتاب الأطعمة انظر فتح البارى (٥٨٢/٩)، والترمذى (٢٤٨٦) وابن ماجه (١٧٦٤) عن أبي هريرة، وقال الترمذى حسن غريب، وابن ماجه أيضاً (١٧٦٥) عن ستان بن سنة الأسلمى، وقال البوصيرى فى الزوائد (٤٢/٢) إسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥) عن أبي هريرة، وقال البوصيرى فى الزوائد (١٠٢/٣) إسناده فيه مقال، محمد بن سليمان ضعفه النسائى وابن عدى، وقواه ابن حبان، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وأخرجه ابن حبان (٥٣٤٧) الإحسان. عن ابن عباس، وابن عدى فى الكامل (١٥٢٥/٤) وفيه عبد الله بن خراش الشيبانى وهو ضعيف، ضعفه الدارقطنى وغيره، وقال البخارى منكر الحديث انظر الميزان للذهبي (٤١٣/٢)، وأخرجه أحمد عن ابن عباس أيضاً (٢٧٢/١) ولكن فيه راوٍ لم يسم.

٤٤٣- قالوا وأيضاً فالصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

٤٤٤- قالوا وأيضاً فالله سبحانه وتعالى علق على الشكر الزيادة فقال: ﴿وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(١)</sup>. وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب وأيضاً فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾<sup>(٢)</sup>، وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون﴾<sup>(٣)</sup>.

٤٤٥- قالوا: وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»<sup>(٤)</sup>. وفي لفظ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها»، قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما في الحديث نفسه: «يدع شهوته وطعام وشرابه من أجل»<sup>(٥)</sup>. ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأل عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له»<sup>(٦)</sup>. ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾<sup>(٧)</sup>، أنه الصوم وسمى رمضان شهر الصبر. وقال بعض السلف الصوم نصف الصبر. وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب. فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب. ولكن من تمام الصوم وكمال صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين. وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإن أحداً سابه أو شاتمه فليقل إنى صائم»<sup>(٨)</sup>، فأرشد ﷺ

(٢) سورة آل عمران: آية (١٤٤).

(١) سورة إبراهيم: آية (٧).

(٣) سورة النحل: آية (٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (١١٥١) عن أبي هريرة.

(٦) أخرجه النسائي (١٦٥/٤)، وابن خزيمة (١٩٤/٣) وابن حبان (٣٤٢٦)، وأحمد (٢٥٥/٥) عن أبي أمامة.

(٧) سورة البقرة: آية (٤٥).

(٨) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة.

إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتذى من إفسادها لصومه فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»<sup>(١)</sup>.

٤٤٦- قالوا ويكفى في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾<sup>(٢)</sup>؛ فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى: ﴿والله مع الصابرين﴾<sup>(٣)</sup>، لاشيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله. وقال تعالى: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾<sup>(٤)</sup>، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

٤٤٧- وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾<sup>(٥)</sup>. وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخير أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

٤٤٨- قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها، والزهد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر، قالوا وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذ الآخر وأنفق في طاعة الله تعالى، أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

٤٤٩- قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها. وقال: «بل أجوع يوماً وأشبع يوماً»<sup>(٦)</sup>، ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته، فأثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

٤٥٠- قالوا وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال

(٢) سورة المؤمنون: آية (١١١).

(٤) سورة الطور: آية (٤٨).

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣) عن أبي هريرة.

(٣) سورة البقرة: آية (٢٤٩).

(٥) سورة البقرة: آية (١٥٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة، وقال: حديث حسن.

يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله والعمل بمرضاته والمجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما فى الدنيا. وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة؛ وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه والتنعيم بذكره. وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو فى الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملاً للمعارضات التى عليه، والمحن التى امتحن بها، وإلا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب إفنائها إلى هذه المعرفة وبعدها، فكل علم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى عما دونه؛ وكذلك حال القلب، فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفنائها إلى المقصود وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها. فالعمل المعد للقلب المهيء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى. ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيًا عنها. وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها.

٤٥١- وهاهنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه فى حق غيره، فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة. والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته، وقوفه فى المصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر: مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح. وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسه ساعة للنظر فى المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل، أفضل من



عبادة سنين من غيره، ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته، وتأمل تولية النبي ﷺ لعمر بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر. بل قال له: «إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»<sup>(١)</sup>، وأمره وغيره بالصيام وقال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له»<sup>(٢)</sup>، وأمر آخر بأن «لا يقضب»<sup>(٣)</sup>، وأمر ثالثاً: «بأن لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله»<sup>(٤)</sup>. ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وقفه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له. قابل له قد هيء له. فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل:

ما زال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه، فالشح المطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلاً. وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده. ولو قيل أيما أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب أن هذا في موضعه أفضل. وهذا في موضعه أفضل.

٤٥٢- وإذا عرفت هذه القاعدة فالشكر يبذل المال عمل صالح، يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنية منه. فتتهيء لمعرفة الله ومحبته، فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود. وأما الفقير الزاهد فقد إستراح من هذا الداء والدواء. وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

٤٥٣- ثم أوردوا على أنفسهم سؤلاً فقالوا: فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه، بأن قالوا الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه لا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٦)؛ والنسائي (٢٥٥/٦) عن أبي ذر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر، وقال الترمذي: حسن غريب.

وأخرجه أيضاً ابن حبان (٨١٤) الإحسان. عن عبد الله بن بسر.

بما لا يشعر به غالباً، فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.  
قالوا وإذا عُرِفَ هذا عُرِفَ أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

### [فصل]

٤٥٤- قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم، وفضلتم مقاماً غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على الأكمل والفاضل على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعونا عليهما قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾<sup>(١)</sup>.

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له فى عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾<sup>(٢)</sup>، أى إن وفيتم ما خلقتكم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟

٤٥٥- هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمجته عليهم من بين عباده فقال ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾<sup>(٣)</sup>.

٤٥٦- وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى فى الإنسان: ﴿إنا هدينه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال نبيه سليمان: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم﴾<sup>(٥)</sup>.

(٢) سورة النساء: آية (١٤٧).

(٤) سورة الإنسان: آية (٣).

(١) سورة البقرة: آية (١٥٢).

(٣) سورة الأنعام: آية (٥٣).

(٥) سورة النمل: آية (٤٠).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم \* ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾<sup>(٣)</sup>. والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم.

٤٥٧- وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله في الإجابة: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله في الرزق ﴿ يرزق من يشاء ﴾<sup>(٦)</sup>، وفي المغفرة: ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾<sup>(٧)</sup>، والتوبة: ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾<sup>(٨)</sup>، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكره كقوله: ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾<sup>(٩)</sup>، ﴿ وسنجزي الله الشاكرين ﴾<sup>(١٠)</sup>.

٤٥٨- ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأغلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾<sup>(١١)</sup>.

٤٥٩- وصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾<sup>(١٢)</sup>.

٤٦٠- وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الله قال:

- |                               |                                |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة إبراهيم: آية (٧).    | (٢) سورة الزمر: آية (٧).       |
| (٣) سورة آل عمران: آية (١٤٤). | (٤) سورة التوبة: آية (٢٨).     |
| (٥) سورة الأنعام: آية (٤١).   | (٦) سورة البقرة: آية (٢١٢).    |
| (٧) سورة آل عمران: آية (١٢٩). | (٨) سورة التوبة: آية (١٥).     |
| (٩) سورة آل عمران: آية (١٤٥). | (١٠) سورة آل عمران: آية (١٤٤). |
| (١١) سورة الأعراف: آية (١٧).  | (١٢) سورة سبأ: آية (١٣).       |

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾<sup>(٢)</sup>، وقال ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾<sup>(٣)</sup>. فقال عمر صدقت.

٤٦١- وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾<sup>(٤)</sup>. وفى تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثانى، فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾<sup>(٥)</sup>. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر فإنه كان عبداً شكوراً.

٤٦٢- وقد أخبر سبحانه إغما يعبد من شكره. فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾<sup>(٦)</sup>.

٤٦٣- وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾<sup>(٧)</sup>.

٤٦٤- وأول وصية وصى بها الإنسان بعدما عقل عنه، بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾<sup>(٨)</sup>.

٤٦٥- وأخبر أن رضاه فى شكره فقال تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾<sup>(٩)</sup>.

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين \* شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم﴾<sup>(١٠)</sup>، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أى قدوة يؤتم به فى الخير، وأنه قانتاً لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

(١) سورة هود: آية (٤٠).

(٢) سورة الإسراء: آية (٢٤).

(٣) سورة الصافات: آية (٧٧).

(٤) سورة الأعراف: آية (١٤٤).

(٥) سورة الزمر: آية (٧).

(٦) سورة سبأ: آية (١٣).

(٧) سورة الإسراء: آية (٣).

(٨) سورة البقرة: آية (١٧٢).

(٩) سورة لقمان: آية (١٤).

(١٠) سورة النحل: آية (١٢٠-١٢١).

٤٦٦- وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾<sup>(١)</sup>؛ فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾<sup>(٢)</sup>. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً، وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾<sup>(٣)</sup>.

٤٦٧- قالوا فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

٤٦٨- وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفتطرت قدماء، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»<sup>(٤)</sup>.

٤٦٩- وثبت في المسند والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكر وشكرك وحسن عبادتك»<sup>(٥)</sup>.

٤٧٠- وقال ابن أبي الدنيا حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»<sup>(٦)</sup>.

٤٧١- قال وحدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن إسماعيل حدثنا حماد بن

(١) سورة النحل: آية (٧٨).

(٢) سورة البقرة: آية (١٥٢).

(٣) البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبه.

(٤) المسند للإمام أحمد (٢٤٥/٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩)، وفي السنن

(٥٣/٣).

قلت: ولم أجده في الترمذي: انظر تحفة الأشراف (٤٠٦/٨) وجامع الأصول لابن الأثير (٢٠٩/٤).

(٦) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (ص ١٣).

سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجة لا تنغيه خوفاً في نفسها ولا في ماله»<sup>(١)</sup>.

٤٧٢- وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له»<sup>(٢)</sup>.

٤٧٣- وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»<sup>(٣)</sup> فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>(٤)</sup>، في مقابلة شكره بالحمد.

٤٧٤- وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطار القرشي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة»<sup>(٥)</sup>، لأن الله تعالى يقول: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(٦)</sup>.

٤٧٥- وقال الحسن البصري: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً» ولهذا كانوا يسمون الشكر «الحافظ»؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة، و«الجالب» لأنه يجلب النعم المفقودة.

٤٧٦- وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همذان «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

٤٧٧- وقال عمر بن عبد العزيز «قيدوا نعم الله بشكر الله».

(١) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (ص ٢٤) وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١١/١٣٤) والأوسط، وقال الهيثمي رجال الأوسط رجال الصحيح.

(٢) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (ص ٢٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١١٩) رواه الطبراني في الأوسط فيه سليمان بن داود المقرئ وهو ضعيف.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٣٤) عن أنس بن مالك.

(٤) سورة النوبة: آية (٧٢).

(٥) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (ص ١٣).

(٦) سورة إبراهيم: آية (٧).

وكان يقال الشكر قيد النعم.

٤٧٨- وقال مطرف ابن عبد الله: «لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» وقال الحسن: «أكثرُوا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر»، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»<sup>(١)</sup>. والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

٤٨٠- وقال علي بن الجعد: سمعت سفيان الثوري يقول «إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يادأود أتعبت الملائكة.

٤٨١- وقال شعبة: حدثنا الفضل بن فضالة عن أبي رجاء العطاردي قال «خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»<sup>(٢)</sup>.

٤٨٢- وقال صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»<sup>(٣)</sup>.

٤٨٣- وذكر شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟» قال قلت نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من كل المال، قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: «فإذا آتاك الله مالا فليرى عليك»<sup>(٤)</sup>.

٤٨٤- وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه».

(١) سورة الضحى: آية (١١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٨/٤) عن عمران بن حصين وقال العراقي سنده صحيح، انظر إتحاف السادة المتقين (١٨٠/٤)، والمطرف بكسر الميم وضمها الثوب الذي في طرفه علمان، وأخرجه الترمذي (٢٨١٩) مختصراً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحسنه.

(٣) أخرجه النسائي (٧٩/٥) مختصراً بلفظ «كلوا وتصدقوا، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة».

(٤) أخرجه النسائي (١٩٦/٨)، وأحمد (٤٧٣/٣).

٤٨٥- ويرى عبدالله بن يزيد المقرئ، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أعطى خيراً فرؤى عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله. ومن أعطى خيراً ولم ير عليه سمي بغيفض الله معادياً لنعمة الله»<sup>(١)</sup>.

٤٨٦- وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(٢)</sup>. وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها. وقد قال تعالى: ﴿يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت».

٤٨٧- وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله.

٤٨٨- وقال أبو قلابة: لاتنركم دنيا شكرتموها.

٤٨٩- وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً.

٤٩٠- وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه. قال الحسن: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾<sup>(٣)</sup>، يعد المصائب وينسى النعم. وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب. قال: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»<sup>(٤)</sup>، فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله.

يا أيها الظالمُ في فعلِهِ	والظلمُ مردودٌ على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى	تشكو المصيبات وتنسى النعم

٤٩١- ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «التحدث بالنعم شكر وتركه كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (ص ٣٢).

(٢) سورة إبراهيم: آية (٧).

(٣) سورة العاديات: آية (٦).

(٤) جزء من حديث ابن عباس أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).



٤٩٢- وقال مطرف ابن عبد الله: نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة. ولأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر.

٤٩٣- ورأى بكر بن عبد الله المزني حملاً على حمله وهو يقول: الحمد لله أستغفر الله، قال فانتظرت حتى وضع ماعلى ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً، أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفره لذنوبي، فقلت الحمال أفقه من بكر.

٤٩٤- وذكر الترمذي، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا. فقال: «قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن رداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»<sup>(٢)</sup>.

٤٩٥- وقال مسعر: لما قيل لآل داود: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾<sup>(٣)</sup>، لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصل.

٤٩٦- وقال عون بن عبد الله: قال بعض الفقهاء: «إني روأت»<sup>(٤)</sup> في أمرى، لم أرَ خيراً إلا شرمعه إلا المعافاة والشكر، فرب شاكر في بلاءٍ ورب معافى غير شاكر، فإذا سألتهم الله فاسألوهما جميعاً.

٤٩٧- وقال أبو معاوية «لبس عمر بن الخطاب قميصاً فلما بلغ ترقوته»<sup>(٥)</sup> قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتحمل به فى حياتى، ثم مد يديه فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه ثم أنشأ يحدث، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لبس ثوباً (أجسبه جديداً) فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكيناً لم يزل فى جوار الله وفى ذمة الله وفى كنف الله

(١) ابن أبى الدنيا كتاب الشكر (ص ٣٢) بهذا اللفظ وأخرجه أحمد (٢٧٨/٤) عن النعمان أيضاً وفيه تقديم وتأخير، وفي آخره «والجماعة رحمة والفرقة عذاب» وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢١٧/٥، ٢١٨) رواه أحمد والطبرانى والبزار ورجالهم ثقات.

(٢) الترمذي (٣٢٩١) وقال حديث غريب.

(٣) سورة سبأ: آية (١٣).

(٤) روى فى الأمر تروية وترويتاً نظر فيه وتعقبه ولم يعجل.

(٥) الترقوة: هى العظم البارز بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان، تجمع على تراق.

حيًا وسينًا مابًا في ذلك الثوب سلك»<sup>(١)</sup>.

٤٩٨- وقال عون بن عبد الله: ليس رجل قميصاً جديداً فحمد الله فغفر له، فقال رجل: ارجع حتى أشتري قميصاً فألبسه وأحمد الله.

٤٩٩- وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

٥٠٠- وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرًا. وأن أكفرها بعد أن عرفتھا، وأن أنساها ولا أُنْتى بها.

٥٠١- وقال روح بن القاسم: تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص<sup>(٢)</sup> لا أقوم بشكره. فقال الحسن: هذا أحق وهل يقوم بشكر الماء البارد؟

٥٠٢- وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله عز وجل: «ابن آدم خيرى إليك نازل وشرك إلى صاعد، أتحب إليك بالنعم وتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلي منك بعمل قبيح».

٥٠٣- قال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جاراً لى يقول في الليل: يا إلهي خيرك عليّ نازل وشرى إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلي بالنعم، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت فى ذلك تحيرنى وتسترنى وترزقنى.

٥٠٤- وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحت مغرقين فى النعم عاجزين عن الشكر يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا، وتتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

٥٠٥- وقال عبد الله بن ثعلبة: إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ومن حلمك

(١) الحديث أخرجه الترمذى (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٣٥٥٧) عن أبى امامة مختصراً، وقال الترمذى حديث غريب قلت: فيه أبو العلاء الشامى مجهول، انظر التهذيب لابن حجر (١٤٢/١٢)، وهذه الرواية التى أوردها المصنف هى رواية ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (ص ٣٨) عن أبى امامة بهذا اللفظ «ما بقى من الثوب شلوا» أى قطعة - وليس سلك - كما جاءت الرواية هنا.

(٢) الخبيص: الحلواء المخبوصة أى المخلوطة من التمر والسمن.

أنك تعصى وكأنك لا ترى، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد.

٥٠٦- وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال بسم الله والحمد لله.

٥٠٧- وقال أنس بن مالك: « مامن هيد توكل بعبادة الله إلا غرم<sup>(١)</sup> الله السموات والأرض - يعنى رزقه -، فجعله فى أيدي بنى آدم يعملونه حتى يدفعوه إليه. فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر، وإن أباه وجد الغنى الحميد عبداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له<sup>(٢)</sup>. »

٥٠٨- وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبى تيمية: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيتهما أفضل. ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد. ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى.

٥٠٩- وروى ابن أبى الدنيا: عن سعيد المقبرى، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام قال: يارب ما الشكر الذى ينبغى لك؟ قال لا يزال لسانك رطباً من ذكرى.

٥١٠- وروى سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه قال: « الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذى أطعم من الطعام، وسقى من الشراب وكسى من العرى، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً. الحمد لله رب العالمين<sup>(٣)</sup>. »

٥١١- وفى مسند الحسن بن الصلاح، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول ماشاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت<sup>(٤)</sup>. »

(١) غَرِمَ: أى ضَمِنَ.

(٢) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (٣٠٣)، وصححه ابن حبان (٥٢١٩) الإحسان، والحاكم فى المستدرک (٥٤٦/١) على شرط مسلم وأقره الذهبى.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الصغير (٥٨٨) الروض النضر، والبيهقى فى الشعب (٣٢٥/٩) وسنده ضعيف انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١٠٠/١٤٠)، الجامع الصغير للسيوطى (٤٢٩/٥).

٥١٢- ويذكر عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال: «يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم»<sup>(١)</sup> ذكره ابن أبي الدنيا.

٥١٣- وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا صالح، عن أبي عمران الجوني، عن أبي الخلد قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: «يارب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بتعمك. قال فأتاه الوحي: يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال بلى يارب، قال فإنى أرضى بذلك منك شكراً».

٥١٤- وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو موسى الأنصارى، حدثنا أبو الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان من دعاء داود: «سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء».

٥١٥- وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثني الأعمش، عن المنهال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: «أحببني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي». قال يارب هذا حبك وحب عبادتك. فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: «تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن، فجعل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقديست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره».

٥١٦- وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: وجدت في كتاب آل داود: «بعزتي إن من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله فى الهواء ثم أكله إلى نفسه. كفى بى لعبدى مالا، إذا كان عبدي فى طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبتة قبل أن يدعوني، وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه».

٥١٧- وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها. قال فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية: ﴿اعملوا آل داود

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب الشكر ص ١٢، ١٣، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩-٤٥) وابن ماجه (٣٣٥٣) وسنده ضعيف لضعف الوليد بن محمد المؤقرى انظر الميزان للذهبي (٣٦٤).

## شكراً \* وقليل من عبادى الشكور<sup>(١)</sup> :

٥١٨- قال أحمد: وحدثنا جابر بن زيد، عن المغيرة بن عيينة، قال داود: «يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك منى؟ فأوحى الله إليه: نعم الضفدع. وأنزل الله عليه «اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور»، قال: يا رب كيف أطيق شكرك، وأنت الذى تنعم عليّ، ثم ترزقنى على النعمة الشكر، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتني يا داود».

٥١٩- قال أحمد: وحدثنا عبد الربيع بن صبيح، عن الحسن، قال نبي الله داود: «إلهي لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ماوفيت حق نعمة واحدة».

٥٢٠- وذكر ابن أبى الدنيا، عن أبى عمران الجوني، عن أبى الخلد، قال: «قال موسى يا رب كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله، قال فأناه الوحي: يا موسى الآن شكرتني».

٥٢١- قال بكر بن عبد الله: ما قال عبد قط «الحمد لله» إلا وجبت عليه نعمة بقوله «الحمد لله» فجزاه تلك النعمة أن يقول «الحمد لله»، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفذ نعم الله.

٥٢٢- وقال الحسن سمع نبي الله رجلاً يقول: «الحمد لله بالإسلام»، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة».

٥٢٣- وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده من أن يقول: «الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للإسلام».

٥٢٤- وقال سليمان التيمي: إن الله سبحانه أنعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على قدرتهم.

٥٢٥- وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: «الحمد لله اللهم ربنا لك الحمد، بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا لك الحمد بالإسلام والقرآن ولك

(١) سورة سبأ: آية (١٣).

الحمد بالاهل والمال والمعافة، كَبَتْ عدونا وبسطت رزقنا، وأظهرت أمتنا وجمعت فرقتنا، وأحسنّت معافاتنا. ومن كل ماسألك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت».

٥٢٦- وقال الحسن: «قال موسى: يا رب، كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه، خلقتك بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى، علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه».

٥٢٧- وقال سعد بن مسعود الثقفي: «إنما سمى نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حمد الله».

٥٢٨- وكان على بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: «يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها».

٥٢٩- وقال مغلد بن الحسين: كان يقال: الشكر ترك المعاصي.

٥٣٠- وقال أبو حازم: كل نعمة لا تُقَرَّب من الله فهي بلية.

٥٣١- وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله.

٥٣٢- وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث، عن أبي بردة قال: قدمت المدينة، فلقيت عبد الله بن سلام فقال لي ألا تدخل بيتاً دخله النبي ﷺ ونطعمك سويفاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غداً ذكرهم<sup>(١)</sup> بما أنعم عليهم. فيقول العبد مآية ذلك؟ فيقول آية ذلك أنك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتني فكشفتها. وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبني فصحبك. قال يذكره حتى يذكر. فيقول آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم. يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فيبكي ثم قال إني لأرجو الله أن لا يقعد الله عبداً بين يديه فيعذبه.

٥٣٣- وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان عن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال:

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ص ١٨، والبيهقي في شعب الإيمان هكذا موقوفاً.

قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه: خذى حقلك من حسناته فما ترك له من حسنة إلا ذهب بها»<sup>(١)</sup>.

٥٣٤- وقال بكر بن عبد الله المزني: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه فيأتيه الشيطان فيضعف شكره، يقول إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه. قال أولا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عني.

٥٣٥- وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة بن يسار قال: «بينما داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به ذرة»<sup>(٢)</sup>، فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها وقال: ما يعجز الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك فوالذي بيده لانا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله».

٥٣٦- وقال أيوب: إن من أعظم نعم الله على عبده أن يكون مأموناً على ما جاء به النبي ﷺ.

٥٣٧- وقال سفيان الثوري: كان يقال: ليس بفقير من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

٥٣٨- وقال زاذان: مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى مصيبة.

قال ابن أبي الدنيا أنشدني محمود الوراق:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة	على له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضل	وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها	وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة	تضيّق بها الأوهام والبر والبحر

٥٣٩- وقد روى الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد المقبري، عن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ص ١٩.

(٢) الذر: صغار النمل.

أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إن المؤمن عندي بمنزلة كل خير. يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه»<sup>(١)</sup>.

٥٤٠- ومرو محمد بن المنكدر بشاب يغامر امرأة فقال: يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك.

٥٤١- وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية إنى لأرجو أن لا يهلك عبد الله اثنتين: نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه.

٥٤٢- وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقعة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال. وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن فى النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق.

٥٤٣- ومرو الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويكفى، قيل له ما ييكىك؟ قال ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذى أبكاني.

٥٤٤- وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فليتنظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوق»<sup>(٢)</sup>. قال عبد الله بن المبارك: أخبرنى يحيى بن عبد الله، قال: سمعت أبى قال: سمعت أبى هريرة فذكره.

٥٤٥- وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم، عن الحسن قال: قال أبو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه.

٥٤٦- قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس رضى الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام، فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال: هذا الذى أردت منك.

(١) أخرجه أحمد (٣٤١/٢)، والبيهقى فى الشعب (٤١٣/٨) والبخارى (٣٧١/١) كشف الاستار.  
(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٥٠٢)، وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (ص ٤٣) قلت: وله شاهد فى صحيح مسلم (٢٩٦٣) عن أبى هريرة أيضاً بلفظ «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم... الحديث».



٥٤٧- قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود، عن علقمة بن مرثد، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لعلنا نلتقى فى اليوم مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل.

٥٤٨- وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾<sup>(١)</sup> قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.

٥٤٩- وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد: أصبحتم زهراً وأصبح الناس غبراً، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس يتنجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون، فبكى وأبكاهم.

٥٥٠- وقال عبد الله بن قُوط الأزدي - وكان من الصحابة - على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يالها من نعمة ما أشبعها. ومن كرامة ما أظهرها، مازال عن قوم شيئاً أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمُنعم.

٥٥١- وقال سلمان الفارسي رضى الله عنه أن رجلاً بسط له من الدنيا فانتزع ما فى يديه فجعل يحمد الله ويثنى عليه حتى لم يكن له فراش إلا باري<sup>(٢)</sup>. قال: فجعل يحمد الله ويثنى عليه، وبسط لآخر من الدنيا، فقال لصاحب الباري: أرايتك أنت على ما تحمد الله؟ قال أحمدته على ماله أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال أرايتك بصرك، أرايتك لسانك، أرايتك يديك، أرايتك رجلك.

٥٥٢- وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك يبيعك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة.

٥٥٣- وكان أبو الدرداء يقول الصحة الملك.

٥٥٤- وقال جعفر بن محمد رضى الله عنه: فقد أبى بغلة له فقال: إن ردها الله لأحمدنه بمحامد يرضاهما فما لبث أن أتى بسرجها ولجامها، فركبها فلما استوى عليها

(٢) الباري: أى الحصى، وهو فارس معرب.

(١) سورة لقمان: الآية (٢٠).

وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك ، فقال هل تركت وأبقيت شيئاً جعلت الحمد كله لله .

٥٥٥- وروى ابن أبي الدنيا، من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبيه عن جده قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار وقال: «إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على في ذلك شكراً»، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: «إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على في ذلك شكراً؟»، قال: «قد فعلت؛ اللهم لك الحمد شكراً ولك المن فضلاً»<sup>(١)</sup>.

٥٥٦- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقيني فيدعو لي بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾<sup>(٢)</sup>.

٥٥٧- وقال علي بن الجعد: حدثنا عبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون، حدثني من أصدقه: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها. والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها كريم.

٥٥٨- وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: «الحمد لله» إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ. قال ابن أبي الدنيا وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، ثم قال: وقال بعض أهل العلم إنما تفسر هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمد عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره، فكان الحمد له أفضل.

٥٥٩- قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة، فإن قوله الحمد لله نعمة من نعم الله، والنعمة التي حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجل من

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٤/١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٥/٨) بإسناد فيه ضعف انظر مجمع الزوائد (١٨٥/٤).

(٢) سورة مريم: آية (٩٦).

بعض، فتعومة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم. وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله وفعل العبد هو مفعول الله. ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

٥٦٠- وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا، فإن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه.

٥٦١- وقال ابن أبي الدنيا بلغنى عن بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا كما يحمد على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله، والحساب يأتى عليه، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

٥٦٢- وحدث عن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا فى كذا وكذا، أنعم الله علينا فى كذا، فعل بنا كذا.

٥٦٣- وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان فى قوله: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»<sup>(١)</sup>، قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة، وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين، وقال يونس فى تفسيرها إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجاً. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها، إنى رأيت أعطاه أقواماً فهلكوا، وكل نعمة لا تُقَرَّب من الله فهى بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمة وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث عن هِشَل<sup>(٢)</sup>، عن الأوزاعى، أنه وعظهم فقال فى موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله الموقدة التى تتطلع

(١) الأعراف: ١٨٢.

(٢) هِشَل بن زياد السُكسكى، ثقة من التاسعة، كان كاتب الأوزاعى توفى سنة ٢٧٩ أو بعدها انظر التقريب لابن حجر ٣٢١/٢.

على الأفئدة فإنكم فى دار، الثوى فيها قليل، وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فقطعوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكراهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً<sup>(١)</sup>. كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بيانا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم فى دارهم جائنين، وأصبح الباقون ينظرون فى آثارهم نعمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق منه إلا حماة<sup>(٢)</sup> شر، وصبابة<sup>(٣)</sup> كدر، وأهاويل عبر وعقوبات غير وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذالة خلف، بهم ظهر الفساد فى البر والبحر. ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل وتبلغ بطول الأمانى، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى نذره، وعقل مسراه<sup>(٤)</sup> فمهده لنفسه.

وكان يقال الشكر ترك المعصية.

٥٦٥- وقال ابن المبارك: قال سفيان ليس بفقير من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

٥٦٦- وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال: بنعمة ربى وصلت إليه لا بما قدمت يدى ولا بإرادتى إني كنت خاطئاً:

وكم من مدخل لو مت فيه	لكنك فيه نكالا فى العشيرة
وقيت السوء والمكروه فيه	وظفرت بنعمة منه كبيرة
وكم من نعمة لله تمسى	وتصبح فى العيان وفى السريرة

٥٦٧- ودعى عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى قوم على ربيعة فانطلق ليأخذهم ففرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكراً لله أن لا يكون جرى على يديه خزى مسلم.

٥٦٨- قال يزيد بن هارون: أخبرنا أصبغ ابن يزيد أن نوحاً عليه السلام كان إذا

(١) الركز: الصوت الخفى.

(٢) حماة شر: أى شدة شر.

(٣) الصبابة: البقية من الماء فى الإناء.

(٤) أى طريقته.

خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأذهب عني أذاه فسمى عبداً شكوراً.

٥٦٩- وقال ابن أبي الدنيا: حدثني العباس بن جعفر عن الحارث بن شبيل، قال: حدثتنا أم النعمان: أن عائشة حدثتها عن النبي ﷺ: «أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله».

٥٧٠- وقال وجل لأبي حنوم: مدشكر للمعنيين يا أبا حازم؟ قل: إن رأيت بهما خيراً أعلنته وإن رأيت بهما شراً سترته، قال فما شكر الأذنين قال إن سمعت بهما خيراً وعيته وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال فما شكر اليدين؟ قال لا تأخذ بهما مالميس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال فما شكر البطن؟ قال أن يكون أسفله طعاماً وأعلى علماً، قال فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾<sup>(١)</sup>، قال فما شكر الرجلين؟ قال إن علمت ميتاً تغيظه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

٥٧١- وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقتان<sup>(٢)</sup> جالس على التراب، قال جعفر فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان. التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأنني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى ضمرة. فقال له جعفر «ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق، قال إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما أحدث الله لهم من نعمة، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع»<sup>(٣)</sup>.

(١) المؤمنون: ٧٥.

(٢) أى ثياب بالية.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد ص (٥٣) (رواية نعيم بن حماد).

٥٧٢- وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان به عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه.

٥٧٣- وقال عبد الملك بن إسحاق: مامن الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

٥٧٤- وقال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها.

٥٧٥- وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يسره خَرَّ لِلَّهِ ساجداً شكراً له عز وجل. ذكره أحمد<sup>(١)</sup>.

٥٧٦- وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: خرج علينا النبي ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً، فأطال السجود، فقلت: يا رسول الله، سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكراً»<sup>(٢)</sup>. ذكره أحمد.

٥٧٧- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزور نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجداً فمكث طويلاً ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجداً - فعلة ثلاثاً - وقال: «إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً لشكراً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي»<sup>(٣)</sup>. رواه أبو داود.

٥٧٨- وذكر محمد بن إسحاق في كتاب الفتوح قال: لما جاء المبشر يوم بدر يقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له فخر رسول الله ﷺ ساجداً.

٥٧٩- وذكر سعيد بن منصور أن أبي بكر الصديق رضي الله عنه سجد حين جاءه

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجه (١٣٩٤) عن أبي بكر، وقال الترمذي حسن غريب.

(٢) سنن أبي داود (٢٧٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٩١/١).

قتل مسيلمة.

٥٨٠- وذكر أحمد: أن علياً رضى الله عنه سجد حين وجد ذا النُدَيَّة في الخوارج.

٥٨١- وسجد كعب بن مالك في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه، والقصة في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

٥٨٢- فإن قيل فنعم الله دائماً مستمرة على العبد فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم؟

قيل الجواب من وجوه:

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

الثانى: أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكراً له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع فى النفوس، والقلوب بها أعلق، ولهذا يهنى بها ويعزى بفقدائها.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديراً بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة، وعادت استدراجاً وقد تقدم أمر التجاشى، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعاً، وقال العلاء بن المغيرة: بشرت الحسن بموت الحجاج وهو مختفٍ، فخر لله ساجداً.

### [فصل]

٥٨٣- ومن دقيق نعم الله على العبد التى لا يكاد يظن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرفه نعمته عليه. وقال سلام بن أبى مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن فقلت له اذكر

(١) البخارى (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم. قال ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه: اذكرى المطروحين فى الطريق، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

٥٨٤- وقال عبد الله بن أبى نوح: قال لى رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب؟ قلت ما أحصى ذلك كثرة، قال فهل قصدت إليه فى أمر كريك فخذلك! قلت: لا والله. ولكنه أحسن إلى وأعاننى، قال فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعنى شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطانى ولا استعنت به إلا أعاننى. قال أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء، قال فريك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكراً.

٥٨٥- وقال سفيان الثورى: ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه.

٥٨٦- وقال ابن أبى الحواري: قلت لأبى معاوية: ما أعظم النعمة علينا فى التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا إياه! قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها ويستعمل بعمل إلا قبله.

٥٨٧- وقال ابن أبى الحواري قالت لى امرأة: أنا فى بيتى قد شُغل قلبى، قلت وما هو؟ قالت أريد أن أعرف نعم الله على فى طرفة عين، أو أعرف يقصيرى عن شكر النعمة على فى طرفة عين قلت تريدن مالا تهتدى إليه عقولنا.

٥٨٨- وقال ابن زيد: إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم، قال وفى بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى أنه قال: سرُّوا عبدي المؤمن، فكان لا يأتیه شيء إلا قال الحمد لله ما شاء الله قال روعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال الحمد لله، الحمد لله فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدي يحمدنى حين روعته كما يحمدنى حين سررته، أدخلوا عبدي دار عزى كما يحمدنى على كل حالته.

٥٨٩- وقال وهب: عبد الله عابد خمسين عاماً فأوحى الله إليه إني قد غفرت لك،



قال: أى رب وما تغفر لى ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام، ثم أناه ملك فشكا إليه فقال ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

٥٩٠- وذكر ابن أبى الدنيا أن داود قال يارب أخبرنى ما أدنى نعمك على فأوحى الله إليه ياداود تنفس فتتنفس قال هذا أدنى نعمى عليك.

### [فصل]

٥٩١- وبهذا يتبين معنى الحديث، الذى رواه أبو داود، من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم»<sup>(١)</sup>.

والحديث الذى فى الصحيح: «لن ينجى أحداً منكم عمله». قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل»<sup>(٢)</sup>، فإن أعمال العبد لا توافى نعمة من نعم الله عليه.

٥٩٢- أما قول بعض الفقهاء: أن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر عيية أن يقول: «الحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافى مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة وإنما هو إسرائيلي عن آدم، وأصح منه: «الحمد لله غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»<sup>(٣)</sup>، ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافى نعمة من نعم الله فضلاً عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئاً للمزيد، ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أن الذى يستحق الله سبحانه من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم يقدر العبد أن يأتى به كما إذا قال: «الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر، وعدد أنفاس الخلائق وعدد ما خلق الله وما هو خالق»؛ فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد.

(١) سنن أبى داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) وابن حبان (٧٢٧) موقوفاً عن أبى بن كعب، وزيد بن ثابت وابن مسعود، وعن زيد بن ثابت مرفوعاً أيضاً.

(٢) أخرجه البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) عن أبى هريرة.

(٣) أخرجه البخارى (٥٤٥٨) عن أبى أمامة.

## [فصل]

٥٩٣- وقال أبو المليح قال موسى يارب ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال.

٥٩٤- وقال بكر بن عبد الله: قلت لأخ لي: أوصني، فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار؛ فإن ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار فأوسعني علماً ماشئت.

٥٩٥- وقال عبد العزيز بن أبي داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكانه رأى ما شق على منها، فقال لي أتدري ماذا لله على في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حذقتي، ولا طرف لساني، ولا على طرف ذكرتي، فهانت على قرحته.

٥٩٦- وروى الجريري، عن أبي الورد، عن اللجلاج، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: «ابن آدم هل تدري ما تمام النعمة»؟ قال: يارسول الله دعوت دعوة أرجو بها الخير، فقال: «إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة»<sup>(١)</sup>.

٥٩٧- وقال سهم بن سلمة حدث أن رجلاً إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام.

## [فصل]

٥٩٨- ويدل على فضل الشكر على الصبر، أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية، وما سأل شيئاً أحب إليه من العافية كما في المسند عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «قام أبو بكر رضى الله عنه على المنبر ثم قال: «سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية»<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث آخر: «إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئاً أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٢٧) وحسنه، وأحمد (٢٣١/٥).

(٢) مسند أحمد (٣/١)، كما رواه الترمذى (٣٥٥٨) وابن ماجه (٣٨٤٩)، وقال الترمذى حديث غريب.

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩٢) عن أبي هريرة.

٥٩٩- وقال لعنه العباس: «ياعم أكثر من الدعاء بالعافية». وفي الترمذى، قلت: يارسول الله علمنى شيئاً أسأله الله؟ قال: «سل الله العافية»، فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: علمنى شيئاً أسأله الله؟ فقال لى: «ياعباس ياعم رسول الله ﷺ سل الله العافية فى الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

٦٠٠- وقال فى دعائه يوم الطائف: «إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى»<sup>(٢)</sup>، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها فى قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»<sup>(٣)</sup>.

٦٠١- وفى حديث آخر: «سلوا الله العفو والمعافة»<sup>(٤)</sup>. وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية فى الحال والمعافة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

٦٠٢- وكان عبد الأعلى التيمى يقول: «أكثرنا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه ربّ بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهد فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة، ثم يقول بعد ذلك الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملاً لا نجزيها وإن نعمر فيها لا نبليه».

٦٠٣- ومير رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر، فقال: «لقد سألت البلاء فأسأل العافية»<sup>(٥)</sup>. وفى صحيح مسلم: أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت - أى هزل - فصار مثل الفرخ. فقال ﷺ «هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فمجله لى فى الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة

(١) أخرجه الترمذى (٣٥١٤) وقال حديث صحيح.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) عن أبى هريرة.

(٤) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (٨٨٧) عن أبى بكر رضى الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذى (٣٥٢٧) عن معاذ بن جبل وقال حديث حسن وأحمد (٢٣١/٥).

وقنا عذاب النار»<sup>(١)</sup>، فدعا الله له فشفاه.

٦٠٤- وفى الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: دعاء حفظته من رسول الله لأدعه: «اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك وأحفظ وصيتك»<sup>(٢)</sup>.

٦٠٥- وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا وأظهرت أمتنا وأحسنت معافاتنا ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً. أعطيت خيراً كثيراً وصرفت شراً كثيراً، فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد.

٦٠٦- وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة، أو عافية، أو كرامة، فى دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى؛ فإنها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت.

٦٠٧- وقال مجاهد: إذ كان ابن عمر فى سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا، ثلاثاً، اللهم صاحبنا فأفضل علينا عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثلاثاً.

٦٠٨- وذكر الإمام أحمد: أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى كن يقطاً مرتاداً لنفسك أخداً وكل خدن<sup>(٣)</sup> لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه فإنه عدو لك وهو يقسى قلبك، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد.

٦٠٩- وقال الحسن خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فذبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى، فقال آدم يارب ألا سويت بين ولدى؟ قال يا آدم إني أريد أن أشكر.

٦١٠- وفى السنن عنه عليه السلام من قال حين يصبح: «اللهم ما أصبح بى من نعمة أو

(١) مسلم (٢٦٨٨).

(٢) الترمذى (٣٨٤٠) تحفة الأحوذى، وأحمد فى المسند (٣١١/٢) وقال الترمذى حديث غريب.

(٣) الخدن: الصاحب.

بأحد من خلقك فمترك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته»<sup>(١)</sup>.

٦١١- ويذكر عن النبي ﷺ: «من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»<sup>(٢)</sup>.

٦١٢- ويذكر عنه ﷺ: أنه أوصى رجلاً بثلاث. فقال: «أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»<sup>(٣)</sup>.

٦١٣- ويذكر عنه ﷺ: أنه كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنى وسقانى وهادى وكل بلاء حسن أبلانى الحمد لله الرازق ذى القوة المتين. اللهم لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا ولا صالحاً رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين»<sup>(٤)</sup>.

٦١٤- ويذكر عنه ﷺ: أنه إذا أكل قال: «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً»<sup>(٥)</sup>.

٦١٤- وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات «الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا الله أكبر. اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك إله الصالحين ورب العالمين. الحمد لله لا إله إلا الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.

٦١٥- وقال وهب بن منبه: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التى لا تتم نعمه إلا بها والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به.

٦١٦- وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول: «أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣)، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٧) وابن حبان (٦٨١) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٦٣/٧) والبيهقى فى الشعب (٣٧١/٨) وضعفه.

(٣) المطالب العالى (١٤٠/٣) وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (ص ٧٦) وفيه راو لم يسم.

(٤) أخرج طرفة الأول مسلم (٢٧١٥) والترمذى (٣٣٩٦) عن أنس، وأخرجه ابن حبان (٥٢١٩) عن أبى هريرة بلفظ قريب منه.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٥١)، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٢٨٥) عن أبى أيوب الأنصارى.

وكذا ثم قال تعداد النعم من الشكر».

٦١٧- ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان، به وضح، وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أى شىء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى!!

٦١٨- ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها»<sup>(١)</sup>.

٦١٩- وذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه: أن يختصر أتى بدانيال، فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائماً يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضاً له. فقال له: ما قلت حين دفع عنك؟ قال: قلت: «الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذى لا يخيب من رجاه والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة».

٦٢٠- ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرأة قال: «الحمد لله الذى أحسن خلقى وخلقى وزان منى ما شان من غيرى»<sup>(٢)</sup>.

٦٢١- وقال ابن سيرين: كان ابن عمر يكثر النظر فى المرأة وتكون معه فى الأسفار فقلت له ولم، قال أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه.

٦٢٢- وسئل أبو بكر بن أبى مریم ما تمام النعمة؟ قال أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً فى الجنة.

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب (٣٥٢/٨) عن جابر والحاكم فى المستدرک (٥٠٧/١) وصححه وتعقبه الذهبى فقال: عبد الرحمن بن قيس كذاب.

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (٣٩١/٨) عن جعفر بن محمد عن أبيه، والطبرانى فى الأوسط (٤٣٩/١) عن أنس. ورمز السيوطى لضعفه فى الجامع الصغير (١٦٤/٥).

٦٢٣- وقال بكر بن عبد الله: يا ابن آدم إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

٦٢٤- وقال مقاتل في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبِغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾<sup>(١)</sup>، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم المعاصي.

٦٢٥- وقال ابن شوذب<sup>(٢)</sup>: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود رضى الله عنه - إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

٦٢٦- وقال أبو سليمان الداراني: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالاً: الكرم والسخاء والحلم والرافة والرحمة والشكر والبر والصبر.

٦٢٧- وقال أبو هريرة رضى الله عنه: من رأى صاحب بلاء فقال: «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً»<sup>(٣)</sup>؛ فقد أدى شكر تلك النعمة، وقال عبد الله بن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشاكر يأخذ بحزم الحمد وأصله وفرعه، قال ينظر في نعم الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا وفيه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل في النعمة التى هي في بدنه لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق. وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بحزم الشكر وأصله وفرعه<sup>(٤)</sup>.

٦٢٨- وقال كعب «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

٦٢٩- وقال الحسن: من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس

(١) سورة لقمان آية: (٢٠).

(٢) ابن شوذب هو: عبد الله بن شوذب الخراساني، صدوق عابد من التابعين توفي سنة ١٥٦ هـ أو ١٥٧ روى له الأربعة، والبخارى في الأدب المفرد، انظر تقريب التهذيب (١/٤٢٣).

(٣) أخرجه الترمذى (٣٤٣٢) والبيهقى في الشعب (٨/٣٨٠) وقال الترمذى حديث غريب.

(٤) انظر كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (ص ٨٢) والحزم: ضبط الرجل أمره، وأخذ بالثقة، وحزم الحمد المقصود به الحمد الذى يتبنى للمؤمن وهو أن يستعمل نعم الله تعالى فيما خلقت له.

فقد قصر علمه وحضر عذابه.

٦٣٠- وقال الحسن يوماً لبكر المزني: هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: والله ما أدرى أى النعمتين أفضل على وعليكم، أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرج منّا؟ قال الحسن إنها لمن نعمه العظام.

٦٣١- وقالت عائشة رضى الله عنها «ما من عبد يشرب الماء القراح<sup>(١)</sup> فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر.

٦٣٢- قال الحسن: «يا لها من نعمة تأكل لذة وتخرج سرحاً، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانته يأتى الحب فيكتاز منه ثم يجرجر قائماً، فيقول باليتنى مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات» يا لها من نعمة<sup>(٢)</sup>.

٦٣٣- وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله مالا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندرى أيهما نشكر: أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر!

٦٣٤- وقيل للحسن هاهنا رجل لا يجالس الناس، فجاء إليه فسأله عن ذلك فقال إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة: فقال له الحسن أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه.

٦٣٥- وقال ابن المبارك سمعت علياً بن صالح يقول فى قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(٣)</sup>، قال: أى من طاعتى، والتحقيق أن الزيادة من النعم، وطاعته من أجل نعمه.

٦٣٦- وذكر ابن أبى الدنيا أن محارب بن دثار، كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً: أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد. وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد. وأنا

(١) القراح) من كل شيء أى الخالص، والمراد الماء الذى لم يخالطه شيء يطيئه.

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقى (٤٠٢/٨) وقوله يخرج سرحاً: أى سهلاً، والجُب: وعاء للماء كالزير والجرة، ويكثر أى يكثر الماء بالكور.

(٣) سورة إبراهيم: آية (٧).



الفقير الذى أغنيته فلك الحمد. وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد. وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد. وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد. وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد. وأنا المسافر الذى صاحبه فلك الحمد. وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد. وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد. وأنا المريض الذى شفّيته فلك الحمد. وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد. أنا الداعى الذى أجبت فلك الحمد. ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

٦٣٧- وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته: اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه، ثم أدار منك الحدة فجعلها بجفون مطبقة؛ وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة<sup>(١)</sup>. فتعنه عليك مورقة وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾<sup>(٢)</sup>، سبحانه من لم يجعل لحد معرفة نعمة إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً، علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

٦٣٨- وقال عبد الله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً، من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به. ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على فضله به عليه، كتبه الله صابراً شاكراً، ومن نظر فى دينه هو دونه ومن نظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاتته منه لم يكتبه الله صابراً شاكراً»<sup>(٣)</sup>. وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه: «أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة: من كان عصمة أمره لا إله إلا الله، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون وإذا أعطى شيئاً قال الحمد لله.

(٣) الحق: المحبة

(٢) سورة إبراهيم: آية (٣٤).

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب (٤٦٦/٨) عن أنس بن مالك وسنده ضعيف فيه جابر بن مرزوق الجدى انظر الميزان (٢٠٤/١)، وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (ص ٨٨) من الطريق الذى ساقه المصنف.

وإذا أذنب قال أستغفر الله<sup>(١)</sup>.

٦٣٩- وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾<sup>(٢)</sup>، قال لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه. ولم يشرب شرباً قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى أنه كان عبداً شكوراً.

٦٤٠- وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال الحمد لله، وإذا شرب قال الحمد لله، وإذا لبس قال الحمد لله، وإذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً.

٦٤١- وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته.

### [فصل]

٦٤٢- ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه اللذين هما محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه، فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمته وبالقيام بأمره؛ فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفاقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله؛ وأكثر الديانين لا يعاؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده. ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره<sup>(٣)</sup> لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرته دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (ص ٨٩).

(٢) سورة الإسراء: آية (٣).

(٣) أي يتغير وجهه غضباً لله من انتهاك حرماته.

بقرية، فقال: يارب إن فيهم فلاناً العابد الزاهد، قال: به فابدأ وأسمعنى صوته إنه لم يتمعر وجهه فى يوم قط.

### [فصل]

٦٤٣- وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً، ولو عمل أعمال الثقيلين. فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه.

٦٤٤- قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال بلغنى أن نبى الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال يارب ارحمه فإنى قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعانى حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر فى حقى عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لاتدع له حسنة يراها؛ ولا يزال مزرباً على نفسه ذاماً لها؛ وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما. والله المستعان.

\*\*\*

## الباب الحادى والعشرون

### فى الحكم بين الفريقين، والفضل بين الطائفتين

٦٤٥- فنقول: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجع منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه، ونذكر حقيقة الشكر وماهيته.

٦٤٦- وقال فى الصحاح: الشكر الثناء على المحسن بما أوكله من المعروف. يقال شكرته وشكرت له، واللام أفصح. وقوله تعالى: ﴿لَا تَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾، يحتمل أن يكون مصدرًا كالعقود وأن يكون جمعاً كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الفروع امتلأ لبناً. تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكراً فهى شُكْرَة. وشكرت الشجرة تشكر شكراً إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

٦٤٧- فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء، ويقال أيضاً دابة شكورا إذا ظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف.

٦٤٧- وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها: أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثانى: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته.

٦٤٨- وأما قول الناس فى الشكر، فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه. فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه. وقيل شكر النعمة مشاهدة المنّة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة وقيل شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلاً، وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر، ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه. وذلك التوفيق من أجل النعم عليك، تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر. أن لا ترى نفسك للنعمية أهلاً وقيل الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة. وقيل الشاكر الذى يشكر على

الموجود، والشكور الذى يشكر على المفقود. وقيل الشاكر الذى يشكر على الرِّفْد<sup>(١)</sup> والشكور الذى يشكر على الرد، وقيل الشاكر الذى يشكر على النفع، والشكور الذى يشكر على المنع. وقيل الشاكر الذى يشكر على العطاء، والشكور الذى يشكر على البلاء.

٦٤٩- وقال الجنيد: كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين. وبينما جماعة يتكلمون فى الشكر، فقال لى يا غلام ما الشكر؟ فقلت: أن لا تعصى الله بنعمه. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك. فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى.

٦٥٠- وقال الشبلبي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم، وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم.

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

٦٥١- وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى.

٦٥٢- وحبس السلطان رجلاً فأرسل إليه صاحبه أشكر الله فضرب فأرسل إليه اشكر الله، فجئى بمحبوس مجوسى مبطون. فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى الرجل المذكور. فكان المجوسى يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ. فكتب إليه صاحبه اشكر الله. فقال له: إلى متى تقول اشكر الله وأى بلاء فوق هذا؟ فقال: ولو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله.

٦٥٣- ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: «اللص دخل دارى وأخذ متاعى. فقال اشكر الله فلو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟».

٦٥٤- وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه.

٦٥٥- وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر.

---

(١) الرِّفْد: العطاء والصلّة.

٦٥٦- وقيل: أربعة لا ثمرة لهم: مشاورة الأصم ووضع النعمة عند من لا يشكرها.  
والبذر في السباخ، والسراج في الشمس.

٦٥٧- والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان  
للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه. وقال  
الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

٦٥٨- والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال. وسبب الحمد أعم من  
سبب الشكر: ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى  
عليه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على  
نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ويحمد  
بالقلب واللسان.

### [فصل]

٦٥٩- إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن  
وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر  
منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل  
بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل ذلك. فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين  
الشكر، وإذا كان الصبر مأموراً به فأداؤه هو الشكر.

٦٦٠- فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وإنهما إسمان لمسمى واحد  
وهذا محال عقلاً ولغة وعرفاً، وقد فرق الله سبحانه بينهما.

٦٦١- قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما  
في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً، وإذا تجرد  
الشكر عن الصبر بطل كونه صبراً. أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر  
كان كفوراً، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو أن لا يكون كفوراً ولا شكوراً. بل صابراً على  
مضض وكراهة شديدة فلم يأت بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة، لافي الصبر الذي هو تجلّد كصبر البهائم، وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكراً، ولكن إندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر. كما إندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر. فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها، بل تدرج وينطوي الأدنى في الأعلى، كما يندرج الإيمان في الإحسان. وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا لا أن الصبر يزول ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب لا أنهما يزولان: فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر سواء كان محبوباً أو مكروهاً. فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عُدَّ نعمة يشكر عليها. ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عُدَّ بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعد ذلك كله ابتلاء فقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾<sup>(١)</sup>. وقال ﴿فَإِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبِّي فَأُكْرِمِهِ وَنِعْمَةً فِيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَلَمْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٤)</sup>، وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٥)</sup>، فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة، وتأتى الأسباب أعظم الابتلائين. والصبر على طاعة الله أشق الصبرين. كما قال الصحابة رضى الله عنهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر، والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضعافها.

فالرب تعالى يتلى بنعمه وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان

(٢) سورة الفجر: آية (١٦-١٥).

(٤) سورة الملك: آية (٢).

(١) سورة الأنبياء: آية (٣٥).

(٣) سورة القصص: آية (٧).

(٥) سورة هود: آية (٧).

للعبد في امر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغنى عنهما طرفة عين.

٦٦٢- والسؤال عن أيهما أفضل، كالسؤال عن الحسن والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالأمور لا يؤدي إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدر الذي يقدر على العبد من المصائب، فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره، كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

٦٦٣- ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنياً كان أو فقيراً، معافى أو مبتلى.

وهذه هي مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل والناس فيها ثلاثة أقوال وهي التي حكاهما أبو الفرج ابن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل، وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

٦٦٤- والتحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استوائهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وقد قال ﷺ: «لأفضل لعربي على عجمي ولا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى. الناس من آدم وآدم من تراب»<sup>(٢)</sup>.

والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر. وكل من الغنى والفقير لا بد له منهما، فمن كان يهينه وشكره أتم كان أفضل.

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل؟

جواب: أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله. ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة فإن الغنى قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره. وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغنى في شكره: فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل.

(١) سورة الحجرات: آية (١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤١١/٥) عن أبي نضرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وقال الهيثمي في المجمع (٨٤/٨) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي بنحوه عن أبي سعيد الخدري... ورجال البيهقي رجال الصحيح.



ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ولا بالعكس لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما. بل الواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل. فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين. كما قال تعالى في الأثر الإلهي: «ما تقرب إلى عبدي بمثل مداومة ما فرضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»<sup>(١)</sup> فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

٦٦٥- فإن قيل: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام»<sup>(٢)</sup>.

قيل: هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول. فقد يتأخر الغنى السلطان العادل في الدخول لحسابه. فإذا دخل كانت درجته أعلى، ومنزلته أرفع، كسبق الفقير القفل<sup>(٣)</sup> في المضائق وغيرها. ويتأخر صاحب الاحمال بعده.

٦٦٦- فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه أدركتم من سبقكم»، فدليلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»<sup>(٤)</sup>. وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر. قيل هذا حجة للقول الذي نصرناه، وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل، فإن استويا استويا، وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء في أعمالهم المفروضة بالنافلة، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك فساووهم في صبرهم على الجهاد والأذى في الله والصبر على المقدور. وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال، فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

٦٦٧- فإن قيل: إن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها، وقال: «بل أشبع يوماً وأجوع يوماً»<sup>(٥)</sup>. وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنهما

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤) وابن ماجه (٤١٢٢) وأحمد (٤٥١/٢) عن أبي هريرة، وقال الترمذي حسن صحيح.

(٣) القفل، والقفل بمعنى الرجوع من السفر، وقفل القوم يقفلون، والقفل اسم للجميع.

(٤) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) عن أبي هريرة.

(٥) تقدم تخريجه.

قالت: «خبر رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز البر، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لاهله»<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن عباد بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محممة، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت على امرأة من الأنصار، فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟»، فقلت فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت إلى بهذا، فقال: «رديه»، فلم أرده وأعجبني أن يكون فى بيتي حتى قال لى ذلك ثلاث مرات. فقال: «يا عائشة رديه فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة»<sup>(٣)</sup>، فرددته. ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

٦٦٨- قيل: احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين. والحق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين كليهما على أتم الوجوه. وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين. فحصل له الصبر على الفقر مالم يحصل لأحد سواه. ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه. فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك؛ فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين. وفى أعلى مراتب الفقراء الذين قال تعالى: «ووجدك عائلاً فأغنى»<sup>(٤)</sup>، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل لبن وأتمر

(١) أخرج البخارى (٦٤٥٤) ومسلم (٢٩٧٠) عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض وأخرج أيضاً البخارى (٢٩١٦) عن عائشة أن رسول الله توفى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من شعير.

(٢) مسند أحمد (٤٤٦/٢)، وأخرجه أيضاً البخارى (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) عن أبي هريرة أيضاً.

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص ١٤). (٤) سورة الضحى: آية (٨).

وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وهال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى  
ألا لا تعولوا﴾<sup>(١)</sup>. وقيل المعنى ألا تكثروا عيالكم والقول هو الأول لوجوه:

أحدها: أنه لا يعرف في اللغة عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف في ذلك عال  
يعيل. وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا. هذا الذي ذكره أهل اللغة قاطبة.

الثاني: أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذي نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الوحدة  
والتسرى بما شاءوا من ملك أيماهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

يوضحه الوجه الثالث: أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح  
اليتامى إلى من سواهم من النساء لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى، وجوز لهم  
نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة  
إلى الواحدة، أو النوع الذي لا قسمة عليهم في الاستمتاع بهن، وهن الإماء فانتظمت  
الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف  
العدل فما لكثرة العيال مدخل هاهنا البتة.

يوضحه الوجه الرابع: أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاءوا من  
كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق  
فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه الوجه الخامس: أن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للرب تعالى؛  
كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء، وقد قال النبي ﷺ: «تزوجوا الولود الولود فإنني  
مكاثركم الأمم»<sup>(٢)</sup>، فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.  
والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنياً شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً. فلا تحتج به  
طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضاً لحالها.

٦٦٩- فإن قيل: فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الشاكرين، وقد  
قال الإمام أحمد في مستدركه حدثنا عمارة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال: بينما  
عائشة في بيتها سمعت صوتاً في المدينة فقالت ما هذا؟ فقالوا غير لعبد الرحمن قدمت

(١) سورة النساء: آية (٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٦٦٠٦/٦)، وابن حبان (٤٠٥٧) عن معقل بن يسار، ومن حديث  
أنس أخرجه أحمد (١٥٨/٣)، وابن حبان (٤٠٢٨) الإحسان.

من الشام تحمل من كل شيء، قال: وقد كانت سبعمائة بعير، فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة جواً »<sup>(١)</sup> فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلها قائماً، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها في سبيل الله.

٦٧٠- قيل: قد قال الإمام أحمد: هذا الحديث كذب منكر. قالوا وعمارة يروى أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازي: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

قال أبو الفرج: وقد روى الجراح بن منهال بإسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال له: « يا ابن عوف إنك من الأغنياء وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً فأقرض ربك يطلق قدميك »<sup>(٢)</sup>، قال أبو عبد الرحمن النسائي: هذا حديث موضوع والجراح متروك الحديث، وقال يحيى ليس حديث الجراح بشيء، وقال ابن المديني لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان كان يكذب، وقال الدارقطني متروك.

٦٧١- فان قيل: فما تصنعون بالحديث الذي رواه البيهقي من حديث أحمد بن علي بن إسماعيل بن محمد: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أخبرني خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن عطاء بن أبي رباح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يا ابن عوف إنك من الأغنياء وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً فأقرض ربك يطلق قدميك »، قال: وما الذي أقرض يا رسول الله؟ قال: «تتبرأ مما أمسيت فيه». قال أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: «نعم». فخرج وهو يهتم بذلك، فأتاه جبريل فقال: «مر ابن عوف فليضيف الضيف، وليطعم المساكين وليبدأ بمن يعول وليعط السائل فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه»<sup>(٣)</sup>.

٦٧٢- قيل هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ فان أحد رواه خالد بن يزيد بن أبي مالك. قال الإمام أحمد ليس بشيء، وقال ابن معين واه. وقال النسائي

(١) مسند أحمد (١١٥/٦) والطبراني في الكبير (١٢٩/١) وهو حديث موضوع ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٣/٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣١١/٣) وقال صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي فقال: خالد ضعفه جماعة، وقال النسائي ليس بثقة، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٥١٢/٦) والكامل في الضعفاء (٨٨٤/٣)، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١٣/٢).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٥١٢/٦)، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل (٨٨٤/٣).

غير ثقة، وقال الدارقطني ضعيف، وقال يحيى بن معين لم يرضى أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة<sup>(١)</sup>.

٦٧٣- فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطروح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت خشقة<sup>(٢)</sup> بين يدي. قلت ما هذا؟ قال بلال. فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين. ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء: قيل لى أما الأغنياء فهم فى الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فآلهاهن الأحمران: الذهب والحرير. ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها، ثم أتى بأبى بكر فوضع فى كفه، وجئى بجميع أمتى فوضعوا فى كفة فرجح أبو بكر، ثم أتى بعمر فوضع فى كفه ووضعت أمتى فى كفة، فرجح عمر، وعرضت على أمتى رجلاً فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف، ثم جاء بعد الإياس فقلت عبد الرحمن، فقال بأبى وأمى يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إنى لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت وماذا؟ قال من كثرة مالى أحاسب فأمحص<sup>(٣)</sup>.

٦٧٤- قيل هذا حديث لا يحتج بإسناده وقد أدخله أبو الفرج هو والذي قبله فى كتاب «الموضوعات». وقال: أما عبيد الله بن زحر فقال يحيى: ليس بشيء، وعلى بن يزيد متروك، وقال ابن حبان: عبيد الله يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

٦٧٥- قال أبو الفرج وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير، ويقولون إذا كان ابن عوف يدخل الجنة رجعاً لأجل ماله، كفى ذلك فى ذم المال. والحديث لا يصح وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنع ماله من السبق، لأن جمع المال مباح وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع

(١) انظر الميزان للذهبي (١/٦٤٥)، والكامل لابن عدى (٣/٨٨٤).

(٢) الخشقة: الحركة والصوت. (٣) مسند أحمد (٥/٢٥٩).

الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن منزّه عن الحالين، وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب، وخلف الزبير وغيره، ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل. وكم قاص<sup>(١)</sup> يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى، فله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول. (٢) أ هـ.

٦٧٦- قلت: وقد بالغ في رد هذا الحديث وتجاوز الحد في إدخاله في الأحاديث الموضوعية المختلفة على رسول الله ﷺ وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها. ودخول الجنة جبراً ورأى ذلك مناقضاً لسبقه ومنزلته التي أعدها الله له في الجنة. وهذا وهم منه رحمه الله.

٦٧٧- وهذا أنه وجد السبيل إلى الطعن في هذين الخبرين أتيجد سبيلاً إلى القدح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي حديث ابن عمرو الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً» (٣).

وفي مسند الإمام أحمد، عنه، عن النبي ﷺ: «هل يدرون أول من يدخل الجنة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء» (٤).

وفي جامع الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً» (٥).

٦٧٨- فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم، وهم في السبق متفاوتون فمنهم من سبق خمسمائة عام، ومنهم من سبق بأربعين عاماً، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول فإنهم قد يكونون أرفع

(١) قاص: أي صاحب قصص ومواعظ. (٢) الموضوعات (١٣/٢-١٤).

(٣) مسلم (٢٩٧٩).

(٤) مسند أحمد (١٦٨/٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٩/١٠) رجاله ثقات.

(٥) الترمذي (٢٣٥٥).

منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب، فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئاً من أمور المسلمين إلى الجنة. فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة. كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»<sup>(١)</sup>. وفي الترمذى من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر»<sup>(٢)</sup>.

فالإمام العادل والغنى، قد يتأخر دخول كل منهم للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق، ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه - غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهوداً له بالجنة.

٦٧٩- وأما حديث دخوله الجنة زحفاً فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد رحمه الله إنه كذب منكر. وكما قال النسائي إنه موضوع. ومقامات عبد الرحمن، وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضى دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفاً.

### [فصل]

٦٨٠- والله سبحانه، كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقيرهم فخلق الغنى والفقر ليتلى بهما عبادته أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب قال تعالى: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام. وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لتنظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون وقال الكلبي: بالشر: بالفقر والبلاء، والخير: بالمال والولد، فأخبر

(٢) الترمذى (١٣٢٩) وقال حسن غريب.

(١) مسلم (١٨٢٧).

(٣) سورة الأنبياء: آية (٣٥).

سبحانه أن الغنى والفقر مطيئا لابتلاء والامتحان. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ \* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ \* كَلَّا...﴾<sup>(١)</sup>. فأخبر سبحانه أنه يتلى عبده بإكرامه له، وبتنعيمة له، وبسط الرزق عليه. كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه وإن كليهما ابتلاء منه وامتحان. ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وأن تضييقه عليه إهانة منه له. فقال: كلاً: أى ليس الأمر كما يقول الإنسان بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلائى. وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتأمل وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خِلَافًا وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا أَنَا كُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٣)</sup>. فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان. كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.

٦٨١- فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن، يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معاشهم التى جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك. كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق الذى خلق به وله السموات والأرض وما بينهما وغايته الثواب والعقاب وفواته وتعطيله هو العيب الذى نزه نفسه وأخبر أنه يتعالى عنه. وأن ملكه الحق وتفرد به بالإلهية وحده وبربوية كل شئ ينفى هذا الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ \* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾<sup>(٤)</sup>؛ فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم واللغوب والحاجة وأكثرائه بحفظ السموات والأرض، وتقديم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال

(١) سورة الفجر: آية (١٧-١٥).

(٢) سورة الأنعام: آية (١٦٥).

(٣) سورة الكهف: آية (٧).

(٤) سورة المؤمنون: آية (١١٥-١١٦).



أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته. ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره: ﴿أَكْفُرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾<sup>(١)</sup>. فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً، فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين.

٦٨٢- والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به، كما فى المسند عنه ﷺ قال: «يقول الله تعالى إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من مال لا ينفى إليه ثانياً، ولو كان له ثمان لا ينفى له ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»<sup>(٣)</sup>. فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة للاستمتاع والتلذذ كما تاكل الأنعام فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى به، فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبه وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك، فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله. ولم تتكامل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان

(١) سورة الكهف: آية (٣٧).

(٢) سورة الرعد: (٥).

(٣) مسند أحمد (٥/٢١٩) عن أبى واقد الليثى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/١٤٠) رجاله رجال الصحيح. قلت: وطرفه الأخير متفق عليه.

الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده.

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة، كل ذلك إن لم ينفعه ضره، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحموده توسل بها إلى أضرارها. فأريح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده. وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسراً لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

٦٨٤- فالأقسام أربعة لا خامس لها: أحدها معطل الأسباب معرض عنها. الثانى مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها. الثالث متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده. فهؤلاء الثلاثة فى الخسران. الرابع متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابع. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْتَخِسُونَ﴾ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون<sup>(١)</sup>.

٦٨٥- وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كان له إزادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد، ثم اختلفوا فى معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب قالوا: والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس.

٦٨٦- وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه<sup>(٢)</sup> ونيته وطُلبته، جازاه الله فى الدنيا بحسناته ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حصة يجازى بها. وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ويثاب عليها فى الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية فى الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت له إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

(٢) السَّدَم: اللهج والولوع بالشئ.

(١) سورة هود: آية (١٥-١٧).

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أبى صالح عنه: نزلت فى أهل القبلة.

وقال مجاهد: هم أهل الرياء.

٦٨٧- وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا.

واختار الفراء هذا القول وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس.

٦٨٨- وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمناً، فإن العاصى والفاسق ولو بالغاً فى المعصية والفسق فأيمانهما يحملهما على أن يعمل أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته. فأمّا من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذى فهمه معاوية من الآية واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم<sup>(١)</sup> فى صحيحه فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارىء الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ. والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد. والغازى الذى قتل فى الجهاد ليقال هو جريء.

٦٨٩- وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مرء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

٦٩٠- وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى محمد بن إدريس، قال: أخبرنى عبد الحميد بن صالح، حدثنا قطن بن الحباب، عن عبد الوارث، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى؟ فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك - الدنيا، فيقول إني لم أقبل من ذلك شيئاً، إذهبوا بهم إلى النار. ويقول

(١) مسلم (١٩٠٥) عن أبى هريرة.

للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك - رياء وسمعة. فيقول إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون بعزتك وجلالك - وجهك ودارك، فيقول صدقتم اذهبوا بهم إلى الجنة<sup>(١)</sup>.

٦٩١- هذا حديث غني عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾<sup>(٢)</sup>، وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله. وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوافهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس. وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كباثر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

٦٩٢- وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

٦٩٣- ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً. قالوا فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار.

وأجابوا عنه: بأن ظاهر الآية يدل على أن من رآى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا، فإن الله يبطل إيمانه عند الموافقة، فلا يوافي ربه بالإيمان. قالوا: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

٦٩٤- وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد<sup>(٣)</sup> فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكباثر الموحدين. وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ١٨٠) وسنده ضعيف لضعف عبد الوارث انظر الميزان (٢/ ٦٧٨).

(٣) أي لا إله إلا الله.

(٢) سورة هود: آية (١٥).

٦٩٥- والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزيتها وهو النار. وأخير بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينتجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزيتها بل أراد الله به والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار. وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

٦٩٦- والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار. وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه. وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائى شيء منه وإلا كان من أهل الخلود.

٦٩٧- فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق. وذلك قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾<sup>(٢)</sup>.

٦٩٨- فهذه ثلاث مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب. ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له.

٦٩٩- بقى أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق ؟.

قيل: من ها هنا نشأ الإشكال وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر فإنه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجهيهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿منكم

(١) سورة الشورى: آية (٢٠).

(٢) سورة الإسراء: آية (١٨-١٩).

من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة<sup>(١)</sup>. وهذا خطاب الذين شهدوا معه الواقعة ولم يكن فيهم متافق. ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا، حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية: والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أدخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه وهم من خيار المسلمين. ولكن ههنا إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

٧٠٠- وما هنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجتمع الإيمان أبداً وإن جامع الإقرار والعلم بالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإدارة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجتمع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة. والله المستعان.

### [فصل]

٧٠١- والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاءً وامتحاناً للشكر والصبر. والصدق والكذب والإخلاص والشرك، قال تعالى: ﴿لِيَلْوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ \* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين<sup>(٣)</sup>. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَاكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

٧٠٢- فجعل الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب،

(١) سورة آل عمران: آية (١٥٣).

(٢) سورة المائدة: آية (٤٨).

(٣) سورة العنكبوت: آية (٣-١).

(٤) سورة التغابن: آية (١٥).

وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المثاب<sup>(١)</sup>. فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثرها على الآخرة وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، البنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه. والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم وحصولهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكتهم وأدويتهم وغير ذلك.

٧٠٣- ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤْتِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(٢)</sup>.

٧٠٤- ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الصابرين والصادقين والقانتين والمتقين والمستغفرين بالأسحار<sup>(٣)</sup>.

٧٠٥- فأخبر سبحانه أن ما أعد لأولياته المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حِطَامًا﴾<sup>(٤)</sup>، فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولى البصائر، وإنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضیعة للوقت، يقطع بها

(٢) سورة آل عمران: آية (١٥).

(٤) سورة الحديد: آية (٢٠).

(١) سورة آل عمران: آية (١٤).

(٣) سورة آل عمران: آية (١٦، ١٧).

الجاهلون العر فيذهب ضائعاً في غير شيء. ثم أخبر أنها زينة زينب للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لا بغضتها ولا أثرت عليها الآخرة ولما أثرتها على الأجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

٧٠٦- قال الإمام حدثنا وكيع حدثنا السعدي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال<sup>(١)</sup> في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»<sup>(٢)</sup>.

٧٠٧- وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»<sup>(٣)</sup>. قال الترمذي: حديث صحيح.

٧٠٨- وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع - وأشار بالسبابة»<sup>(٤)</sup>.

٧٠٩- وفي الترمذي من حديثه قال: «كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة»<sup>(٥)</sup> الميتة. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها»، قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: «فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»<sup>(٦)</sup>.

٧١٠- وفي الترمذي أيضاً: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً»<sup>(٧)</sup>. والحدِيثان حسنان.

٧١١- قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة، أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبد الله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم إن

(١) (قال) يقبل قبلاً من القبولة وهو النوم عند الظهر.

(٢) مستند أحمد (١/٣٩١)، وأخرجه أيضاً في الزهد (ص١٣).

(٣) الترمذي (٢٣٢٠). (٤) مسلم (٢٨٥٨).

(٥) السخلة: الذكر والإنثى من ولد الضأن والمغرح حين يولد.

(٦) الترمذي (٢٣٢١). (٧) الترمذي (٢٣٢٢).



حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بحق أقول لكم إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، أنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله<sup>(١)</sup>.

٧١٢- وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحق: قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الخواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً؟ قالوا يا روح الله ومن يقدر على ذلك، قال إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً.<sup>(٢)</sup>

٧١٣- وفي كتاب الزهد لأحمد بن حنبل عن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: بحق أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوماً على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس<sup>(٣)</sup>.

٧١٤- وفي المسند عنه عليه السلام: «إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قرّحه وملّحه فليُنظر إلى ماذا يصير»<sup>(٤)</sup>.

### [فصل]

٧١٥- ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضها بعضاً بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد.

٧١٦- والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشئ ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمي أنفه له. يقال نفست عليه الشئ أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشئ النفيس.

(٢) المرجع السابق (ص ٥٨).

(١) الزهد للإمام أحمد (٩٤).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) مسند أحمد (١٣٦/٥) عن أبي بن كعب، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٨/١٠) رجاله رجال الصحيح إلا عتي وقد وثق، وقوله قرّحه: القَرَح ما يوضع في القدر من الكمون والكزبرة ونحو ذلك.

### [فصل]

٧١٧- ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد فيجب كل واحد أن يكاثر بنى جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالا وولداً، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾\* ثم كلاً سوف تعلمون<sup>(١)</sup>. والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثراً وتفاخراً، هذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه يستعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

### [فصل]

٧١٨- ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم بإسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله: ﴿يَعْجَبُ الزَّارِعُ﴾\*<sup>(٢)</sup>، وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا فانها دارهم التي لها يعملون ويكدحون فهم أشد إعجاباً بزيتها وما فيها من المؤمنين.

٧١٩- ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه. وهذا آخر الدنيا ومصيرها. ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة، انقاست الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه كما قال علي بن أبي طالب: «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نوح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيتها ونعت نفسها وأهلها فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدوها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا؛ فيا أيها الدام للدنيا المغتر

(١) سورة التكاثر: آية (٤-١).

(٢) سورة الفتح: آية (٢٩).

بتغيرها متى استذمت إليك! بل متى غرتك! أبتنازل آباتك فى الثرى؟ أم بمضاجع أمهاتك فى البلا؟ كم رأيت موروئاً؟ كم علّلت بكفيك عليلأ، كم مرّضت مريضاً بيديك تبتغى له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طُلبتلك! مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر فقال يا أهل الغربة ويا أهل التربة أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت فهذا خير ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم، ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى».

٧٢٠- فالدنيا فى الحقيقة لا تدم وإنما يتوجه الدم إلى فعل العبد فيها، وهى قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصارها هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على إسمها، صار لها إسم الدم عند الإطلاق، وإلا فهى مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبه وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعه فيها. وكفى بها مدحاً وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، والنعيم الذى لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبه وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده.

٧٢١- ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة. وقالوا هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم، قالوا والإيمان والطاعة أفضل من جزائه.

٧٢٢- والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين فى دارين مختلفين ولو أمكن اجتماعهما فى دار واحدة لا يمكن طلب التفضيل: والإيمان والطاعة فى هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما فى الآخرة. فهذا أفضل ما فى هذه الدار، وهذا أفضل ما فى الدار الأخرى. ولا يصح أن يقال، فأى الأمرين أفضل، فهذا أفضل الأسباب وهذا أفضل الغايات وبالله التوفيق.

## [فصل]

٧٢٣- ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها فى الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب. أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثره على الفانى المنقطع المشوب بالإنكاد والتنجيس.

٧٢٤- ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وقال تعالى: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً﴾<sup>(١)</sup>.

٧٢٥- ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين رينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات، وهى الأعمال والأقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يأمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام \* حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها \* أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾<sup>(٢)</sup>.

٧٢٦- ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

٧٢٧- وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره. وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قل ماله وولده فى الدنيا.

٧٢٨- ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ممتع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختباراً وأخبر أن رزقه الذى أعده له فى الآخرة خير وأبقى من هذا الذى متعوا به. وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم وجعل ما آتاه ما نعا من مد عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء فى الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك.

(٢) سورة يونس: آية (٢٤).

(١) سورة الكهف: آية (٤٥).

## [فصل]

٧٢٩- وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده، تمتحن بها صبره وشكره، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكل منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل، هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معاً كما تقدم بيانه، فالتميز بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر، وذلك فرض ذهني يقدره الذهن ولا يوجد في الخارج.

٧٣٠- ولكن يصح على وجه، وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذي هو قدر رائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يبقى فيه إتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل، فتتصرف قواه كلها إلى كف النفس وحسبها لله وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحسبها لله فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحسب نفسه.

٧٣١- واعتبر هذا بشخصين: أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات، قليل التشكى للمصيبات وذلك جل عمله، وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير: القاصر والمتعدي، سمح النفس ببذل المعروف. وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر.

فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به، وكما لها باجتماع هاتين القوتين فيها.

٧٣٢- والناس في ذلك أربع طبقات، فأعلاهم من اجتمعت له القوتان، وسفلتهم من عدم القوتين ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله ومنهم من هو بالعكس في ذلك فإذا فضل الشكر على، الصبر فإما أن يكون ترجيح مقام على مقام، وإما أن يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره وقام إيضاح هذا بمسألة الغنى الشاكر والفقر الصابر فلنذكر لها باباً يخصصها ويكشف عن الصواب فيها.

\*\*\*

## الباب الثاني والعشرون

### فى اختلاف الناس فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل ؟ وما هو الصواب فى ذلك ؟

٧٣٤- هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين، فإن كلا منها أدلت بحجج لا تدفع، والحق لا يعارض بعضه بعضاً، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان، وقد أكثر الناس فى المسألة من الجانبين وصنفوا فيها من الطرفين، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتين: ذكرهما أبو الحسين فى كتاب «التمام» فقال: مسألة الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر فى أصح الروايتين. وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل، وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة، ووجه الأولى واختارها أبو إسحاق بن شاقلا<sup>(١)</sup> والوالد السعيد.

قوله تعالى: «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا»<sup>(٢)</sup>.

٧٣٥- قال محمد بن على بن الحسين: الغرفة الجنة، بما صبروا قال: على الفقر فى الدنيا.

وعن أنس عن النبى ﷺ قال: «اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة». قالت عائشة ولم يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً. يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق ثمرة. يا عائشة أحبى المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

٧٣٦- قلت: لا حجة له فى واحدة من الحجتين، أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر

(١) هو إبراهيم بن أحمد بن عمر أبو إسحاق بن شاقلا البغدادي شيخ الحنابلة، كان رأساً فى الأصول والفروع مات سنة ٣٦٩هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٦/٢٩٢)، تاريخ بغداد (١٧/٦).

(٢) سورة الفرقان: آية (٧٥).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٣٥٢) عن أنس وقال حديث غريب وابن ماجه مختصراً عن أبى سعيد الخدرى (٤١٢٦) كما رواه الحاكم فى المستدرک (٤/٣٢٢) عن أبى سعيد باختصار أيضاً وصححه وأقره الذهبى.

الشاعر على طاعته وصبره عن معصيته وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه . ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر . فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> . بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها . وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا .

٧٣٧- وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين:

أحدهما: أنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث ابن النعمان<sup>(٣)</sup>، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري منكر الحديث: ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته .

الجواب الثاني: إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم؛ فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي إنكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواحد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد أتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك، ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله .

٧٣٩- قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا الجريري عن أبي السليل قال: كان داود النبي عليه السلام يدخل فينظر أغمص حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول مسكين بين ظهرائي مساكين . هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة .

٧٤٠- قال أبو الحسين: وروى أبو بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً حتى يتمنى أغنياء

(٢) سورة آل عمران: آية (١٤٤).

(١) سورة آل عمران: آية (١٤٥).

(٣) انظر الميزان للذهبي (٤٤٤/١).

المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء في الدنيا»<sup>(١)</sup>.

٧٤١- قلت هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله. وروى عن أبي سعيد وأنس بن مالك ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء. بل إنما يدل على سبق لعدم ما يحاسبون عليه، ولا ريب أن ولي الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب وكذلك الغنى الشاكر، ولا يلزم من تأخر دخولهما نزول درجتهم عن درجة الفقير كما تقدم، وإنما تمنى الأغنياء أنهم كانوا في الدنيا فقراء، فان صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم كما يتمنى القاضى العادل في بعض المواطن يوم القيامة إن لم يقضى بين اثنين في ثمرة لما يرى من شدة الأمر، فمنزلة الفقر والحمول، ومنزلة السلامة، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب.

٧٤٢- قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبي ﷺ قام في أصحابه فقال: «أى الناس خير؟» فقال بعضهم: غنى يعطى حر نفسه وماله. فقال ﷺ: «نعم الرجل هذا وليس به ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهده»<sup>(٢)</sup>.

٧٤٣- قلت: لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه، وحديث لا يعلم حاله لا يحتاج به، ولو صح لم يكن فيه دليل؛ لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهده، فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين، فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه، ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره كما قال النبي ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم». قالوا يا رسول الله كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال: «رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به. وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها»<sup>(٣)</sup>. رواه النسائي من حديث صفوان بن عيسى. حدثنا ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه.

٧٤٤- وذكر البيهقي، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي رضى الله عنه قال: جاء ثلاثة نفر إلى النبي ﷺ فقال أحدهم: كانت لى مائة أوقية

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٨٨٣) عن أبي برزة بهذا اللفظ وقال الزبيدي في شرح الإحياء (٢٢٢/٨) في سنده نفع بن الحارث وهو متروك.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢٨٩٣) وضعفه الزبيدي في شرح الإحياء (٢٧٣/٩).

(٣) سنن النسائي (٥٩/٥) ووضحه الحاكم في المستدرک (٤١٦/١) على شرط مسلم وأقره الذهبي.



فتصدقت منها بعشر أواق؛ وقال الآخر: كانت لي مائة دينار فتصدقت منها بعشرة دنانير وقال الآخر: كان لي عشرة دنانير فتصدقت منها بدینار، فقال: «كلکم فی الأجر سواء؛ کلکم قد تصدق بعشر ماله»<sup>(١)</sup>.

٧٤٥- وقال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا ابن أبي العوام، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن قال: قال رجل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون، فقال عثمان وإنكم لتغبطونا وإنا لتغبطكم، قال فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيظ من فيض.

٧٤٦- وفي سنن أبي داود من حديث الليث عن أبي الزبير عن يحيى بن جعدة عن أبي هريرة أنه قال يارسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل وأبداً بمن تعمل»<sup>(٢)</sup>.

٧٤٧- وفي المسند وصحيح ابن حبان، من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل»<sup>(٣)</sup>.

٧٤٨- وفي سنن النسائي، من حديث الأوزاعي، عن عبيد بن عمير، عن عبد الله ابن حبشي: أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة». قيل: فأى الصلاة أفضل؟ قال: «طول القيام». قيل: فأى الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل». قيل: فأى الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر ما حرم الله عليه». قيل: فأى الجهاد أفضل؟ قال: «من أهرق دمه وعقر جواده»<sup>(٤)</sup>.

٧٤٩- وهذه الأحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذي لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً، لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصورها، بل بقوة الداعي وصدق الفاعل

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٧/٧١، ٧٢)، والحاثر هو ابن عبد الله الهمداني الأعور ضعيف انظر الميزان (٤٣٥/١).

(٢) سنن أبي داود (١٦٧٧)، وصححه الحاكم (٤١٤/١) على شرط مسلم وأقره الذهبي، وابن حبان (٣٣٣٥) الإحسان.

(٣) مسند أحمد (١٧٨/٥) صحيح ابن حبان (٣٦١) الإحسان.

(٤) سنن النسائي (٥٨/٥).

وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه، فأين صدقة من أثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضاً من فيض: فرغيف هذا درهمه في الميزان أثقل من مائة ألف هذا. والله المستعان.

### [فصل]

واحتجوا بما رواه ابن عدى، من حديث سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن يزيد، عن أبيه عن عطاء سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً»<sup>(١)</sup>.

٧٥١- وهذا الحديث لا يصح، فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبى مالك الدمشقى أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه قال أحمد<sup>(٢)</sup> ليس بشيء. وقال ابن معين واه، ونسبه يحيى إلى الكذب وقد تقدم فيه.

٧٥٢- وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة فقال: قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقر الصابر أيهما أفضل؟، فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد. ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد، وحكى فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان. وأما الصحابة والتابعون رضى الله عنهم فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر. وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل فإن استويا فى ذلك إستويا فى الفضيلة.

٧٥٣- قال وهذا أصح الأقوال لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال الله تعالى: «إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا»<sup>(٣)</sup>. وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين، فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا ﷺ وحال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

٧٥٤- ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع، والغنى لآخرين أنفع كما تكون

(١) الكامل لابن عدى (٣/ ٨٨٤).

(٢) انظر الميزان للذهبي (١/ ٦٤٥) والكامل لابن عدى (٣/ ٨٨٤).

(٣) سورة النساء: آية (١٣٥).

الصحة لبعضهم أنفع، والمرض لبعضهم أنفع، كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إنى أدبر عبادى، إنى بهم خير بصير»<sup>(١)</sup>.

٧٥٥- وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء»<sup>(٢)</sup>، وفى الحديث الآخر: لما علم الفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء، فقالوا مثل ما قالوا؛ فذكر ذلك الفقراء للنبى ﷺ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»<sup>(٣)</sup>. فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لحفة الحساب عليهم؛ والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة فوقه، وإن تأخر فى الدخول كما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير<sup>(٤)</sup> حساب ومنهم عكاشة بن محصن، قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم فى الدرجات. لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب فهذا فى الفقر المذكور فى الكتاب والسنة وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة.

٧٥٦- ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وإن كان ذا مال، ومن لم يتصف بذلك قالوا ليس بفقير وإن لم يكن له مال. وقد يسمى هذا المعنى تصوفاً، ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى، ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل.

٧٥٧- والتحقيق فى هذا الباب أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة، بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعانى، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، والأغنياء بما سوى ذلك. والله أعلم.

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣١٨/٨) والأصبهاني فى الترغيب (١١٢/١) وهو ضعيف أورده ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣١/١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٥٩٥) عن أبى هريرة.

(٤) أخرجه البخارى (٦٥٤١) عن ابن عباس ومسلم (٢١٦) عن أبى هريرة.

### الباب الثالث والعشرون

#### فى ذكر ما احتجت به الفقراء

#### من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

٧٥٨- قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه النى والمال فى القرآن إلا على أحد

وجوه:

٧٥٩- الأول: على وجه الذم كقوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه

استغنى﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾<sup>(٥)</sup>.

وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة﴾<sup>(٦)</sup>، الآية وبظاير ذلك كثيرة.

٧٦٠- الوجه الثانى: أن يذكره على وجه الإبتلاء والامتحان كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾<sup>(٧)</sup>.

وقال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين \* نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾<sup>(٨)</sup>.

(١) سورة العلق: آية (٦-٧).

(٢) الزخرف: آية (٣٣-٣٥).

(٣) الكهف: آية (٤٦).

(٤) سورة التغابن: آية (١٥).

(٥) الشورى: آية (٢٧).

(٦) التوبة: آية (٥٥).

(٧) سورة آل عمران: آية (١٤).

(٨) سورة المؤمنون: آية (٥٥).

وقال تعالى مخبراً عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن...﴾ الآية (١).

وقال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (٢).

٧٦١- الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئاً وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعيف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون﴾ (٣).

٧٦٢- الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى﴾ (٤). وقال تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (٥). وإلى هذا المعنى أشار النبى ﷺ بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» (٦) وسيأتى الحديث

٧٦٣- الوجه الخامس: إنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ (٧)، وقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ (٨)، وقوله تعالى: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ (٩).

٧٦٤- الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حباً جماً﴾ (١٠)، فذمهم بحب المال وغيرهم به.

٧٦٥- الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن اغنى أهل زمانه: ﴿فخرج على قومه فى زينته \*

(٢) سورة الأنبياء: آية (٣٥).

(٤) سورة طه: آية (١٣١).

(١) سورة الفجر: آية (١٥).

(٣) سورة سبأ: آية (٣٧).

(٥) الأحقاف: آية (٢٠).

(٦) أخرجه أحمد (١٣٩/٣-١٤٠)، وابن حبان (٦٣٦٢) الإحسان عن أنس.

(٨) سورة الإسراء: آية (١٦).

(١٠) سورة الفجر: آية (١٩-٢٠).

(٧) سورة الواقعة: آية (٤٥).

(٩) سورة الأنبياء: آية (١٣).

قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم \* وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا \* ولا يلقاها إلا الصابرون \*<sup>(١)</sup> . فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحا، ولا يلقى هذه الوصية، وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم، أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله: \* ثواب الله خير \*، والسيرة والطريقة التى دل عليها قوله تعالى: \* لمن آمن وعمل صالحا \*، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء، وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

٧٦٦- الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى \* وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا \* قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم \*<sup>(٢)</sup> . فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه \* قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون \*<sup>(٣)</sup>، ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن. والذى يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى: \* أ هم يقسمون رحمة ربك .. \* إلى قوله: \* .. رحمت ربك خير مما يجمعون \*<sup>(٤)</sup>.

٧٦٧- الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: \* ألهاكم التكاثر \* حتى زرتم المقابر \* كلا سوف تعلمون \* ثم كلا سوف تعلمون \*<sup>(٥)</sup> . فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار

(٢) سورة البقرة: آية (٢٤٧).

(٤) سورة الزخرف: آية (٣٢).

(١) سورة القصص: آية (٧٩-٨٠).

(٣) سورة يونس: آية (٥٨).

(٥) سورة التكاثر: آية (١-٤).

القرار هي الجنة أو النار، ولم يعد سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشئ لا المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به. وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يتغنى به وجه الله، أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

٧٦٨- وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر. وقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت»<sup>(١)</sup>.

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً إذا عاين تكاثره هباءً منثوراً. وعلم ديناه التي كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله. وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعُذِبَ بتكاثره في ديناه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذا أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يَقْزُ من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا بأن حصل مع الأسفلين، فبدا له تكاثراً ما أقله! ورزء ما أجله ومن غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر! يقول صاحبه إذا إنكشف عنه غطاؤه، يا ليتني قدمت لحياتي وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رب ارجعون لعلی أعمل صالحاً فيما تركت﴾ \* كلا إنها كلمة هو قائلها<sup>(٢)</sup>، تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها. ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

٧٦٩- وتأمل قوله أولاً: (رب) استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، فقال: (ارجعون)، ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له كلا. لا سبيل لك إلى الرجعي وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

٧٧٠- ولما كان شأن الكريم الرحيم، أن يجيب من استغاث، وأن يفسح له في المهلة؛ ليتذكر ما فاتته - أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا

(١) مسلم (٢٨٥٩).

(٢) سورة المؤمنون: آية (٩٩-١٠٠).

حقيقة ١- وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أُجيب. وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رد لعاد لما نُهي عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمه أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون<sup>(١)</sup>.

٧٧١- وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية، وما أرادوا فراجع أقوالهم تجدوا لا تشفى قليلاً ولا تروى غليلاً. ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل لا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه. وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتثماً مع قوله: ﴿ما كانوا يخفون من قبل﴾، فقدروا مضافاً محذوفاً وهو خير ما كانوا يخفون من قبل فيحمل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض مولود القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه. قال الواحدى وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وقولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، لا يلتزم بهذا الذى ذكره فتأمله.

٧٧٢- وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للاتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

٧٧٣- وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخاف، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرتهم. ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهراً له قبل هذا. ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على

(١) سورة الأنعام: آية (٢٨٢٧).



رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم. ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

٧٧٤- فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعابوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله. فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيئتهم الكفر والشرك والتكذيب. وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

٧٧٥- فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها. تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصلوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينظرون عليه من علمهم أنهم على الباطل وأن الرسل على الحق، فعابوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتُمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل. وإنما تمنوا لما عابوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله، وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل، وأن الرشد فى عدوله عنه، فقليل له إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هى الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن منته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه. ولو رد لعاد لما نهى عنه.

٧٧٦- وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفى قولهم أنا لو رددنا لآمننا وصدقنا، لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أى ليس كذلك، بل كتم

يعلمون ذلك بغير حجة وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون بإخفائه. وكتمان الله أعلم. ولا نستطيع هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة، فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

٧٧٧- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾<sup>(١)</sup>، جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أى لما ألهاكم التكاثر. وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرتة لما ألهاه عن موجه ويرتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه. فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجه عنه من أندر شيء. وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضى الله عنه فى أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

٧٧٨- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقيل ليس تأكيد بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثانى فى القبر، هذا قول الحسن ومقاتل. ورواه عطاء عن ابن عباس.

٧٧٩- ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدهما: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل. وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثانى: توسط «ثم» بين العلمين، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زماناً وخطراً. الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول.

(٢) سورة التكاثر: آية (٣، ٤).

(١) سورة التكاثر: آية (٥).

(٣) سورة النبأ: آية (٥٤).

الرابع: أن علياً بن أبي طالب رضى الله عنه، وغيره من السلف، فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذى حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن أسلم الرازى عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج عن المنهال بن عمرو عن زر عن على رضى الله عنه قال: ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت ﴿الهاكم التكاثر﴾<sup>(١)</sup>. قال الواحدى: يعنى أن معنى قوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ فى القبر.

٧٨٠- الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لترون الجحيم﴾ ثم لترونها عين اليقين<sup>(٢)</sup>، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا، فالأول سؤال عن سبب استخراج، والثانى عن محل صرفه كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «لا تزولا قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، ماذا عمل فيما علم»<sup>(٣)</sup>.

٧٨١- وفيه أيضاً عن أبى برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه. وعن علمه فيما فعل فيه. وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه»<sup>(٤)</sup> قال هذا حديث صحيح.

٧٨٢- وفيه أيضاً، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة - يعنى من النعيم - أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد»<sup>(٥)</sup>.

٧٨٣- وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه لما نزلت ﴿لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾، قال الزبير: يا رسول الله فأى النعيم نسئل عنه ؟ وإنما هو الأسودان

(١) الترمذى (٣٣٥٥) وقال حديث غريب.

(٢) الترمذى (٢٤١٦) عن ابن عمر عن ابن مسعود، وقال حديث غريب.

(٣) الترمذى (٢٤١٧) وقال حسن صحيح.

(٤) الترمذى (٣٣٥٨) وقال حديث غريب.

(٥) سورة التكاثر الآية (٧).

التمر والماء. قال: «أما أنه سيكون»<sup>(١)</sup>. قال هذا حديث حسن.

٧٨٤- وعن أبي هريرة نحوه، وقال إنما هو الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا، قال: «إن ذلك سيكون»<sup>(٢)</sup>، وقوله: «أن ذلك سيكون»، إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم. وإما أن يرجع إلى السؤال، أى أن السؤال، يقع عن ذلك. وإن كان قرأ وماء فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد «هذا من النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>. فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

٧٨٥- وفي الترمذى، من حديث أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بلذج»<sup>(٤)</sup> فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى إليك به فإذا عبد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار»<sup>(٥)</sup>.

٧٨٦- وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحراث وتركك ترأس وتربع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له اليوم أنساك كما نسيتنى»<sup>(٦)</sup> قال: هذا حديث صحيح.

٧٨٧- وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار، وهم المسئولون عن النعيم وذكر ذلك الحسن ومقاتل، واختار الواحدى ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية: قال لرسول الله: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه: فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك للكفار» ثم قرأ: «وهل نحازى إلا الكفور». قال الواحدى: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم. والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسئلوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم، هل

(١) الترمذى (٣٣٥٦).

(٢) الترمذى (٣٣٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣٣٨/٣)، والنسائى (٢٦٤/٦) وابن حبان (٣٤١١) الإحسان، عن جابر بن عبد الله.

(٤) الترمذى (٢٤٢٧).

(٥) ولد الضان.

(٦) الترمذى (٢٤٢٨).

قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة، ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.  
قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال لا يستل عن النعيم إلا أهل النار.

٧٨٨- قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل، ما يقضى اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بالهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت؟»<sup>(١)</sup>. الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً، ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت. وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له وأنى نعيم نسال عنه؟ وإنما هو الأسودان، فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك وقال ما لكم ولها إنما هي للكفار، فالصحابه فهموا النعيم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

٧٨٩- وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح. والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد بطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما. قوما»، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته. فلما رآته امرأته قالت مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «وأين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق<sup>(٢)</sup> فيه بُسر وتمر ورطب، فقال كلوا من هذا، فأخذ المدية. فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوبة»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتستلن عن هذا النعيم يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»<sup>(٣)</sup>. فهذا

(١) مسلم (٢٩٥٨).

(٢) العذق: الغصن من النخل ويكون العذق من التمر بمنزلة العنقود من العنب.

(٣) مسلم (٢٠٣٨).

الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

٧٩٠- وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾<sup>(١)</sup>، ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف. وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

٧٩١- فإن قيل فالؤمنون لم يلهمهم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حملة على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾<sup>(٦)</sup>، ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فاللهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا. فإن أعطاه ذلك وإلا فهو مُلته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد.

٧٩٢- وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة. فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له فى الدنيا، وليس فى قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضى دخول النار فضلاً عن التخليد

(١) سورة البقرة: آية (١٨٣).

(٢) سورة الإسراء: آية (١٠٠).

(٣) سورة الإسراء: آية (١٠٠).

(٤) سورة العاديات: آية (٦).

(٥) سورة الزخرف: آية (١٥).

(٦) سورة الاحزاب: آية (٧٢).

فيها. وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً. وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم. فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها. وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعاً. وإما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة تزده وبالله التوفيق.

٧٩٣- ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهي، وانطباق معناها على أكثر الخلق، يابى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها. ويكفى في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

٧٩٤- وتأمل ما في هذا العتاب الموجه لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستيقظ منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

٧٩٥- وتأمل نعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقيد بمكثاته به. ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها. وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكثره به. والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للتكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصي وإنما العزّة للتكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها وكل من كثر إنساناً في دينه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكائده عن مكائده أهل الآخرة.

٧٩٦- فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكائده ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم.

فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان. والتكاثر بأسباب السعادة الآخورية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه.

وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفى. وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً. وإذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كآثره بخصلة أخرى هو قادر على المكآثر بها. وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً فى إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة وإستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضى الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله ﷺ، ومكآثره بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصره. وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما. فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

### [فصل]

٧٩٧- ومن تأمل حسن موقع «كلا» فى هذا الموضع؛ فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر، ونفيًا وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا. وأخبرهم سبحانه وتعالى أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكآثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكآثرين بالدنيا التى ألهمتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكآثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

٧٩٨- فله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة. وأبلغها موعظة وتحذيراً وأشدّها ترغيباً فى الآخرة وتزهيداً فى الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً.

### [فصل]

٧٩٩- وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حى، زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون فى المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار. فهم فيها عابروا سبيل إلى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر. فهاتين ثلاثين أمور: عبور السبيل فى هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار القرار.



## [فصل]

٨٠٠ - فلنرجع إلى تمام المناظرة. قالوا: فالله تعالى حمى أوليائه عن الدنيا وصانهم عنها، ورغب بهم عنها، تكريماً لهم وتطهيراً عن أدناسها، ورفعاً عن دناءتها. وذما لهم وأخبرهم بهواتها عليه وسقوط قدرها عنده، وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض. وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور. وذم محبيها ومؤثريها، وأخبر أن من أرادها أو أراد زيتنها وحرثها فليس له في الآخرة من نصيب. وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة.

وإن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه. وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق ثنائهم، ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسرورهم كلها من فضة. وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة. ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها. وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها. وقال لبيته: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾<sup>(١)</sup>، وفي هذا تعزية لما منعه أوليائه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطفى فيها. ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها، وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه. وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه. ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلاً كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة ييساً هشيباً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم، ونهى سبحانه عبده أن لا يقتروا بها وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور. وطريق ومعبور إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن

(١) سورة الحجر: آية (٣).

مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته، فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه. فهو مخالف لربه بنفس إرادته. وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه وأخيراً سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيتها لهم.

٨٠١ - قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقليل منها ما أمكن.

٨٠٢ - قالوا: وقد عرضها سبحانه، وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردّها ولم يخترها، ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذ منها وأنفق كنهه في مرضاة الله وسبيله قطعاً. بل اختار التقليل منها وصبر على شدة العيش فيها.

٨٠٣ - وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد - يعني ابن عباد - حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟»، فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك؟ فبعثت إلي بهذا فقال: «رديه»، فلم أردّه، وأعجبنى أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: «يا عائشة رديه والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة».

٨٠٤ - وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها، وقال: «بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جمعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

٨٠٥ - وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتاً، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»، وفيهما عنه قال: «والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا».

٨٠٦ - وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيماً مرفقاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه.

٨٠٧ - وفي صحيحه أيضاً عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير.

٨٠٨ - وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض.

٨٠٩ - وفي صحيح مسلم، عن عمر رضى الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه<sup>(١)</sup>.

٨١٠ - وفي المسند والترمذى، عن ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير<sup>(٢)</sup>. قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح.

٨١١ - وفي الترمذى، من حديث أبى أمامة: ما كان يفضل عن أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير<sup>(٣)</sup>.

٨١٢ - وفي المسند، عن عائشة رضى الله عنها. والذي بعث محمداً بالحق ما رأى من خلأ ولا أكل خبزاً من خلأ منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض. قال عروة فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت كنا نقول أف - أى تفخه - فيطير ما طار ونعجن الباقى<sup>(٤)</sup>.

٨١٣ - وفي صحيح البخارى، عن أنس، قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير. ولقد سمعته يقول: «ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات»<sup>(٥)</sup>.

٨١٤ - وفي مسند الحارث، عن أبى أسامة، عن أنس: أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى النبى ﷺ فقال: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟» قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: «أما أنه أول طعام دخل فى فم أهلك منذ ثلاثة أيام»<sup>(٦)</sup>.

(١) مسلم (٢٩٧٧) عن النعمان بن بشير، والدقل) التمر الردى.

(٢) مسند أحمد (٢٥٥/١)، والترمذى (٢٣٦٠).

(٣) الترمذى (٢٣٥٩) وقال حديث حسن صحيح غريب.

(٤) مسند أحمد (٧١/٦)، وأخرجه البخارى (٥٤١٣) عن سهل بن سعد.

(٥) البخارى (٢٥٠٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢١٣/٣) والطبرانى فى الكبير (٢٥٨/١) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣١٢/١٠) رواه أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات.

٨١٥- وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع<sup>(١)</sup>.

٨١٦- وقد أسرف أبو حاتم بن حبان<sup>(٢)</sup> في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالف في إنكاره، وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك. وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه، بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم، وكان أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ، وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيره سيرتهم، ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجيئت إليه الأموال، ومات ولم يترك درهماً واحداً ولا دينار ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة.

٨١٧- قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة أنه سمع عائشة تقول: كان يمر هلال بنا وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة، فعلى أى شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء<sup>(٣)</sup>.

٨١٨- وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم بن النبهان «وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «ما أخرجكما؟» قالوا: الجوع، قال: «وأنا والذي نفسى بيده لأخرجننى الذي أخرجكما»<sup>(٤)</sup>.

٨١٩- وذكر أحمد من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة فدعت لى بطعام وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت؟ قال: قلت لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا. والله ما أشبع في يوم مرتين من خبز البر حتى قبض<sup>(٥)</sup>.

(١) مستند أحمد (٣/١٠٣).

(٢) هو الإمام الحافظ الكبير أبو حاتم محمد بن حبان البستي صاحب كتاب التقاسيم والأنواع المعروف بصحيح ابن حبان وقد طبع بترتيب ابن بلبان واسمه «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان».

(٣) مستند أحمد (٦/٧١)، والبخارى (٦٤٥٩) ومسلم (٢٩٧٢).

(٤) تقدم تخريجه. (٥) الترمذى (٢٣٥٦).

٨٢٠ - وفيه عنها: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض<sup>(١)</sup>، والحديثان صحيحان.

٨٢١ - وفيه أيضاً عنها: ما شبع آل محمد من خبز مادوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل<sup>(٢)</sup>.

٨٢٢ - وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً أتباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا<sup>(٣)</sup>.

٨٢٣ - وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبيت الليالي طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير<sup>(٤)</sup>.

٨٢٤ - وفيه أيضاً، عن أنس عنه ﷺ: «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»<sup>(٥)</sup>. والحديثان صحيحان.

٨٢٥ - وفيه أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا حجراً فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجراً<sup>(٦)</sup>.

٨٢٦ - وفيه أيضاً عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»<sup>(٧)</sup>، حديث صحيح.

٨٢٧ - وفيه عن علي رضي الله عنه قال: خرجت في يوم شات من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهاباً معطوناً، فجويت وسطه وأدخلته في عنقي فشددت به وسطى فحزمت به بخص من النخل وإنني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه فخرجت ألتمس شيئاً، فمررت بيهودي في مال له، وهو يسقي بكرة له

(٢) مستند أحمد (١٨٧/٦).

(٤) الترمذي (٢٣٦٠).

(٦) الترمذي (٢٣٧١).

(١) مستند أحمد (٩٨/٦).

(٣) البخاري (٦٤٥٤)، مسلم (٢٩٧٠).

(٥) الترمذي (٢٤٧٢).

(٧) تقدم تخريجه.

فاطلعت عليه من ثلثة من الحائط، فقال: مالك يا أعرابي وهل لك فى كل دلو بثمره، قلت نعم. فافتتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت، فأعطاني دلو، فكلما نزع دلوأ أعطاني ثمرة حتى امتلأت كفى، أرسلت دلوه وقلت حسبي فأكلها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماء فوجدت رسول الله ﷺ فيه<sup>(١)</sup>.

٨٢٨- وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحبله وهذا السمر. والحبله ثمر العضاة ذات الشوك<sup>(٢)</sup>، وهو حديث صحيح.

٨٢٩- وكان ﷺ يصلى من الليل أحياناً وعليه كساء صوف بعضه عليه<sup>(٣)</sup> وبعضه على عائشة. قال الحسن: ثمنه ستة دراهم أو سبعة.

٨٣٠- وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن على قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل وقرية ووسادة من آدم حشوها ليف<sup>(٤)</sup>. والخميل: الكساء الذى حمل.

٨٣١- قال: وحدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال: قال أبو بردة: دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة. فقالت قبض رسول الله ﷺ فى هذين الثوبين<sup>(٥)</sup>.

٨٣٢- قالوا: ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذا عرضت عليه الدنيا ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له ولم يكن الله ليختار له إلا، الأفضل إذا كان أفضل خلقه وأكملهم.

٨٣٣- قالوا وقد أخبر النبى ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه.

٨٣٤- قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدي، حدثنا همام، عن قتادة، عن خليل

(١) سنن الترمذى (٢٤٧٣) وقال حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخارى (٦٤٥٣)، ومسلم (٢٩٦٦)، والسمر نوع من شجر البارية.

(٣) أخرجه أبو داود (٦٣١). (٤) مسند أحمد (٨٤/١).

(٥) مسند أحمد (٣٢١٦).

العصرى عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يأبها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. ولا آبت شمس. قط إلا بعث بجنيها ملكان يناديان يسمعان أما الأرض إلا الثقلين. اللهم اعط منفقاً خلفاً، واعط ممسكاً تلفاً»<sup>(١)</sup>.

٨٣٥ - وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى لبيبة، عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى»<sup>(٢)</sup>.

٨٣٦ - وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن، رزق الدنيا والآخرة، وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد، فيكفى من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

٨٣٧ - قالوا: وقد غبط<sup>(٣)</sup> رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يقبض به الغنى.

٨٣٨ - قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا على بن صالح، عن أبى المهلب، عن عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع فعملت منيته وقل ترائه وقلت بواكيه»<sup>(٤)</sup>. قال عبد الله بن أحمد: سألت أبى ما ترائه؟ قال ميرائه.

٨٣٩ - قالوا: وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا، إنما هو من محبته له وكرامته. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبى عمرو، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن محمود بن لبيد رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمى مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم»<sup>(٥)</sup>. قالوا: «وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعته إلا

(١) أخرجه أحمد (١٦٧/٥)، وصححه الحاكم فى المستدرک (٤٤٥/٢) وابن حبان (٦٨٦) الإحسان.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢/١) وصححه ابن حبان (٨٠٩).

(٣) غبط الرجل غنى مثل حاله، واغبط الرجل فرح من حسن حاله.

(٤) مسند أحمد (٢٥٢/٥)، والترمذى (٢٣٤٧) وقال حديث حسن، والخفيف الحاذ أى خفيف الحال قليل

الأهل والمال، وقوله «غامضاً فى الناس» أى خفى غير مشهور.

(٥) مسند أحمد (٤٢٨/٥).

استدراجاً لله، لا إكراماً ومحبة لمن أعطاه».

٨٤٠ - قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين بن سعد، عن حرمله ابن عمران التجيبى، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر رضى الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج»<sup>(١)</sup> ثم تلا قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾<sup>(٢)</sup> الآية. قالوا: ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

٨٤١ - قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى لو أتى باب إحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه. ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه إياه ولو سأل الدنيا لم يعطها إياه وما يمنعه إياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»<sup>(٣)</sup>. وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه. ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل؛ فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الآخرة إلا من يحب.

٨٤٢ - قالوا وقد أخبرهم النبي ﷺ: أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقليل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة. وذلك أنى سمعته يقول: «إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيفة ما تركته فيها، وأنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيرى»<sup>(٤)</sup>.

٨٤٣ - قالوا وقد غبط النبي ﷺ من كان عيشه كفافاً وأخبر بفلاحه قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال: أخبرنى أبو هانىء أن أبا على الحبشى أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هدى

(١) مسند أحمد (٤/١٤٥).

(٢) سورة الأنعام آية (٤٤).

(٣) وأخرج مسلم (٢٦٢٢) عن أبي هريرة مرفوعاً «رُبَّ أشعث مرفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

(٤) أخرجه أحمد فى الزهد (ص ١٤٧).



إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنعاً<sup>(١)</sup>.

٨٤٤- وذكر أيضاً من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»<sup>(٢)</sup>.

٨٤٥- قالوا: ولو لم يكن في التقلل إلاخفه الحساب لكفى به فضلاً عن الغنى، قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا بيان بن الحكم، حدثنا محمد بن حاتم، قال: حدثني بشر بن الحارث، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يحاسب بهن العبد: ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه، وثوب يوارى عورته».

٨٤٦- وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا ليث، عن أبي عثمان قال: لما أفتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال. وكان رجل يمشى إلى جنب سلمان فقال: يا أبا عبد الله ألا ترى إلى ما فتح الله علينا ألا ترى إلى ما أعطانا الله، فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل جبة مما ترى حساب!

٨٤٧- قالوا: وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خيراً منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم. قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب عن الحسن قال: قال نبي الله ﷺ: «يا أهل الصفة، كيف أنتم»، قالوا: نحن بخير، قال: «أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو في حلة ويروح في أخرى. وتسترون في بيوتكم مثل أستار الكعبة». قالوا: يابى الله نحن يومئذ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر. قال: «بل أنتم اليوم خير». فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم خير منهم في وقت غناهم مع الشكر.

٨٤٨- وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا ابن ذر، حدثنا حفص بن غياث، عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن طلحة البصرى قال: قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة، فكان يجرى علينا مد من تمر بين إثنين، فصلى بنا رسول الله صلاة فهتف به هاتف من خلقه فقال: يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر، وعزفت عنا الكنف.

(١) مسند أحمد (١٩/٦) وأخرجه أيضاً الترمذى (٢٣٤٩) وقال حسن صحيح.

(٢) مسند أحمد (١٦٨/٢)، ومسلم (١٠٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

فخطب فـ... الله وأثنى عليه، وقال: «والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه، وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح وتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة». قالوا يارسول الله نحن اليوم خير منا أو يومئذ؟ قال: «بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ، يضرب بعضكم رقاب بعض»<sup>(١)</sup>.

٨٤٩- قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الوهاب، عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه.

٨٥٠- قالوا: ولو لم يكن في الغنى والمال إلا أنه فتنة، وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها في دينه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾<sup>(٢)</sup>. وفي الترمذي، من حديث كعب بن عياض قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»<sup>(٣)</sup>. قال: هذا حديث حسن صحيح.

٨٥١- قالوا: والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذا رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء فكانه قبض من ثيابه عنه. فقال رسول الله ﷺ: «أخشيت يا فلان أن يعدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك؟» قال: يارسول الله أو شر الغنى؟ قال: «نعم إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعو إلى الجنة». قال: فما ينجي مني؟ قال: «تواصيه». قال إذن أفعل، فقال الآخر لا مأرب لي فيه. قال: «فاستغفر وادع لأخيك»<sup>(٤)</sup>.

٨٥٢- قالوا: وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره. وقد روى الترمذي في جامعه من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه وثوب يوارى به عورته وجلف الخبز والماء»<sup>(٥)</sup>. قال هذا حديث حسن صحيح.

٨٥٣- وفي صحيح مسلم، عن أبي أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف

(١) مسند (٤٨٧/٣) وصححه الحاكم (١٥/٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٢) سورة التغابن: آية (١٥).

(٣) الترمذي (٢٣٣٦).

(٤) الزهد للإمام أحمد ص ٣٨.

(٥) الترمذي (٢٣٤١)، وجلف الخبز: أى خبز لين معه إدام.

وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى»<sup>(١)</sup>.

٨٥٤ - وفي صحيحه أيضاً، من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رضى الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا. فقال رسول الله: «من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له»<sup>(٢)</sup>. قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لاحق لاحد منا في فضل.

٨٥٥ - قالوا: فهذا موضع النظر في تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله؛ وأما غنى يتمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله في فقره؟!.

٨٥٦ - قالوا: وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه، وهم أئمة الشاكرين أنه لا يخاف عليهم الفقر، وإنما يخاف عليهم الغنى ففي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف - وكان شهد بداراً - أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما، وكان رسول الله صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فبتسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين»، فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: «أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»<sup>(٣)</sup>.

٨٥٧ - قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا هشام، عن الحسن قال: قيل لأبي ثعلبة الخشني: أين دنياكم والتي كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟. قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل - والله الذي لا إله إلا هو - الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل.

٨٥٨ - وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هشام بن حسان، قال: سمعت الحسن يقول: والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا

(١) مسلم (١٠٣٦).

(٢) مسلم (١٧٢٨).

(٣) البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

كان قد نقص علمه وعجز رأيه . وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أن قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه .

٨٥٩ - قالوا: وقد مر على النبي ﷺ فقير وغنى فقال عن الفقير: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».. وروى البخارى فى صحيحه، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون فى هذا؟» فقالوا: حرى إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يُشفع وإن قال أن يُسمع، قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون فى هذا؟» قالوا: حرى إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع ألا يُشفع وإن قال أن لا يُسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»<sup>(١)</sup> .

٨٦٠ - وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم ييشر به الأغنياء؛ ففى الترمذى من حديث فضالة بن عبيد: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخبر رجال من قانتهم فى الصلاة من الخصاصة<sup>(٢)</sup> وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله انصرف إليهم وقال: «لو تعلمون مالكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»<sup>(٣)</sup> . قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة .

٨٦١ - وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق . ففى صحيح مسلم، عن عبد الله ابن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً» . قالوا: نصبر ولا نسال شيئاً .

٨٦٢ - وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام» . قال الترمذى: حديث حسن صحيح .

(٢) الخصاصة: الفاقة والحاجة .

(١) البخارى (٥٠٩١) .

(٣) الترمذى (٢٣٦٨) وقال حديث صحيح .

٨٦٣ - وفي الترمذى أيضاً، من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة». وهو حديث حسن.

٨٦٤ - وفيه أيضاً، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً». وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبد الله بن عمر ولحديث أنس الذى فى الترمذى. «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً».

٨٦٥ - فهؤلاء ثلاثة: جابر، وأنس، وعبد الله بن عمر. وقد اتفقوا على الأربعين. وهذا أبو هريرة، وأبو سعيد، قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة؛ ولا تعارض بين هذه الأحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى. فمنهم من يسبق بأربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة. ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص.

٨٦٦ - وقد روى أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «أن أول الأمة دخولا إلى الجنة أبو بكر الصديق رضى الله عنه»<sup>(١)</sup>. ومعلوم أن المدة التى بينه وبين أخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول. وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

٨٦٧ - وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال «فقراء لمهاجرين الذين تتقى بهم المكاه يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ياربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول: عبادى لا يشركون بى شيئاً يتقى بهم المكاه يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»<sup>(٢)</sup>.

٨٦٨ - وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا دويد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى مؤمنان على باب الجنة، مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى

(١) سنن أبى داود (٤٦٥٢).

(٢) مسند أحمد (١٦٨/٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقية الفقير فيقول: أى أخى ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك!؟ فيقول أى أخى إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سأل منى من العرق ما لو وردف ألف يعير كلها أكلة حمض لصدرت عنه رواء»<sup>(١)</sup>.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي وعلي بن سعيد الرازي قالا حدثنا علي بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك بن أبي كريمة عن الثوري عن محمد بن زيد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة»، فقال رجل: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «إن تغديت رجعت على عشاء، وإذا تعشيت بقيت معك غداء؟» قال نعم. قال «لست منهم»، فقام رجل فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «هل سمعت ما قلنا لهذا؟» قال نعم. ولست كذلك. قال: «هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك؟» قال نعم. قال: «فلست منهم». فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال «هل سمعت ما قلت لهذين قبلك؟» قال نعم، قال: «هل تجد قرصاً كلما شئت أن تستقرض؟» قال نعم. قال: «فلست منهم»، فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: «هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟» قال نعم، قال: «تقدر أن تكتسب؟» قال نعم. قال «فلست منهم»، قال فقام خامس فقال أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟» قال نعم، قال «هل تمسى عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟». قال نعم، قال: «فأنت منهم»، قال النبي ﷺ «إن سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا تعشى لم يبت عنده غداء، وإن إستقرض لم يجد قرصاً وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به مالا يجد منه بداً، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعيشه ويمسى عن الله راضياً ويصبح راضياً» «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين \* وحسن أولئك رفيقاً»<sup>(٢)</sup> قال الطبراني: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثوري عن محمد بن زيد يقال هو العبدى، تفرد به عبد الملك.

(١) مسند أحمد (٣٠٤/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/١٠) فيه دويد غيو منسوب فإن كان هو الذى روى عن سفيان فقد ذكره العجلي في الثقات، وإن كان غيره لم أعرفه وبقيت رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن بشير وهو ثقة.  
(٢) سورة النساء: آية (٦٩).

٨٦٩ - قلت: محمد هذا هو العبدى، وثقه قوم وضعفه آخرون. قال الدارقطنى ليس بالقوى. وقال أبو حاتم صالح الحديث. وذكره ابن حبان فى الثقات. وروى له الترمذى وابن ماجه، وفى هذه الطبقة محمد بن زيد الشامى يروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو الثورى لم ينسبه وإنما يقال هو العبدى والله أعلم.

٨٧٠ - وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائى عن يحيى بن أبى كثير عن عامر العقيلى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار. فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رقب الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله، وفقير فخور»<sup>(١)</sup>، وروى الترمذى منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط.

٨٧١ - قالوا ويكفى فى فضل الفقير أن عامة الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة حدثنا شريك عن أبى إسحاق عن السائب بن مالك عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»<sup>(٢)</sup>.

٨٧٢ - وفى صحيح البخارى عن أبى رجاء قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت حدثنا ما سمعت من النبى، فقال إنه ليس من حديث! فلم تدعه (أو قال) فأغضبته، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نظرت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، ونظرت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»<sup>(٣)</sup>.

٨٧٣ - وفى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»<sup>(٤)</sup>.

(٢) مسند أحمد (٤٢٥/٢)، والترمذى (١٦٤٢) وقال حديث حسن (٢) مسند أحمد (١٧٣/٢).

(٣) البخارى (٦٤٤٩). (٤) البخارى (٦٥٤٦)، ومسلم (٢٧٣٦).

٨٧٤ - وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ أطلع في النار فرأى أكثر أهلها النساء وأطلع في الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء (١).

٨٧٥ - قالوا: ويكفى في فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن غير حدثنا إسماعيل - يعني ابن خالد - عن نفع عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يوم القيامة غنى ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتي في الدنيا قوتا» (٢). قال البخارى يتكلمون في نفع. وهذا أليق ما قيل فيه.

٨٧٦ - قالوا وقد صرح رسول الله ﷺ في تفضيل الفقراء في غير حديث، فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أرفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد» (٣). قال فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له. قال فقلت هذا، قال فقال: «يا أبا ذر أرفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه في المسجد»، قال فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق، قال فقلت هذا، قال فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا» (٢).

٨٧٧ - قال حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الأعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة بن الحر عن أبي ذر فذكره، وقال لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا. قال الإمام أحمد وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى قال: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر فذكره.

٨٧٨ - قالوا: والذى يفصل بيننا في هذه المسألة ويشفى العليل أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزله عند الله. والغنى ولو شكر فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحل وجه، فقليل الفضل في الدنيا ناقص من كثير الآخرة. وفي صحيح مسلم عن حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «ما من غاوية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم» (٣).

(١) مسلم (٢٧٣٧). (٢) مسند أحمد (٥/١٧٠)، وقوله «عليه أخلاق»: أى ثياب بالية.

(٣) مسلم (١٩٠٦).



٨٨٠- وفي الصحيحين عن خباب بن الارت رضى الله عنه قال : هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجهه الله فوقع أجرنا على الله . فعنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك برده فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجله شيئاً من الإذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها .

٨٨١- وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال «دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا» (١) . وذكر الحديث .

٨٨٢- وقال سعيد بن منصور حدثنا معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « ما أوتى عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كرم » .

٨٨٣- وفي صحيح البخارى عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال « أوتى عبد الرحمن رضى الله عنه بطعام وكان صائماً ، فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير منى وكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه . وإن غطى رجلاه بدا رأسه ، وقتل حمزة رضى الله عنه وهو خير منى فلم يوجد له كفن إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط . أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا . وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام (٢) .

٨٨٤- قال أبو سعيد بن الأعرابى ، وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قال ذلك دون غيرهما لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه وعلموا أن ما اختاره الله لنبه كان أفضل . وأن ما أخرجوا له كان أنقص ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة ، وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضى الله عنهم .

٨٨٥- فأما أبو بكر رضى الله عنه فحدثنا ابن أبى الدنيا حدثنا عبد الرحمن بن

(١) البخارى (١٢٧٦) ، ومسلم (٩٤٠) .

(٢) البخارى (١٢٧٥) .

أبان الطائي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثني سليمان عن مرة عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: « كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أذناه من فيه بكى وبكى حتى بكى أصحابه فسكنوا وما سكت ، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدرُوا على مسألته ، قال ثم مسح عينيه ، فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك ؟ فقال كنت مع رسول الله فرأيتُه يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً ، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال: « هذه الدنيا مثلت لي ، فقلت لها إليك عني ، ثم رجعت فقالت إنك إن أفلت مني فلن يفلت مني من بعدك » .

٨٨٦ - وذكر ليث عن سعد عن صالح بن كيسان بن حميد عن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال في مرضه الذي مات فيه : إني وليت أمركم وإني لست لست بخيركم وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج ، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسل والسعدان ، ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يمينا وشمالا . ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البر أو الفجر ، والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا .

٨٨٧ - وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال : كنت جالسا مع أبي بكر فرأى طائرا فقال طوبى لك يا طائر ، تأكل من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئا وليس عليك حساب وددت أني مكانك . فقلت له أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ ؟

٨٨٨ - وأما عمر رضي الله عنه فإنه لما أتى بكنوز كسرى بكى ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين فو الله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور . ويوم فرح ، فقال عمر إن هذا لم يعطيه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء .

٨٨٩ - ودخل عليه أبو سنان الدؤلي وعنده نفر من المهاجرين ، فأرسل عمر إلى سبط أتى به من قلعة بالعراق وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله في فيه ، فانتزع عمر منه ثم بكى ، فقال له من عنده لم تبكى وقد فتح الله لك وأظهر لك وأقر عينك ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم

العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة»<sup>(١)</sup> وأنا مشفق من ذلك .

٨٩٠ - قال أبو سعيد وجدت في كتاب بخط يدي عن أبي داود قال : « حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفي القوم سراقه بن مالك فألقى إليه سوارى كسرى فجعلهما فى يديه فبلغا منكبه ، فلما رأهما فى يد سراقه قال الحمد لله سوار كسرى بن هرمز فى يد سراقه بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج ثم قال : اللهم قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك له واختياراً . اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكر منك بعمري . ثم قال تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

٨٩١ - والمقصود أن سعة الدنيا وسيطتها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن ابن أبي صغيرة عن جابر بن عبيد الله رضى الله عنهما قال : لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ فقال : « إني شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » . قال معمر وأخبره فيمن سمع الحسن يقول : قال النبي ﷺ : « هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم لم يأكلوا من أجورهم شيئاً . وإنكم قد أكلتم من أجوركم وإنى لا أدري ما تحدثون بعدى »<sup>(٣)</sup> .

٨٩٢ - وقال ابن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول : خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور لو تعلمون ما نحاكم الله منه مما هو كائن بعدكم » . ثم أقبل على أصحابه فقال هؤلاء خير منكم . فقالوا يا رسول الله إخواننا ، أسلمنا كما أسلموا ، وهاجرونا كما هاجروا . وجاهدنا كما جاهدوا ، وآتوا على آجالهم فمضوا فيها ، وبقيتنا فى آجالنا فما يجعلهم خيراً منا ؟ فقال : « إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً وخرجوا وأنا شهيد عليهم ، وأنتم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون من بعدى » ، قال فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها فقالوا وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم وإنه لمنتقص به من أجورنا ، فأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً وقدموا فضلاً .

(١) مسند أحمد (١٦/١) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٣٦/١٠) إسناده حسن .

(٢) سورة المؤمنون : آية (٥٥ ، ٥٦) .

(٣) مصنف عبد الرزاق (٥/٢٧٢) .

٨٩٣- وقال عبد الله بن أحمد : قرأت على أبي هذا الحديث : حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قال : ما أعطى رجل من الدنيا إلا نقص من درجته .

٨٩٤- قالوا وقد صرح سادات الأعيان بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا ، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا ، قال ذلك عبد الرحمن وغيره وكان هذا مصداقاً لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء ، إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم ، وإن الدنيا حلوة خضرة » .

٨٩٥- قالوا وما هنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل ، إحداهما أن الأكثرين هم الأقلون . وقد تقدم الدليل عليهما بما فيه الكفاية .

وأما الثانية ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رضى الله عنه قال : خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد . فجعلت أمشى في ظل القصر . فالتفت فرأى فقال : « من هذا؟ » قلت أبو ذر . فجعلنى الله فداك ، قال : « يا أبا ذر تعال » فمشيت معه ساعة ، فقال : « إن الأكثرين هم يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفع فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً »<sup>(١)</sup> . وذكر الحديث .

٨٩٦- قالوا : ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله عن الزهد فى الدنيا والإعراض عنها وضم الحرص عليها والرغبة فيها ، بل كان ينبغي أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها كما حض على اكتساب الفضائل التى بها نال العبد من العلم والعمل ، فلما حض على الزهد فيها وأثقل دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين . وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ، وأنها أهون على الله من النخلة الميتة على أهلها . وأن مثلها فى الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه فى البحر ، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين . وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل . ويعد نفسه من أهل القبور وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها ، ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم ودعا عليه بالتعس والانتكاس ، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش .

(١) البخارى (٦٤٤٣) ، مسلم (٣٢) كتاب الزكاة .

وأخبر أنها خضرة حلوة أى تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها ، وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقى النساء ويحذر منهن ، وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضارين إذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد إفساداً وأخبر أنه فى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها . وهذه فى الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم ، ولكن هو عليه السلام شهد هذه الحال وعمى عنها بنو الدنيا . ومريهم وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى فقال : «ما أرى الأمر إلا أتعجل من ذلك» وأمر بستر على بابه فترع وقال «إنه يذكرنى الدنيا» . وأعلم الناس «أنه ليس لأحد منهم حق فى سوى بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وقوت يقيم صلبه» ، وأخبر أن : «الميت يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله» وأخبر أن «للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة» وأقسم أنه «لا يخاف الفقر على أصحابه إنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم» وأخبر أنه «ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى . أو تصدق فأمضى» ، وأخبر أن «حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه ، فإن لم يقتصر عليها ثلث بطنه لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» وفى هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا . وأخبر أن «غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه» . وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتاً ، وغط من كان فيها كفافاً بعد أن هدى للإسلام ، وأخبر أنه «من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشئت عليه شمله ، ولم يأت منها إلا ما كتب له» ، وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فقال «لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت نضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» ، وأعلمهم أن من أصبح منهم آصاً فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيز له الدنيا . وأخبر أن «بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له ، وإمساكه شر له ، وأنه لا يلام على الكفاف» ، ونهى أمته أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه فى الدنيا . وأمره أن ينظر إلى من هو دونه فى الدنيا ، وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضرب مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه وإن كان أوله طيباً لذيداً فهذا آخره . وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعين فيها ، فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم فى الدنيا عوضاً من ذلك النعيم . وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل . وكان يقول : «ليكن لا عيش إلا عيش الآخرة» .

وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمي الإنسان مريضه من الطعام والشراب ودخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكب عليه يقبله ويقول: «رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك فغبطه بذلك» ، وكان يقول الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة في الدنيا تطيل الهموم والحزن وكان يقول من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك .

وأخبر أنه يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان في الدنيا ، . فيقول الله عز وجل أصبغوه في النار صبغة ثم يؤتى به فيقول يا ابن آدم هل أصبت نعيماً قط ؟ هل رأيت قرة عين قط ؟ هل أصبت سروراً قط ؟ فيقول لا وعزتك . ثم يقول ردوه إلى النار ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا وأجهده جهداً ، فيقول تبارك وتعالى أصبغوه في الجنة صبغة فيصبغ فيها ، ثم يؤتى به فيقول : يا ابن آدم هل رأيت ما تكره قط ؟ فيقول لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه <sup>(١)</sup> .

٨٩٧- وفي حديث مناجاة موسى الذي رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل حدثنا عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه فذكره ، وفيه ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ولا تمدان إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، وإنى لو شئت أن أزينكم من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكني أرغب بكم عن نعيمها ذلك وأزويه عنكم ، وكذلك أفعل بأوليائي ، وقديماً ما خرت لهم في ذلك فإني لأزودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة وإنى لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً لم تكلمه <sup>(٢)</sup> الدنيا ولم يطفه الهوى . واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا . فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . أولئك أوليائي حقاً . فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذل لهم قلبك ولسانك ، وذكر الحديث .

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) عن أنس بن مالك .

(٢) تكلمه : أي نحرجه .

٨٩٨- وقال أحمد حدثنا عون بن جابر قال : سمعت محمد بن دواد عن أبيه عن وهب قال : قال الحواريون يا عيسى : من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ قال الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها ، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم ، وتركوا ما علموا أنه سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وذكرهم إياها فواتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً ، فما عرضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجدونها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها . وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها يهدمونها فينبون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلث<sup>(١)</sup> فأحبوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الحياة ، يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به ، لهم خبر عجيب ، وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب وبه قاموا . وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا . وبهم علم الكتاب وبه علموا ، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا ، ولا أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يحذرون<sup>(٢)</sup> .

٨٩٩- وحدثنا روح حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : قيل لعيسى بن مريم يا رسول الله لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك ؟ قال أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به<sup>(٣)</sup> . وقال اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإن قلب المرء عند كثره ، وقال اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز . وقال يا بني إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم في العالم من منزل إن أنتم إلا عابري سبيل وقال يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً ؟ قالوا يا روح الله من يقدر على ذلك ؟ قال إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً ، وقال أكل الخبز البر ، وشرب ماء عذب ، ونوم على المذابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس<sup>(٤)</sup> .

٩٠٠- قال أحمد وحدثنا بهز عن الأعمش عن خيثمة قال : قال المسيح بشدة : ما يدخل الغنى الجنة وقال المسيح : حلاوة الدنيا مرارة الآخرة . ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة وقال يا بني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم ، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة ، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم

(٢) الزهد للإمام أحمد (ص ٦٠) .

(٤) الزهد للإمام أحمد (ص ٥٨) .

(١) المثلث : جمع مثلة أى العقوبة .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٥) .

تدعو إلى . هـ والخسارة.

٩٠١ - وقال إسحاق بن هانيء في مسائله : قال أبو عبد الله وأنا أخرج من داره ، قال الحسن أهينوا الدنيا فو الله لأهناً ما تكون حين تهان ، وقال الحسن والله ما أبالي شرقت أم غربت قال وقال لى أبو عبد الله يا إسحق ما أهون الدنيا على الله عز وجل وقال الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى .

٩٠٢ - قالوا وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها ، وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت ، ولكنه يروى عن المسيح ، قال عبد الله بن أحمد حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن بديل بن مسيرة قال حدثنى جعفر بن خرقاش أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رأس الخطيئة حب الدنيا ، والنساء حباله الشيطان ، والخمر جماع كل شر .

٩٠٣ - وقال الإمام أحمد : حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفرى عن سفيان قال : كان عيسى بن مريم يقول : حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كثير . قالوا وما دأؤه ؟ قال لا يسلم من الفخر والخيلاء . قالوا فإن سلم ؟ قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل .

٩٠٤ - قالوا وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة ، فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة ، ولا سيما الخطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها ، وعن كراحتها واجتنابها ، وحبها يوقع فى الشبهات ثم فى المكروهات ثم فى المحرمات ، وطالما أوقع فى الكفر ، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا ، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصى التى كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم .

٩٠٥ - فكل خطيئة فى العالم أصلها حب الدنيا ولا تنس خطيئة الأبوين قديماً فإنما كان سببها حب الخلود فى الدنيا . ولا تنس ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التى محبتها شر من محبة الدنيا ، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما ، وأبو جهل وقومه واليهود ، فحب الدنيا والرياسة هو الذى عمر النار بأهلها ، والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمّر الجنة بأهلها ، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير ، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا فى ظلمة اللحد ، ولو انكشف عنه غطاؤه .



فى الدنيا لعلم ما كان فىه من السكر وأنه أشد من سكر الخمر .

٩٠٦ - والدنيا تسحر العقول أعظم سحر .

قال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال : سمعت مالك بن دينار يقول : اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة . فإنها تسحر قلوب العلماء .

٩٠٧ - وقال يحيى بن معاذ الرازى : الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى فلاماً بين الخاسرين ، وأقل ما فى حبها أنه يلهى عن حب الله وذكره ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين وإذا ألهاه القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد ، ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبد له لها وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا فقال : «لعن عبد الدينار والدرهم»<sup>(١)</sup> وقال تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، إن أعطى رضى وإن منع سخط»<sup>(٢)</sup> ، وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها .

٩٠٨ - وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها وتعرضت له فدفع فى صدرها باليدين وردها على عقبها ؟ ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم ، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ، ومنهم من استعرضها وقال ما فىك ؟ قالت فى الحلال والشبهة والمكروه والحرام ، فقالوا هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه ، فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه ، فطلبوا مكروها وشبهها ، فقالت قد أخذه من قبلكم فقالوا هاتى حرامك فأخذوه ، فطلبه من بعدهم فقالت هو فى أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحويلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرغبة ، فلا يد فاجر يده إلى شىء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية . كما قال ابن مسعود رضى الله عنه ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية . فالضيف مرتحل والعارية مؤداة .

٩٠٩ - قالوا وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه :

أحدهما : أن حبها يقتضى تعظيمها وهى حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٧٥) عن أبى هريرة وقال حسن غريب .

(٢) أخرجه البخارى (٦٤٣٥) عن أبى هريرة .

ما - ص ١١١ - رتانيها أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها . ومن أحب ما لعنه الله ومقتته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقتته وغضبه . وثالثها أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فانعكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء . منها فها هنا أمران: أحدهما جعل الوسيلة غاية . والثاني التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا . وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس . وهذا الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة وقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار \* وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ثم جعلنا له جهنم يصلها مذبذباً مذموراً<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب<sup>(٣)</sup> فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره .

٩١٠ - والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له كحديث أبي هريرة رضى الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: «الغازي والمتصدق والقاريء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب». وهو في صحيح مسلم.

٩١١ - وفي سنن النسائي عن أبي أمامة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات . يقول له رسول الله لا شيء له . ثم قال: «إن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله».

٩١٢ - وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل

(١) سورة: هود الآية (١٦-١٥).

(٢) سورة: الشورى آية: (٢٠).

(٣) سورة: الإسراء آية: (١٨).

(٤) سنن النسائي (٢٥/٦).

يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يتغنى عرض الدنيا، فقال له رسول الله ﷺ: «لا أجر له» فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل عد لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يتغنى عرض الدنيا . فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، ثم عاد الثالثة، فقال رسول الله: «لا أجر له»<sup>(١)</sup>.

٩١٣- وفى المسند أيضاً وسنن النسائى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من غزا فى سبيل الله عز وجل وهو لا ينوى غزاه إلا عقلاً فله مانوى»<sup>(٢)</sup>.

٩١٤- فى المسند والسنن عن يعلى بن منه قال: كان رسول الله ﷺ يبعثنى فى سرايا فبعثنى ذات يوم فى سرية وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له ارحل فإن النبى ﷺ قد بعثنى فى سرية، فقال ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة دنائير ففعلت . فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبى: «ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنائير»<sup>(٣)</sup>.

٩١٥- وفى سنن أبى داود أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله أخبرنى عن الجهاد والغزو، فقال: «يا عبد الله بن عمر إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً . وإن قاتلت مرأياً مكاثراً . بعثك الله مرأياً مكاثراً يا عبد الله بن عمر: على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال»<sup>(٤)</sup>.

٩١٦- وفى المسند أو السنن عن أبى أيوب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستفتح عليكم الأمصار وتضربون فيها بعوداً فيكره الرجل منكم البعث فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول من أكفيه بعث كذا وكذا إلا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه، فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار»<sup>(٥)</sup>.

(١) مسند أحمد (٢/ ٢٩٠).

(٢) مسند أحمد (٥/ ٣٢٩)، السنن (٦/ ٢٥٠، ٢٤٤).

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٢٣)، وأبو داود (٢٥٢٧).

(٤) سنن أبى داود (٢٥١٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٥) مسند أحمد (٥/ ٤١٣)، وأبو داود (٢٥٢٥).

### [ فصل ]

٩١٧ - ورابعها أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه . ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلفه فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً . ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات . ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره . ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي . فيفرط في وقته وفي حقوقه . ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهراً لا باطناً . وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها! هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا حديث قد روى مرفوعاً: «من أحب دنياه أضر بآخريته، ومن أحب آخريته أضر بدنيته، فأثروا ما بقى على ما يفنى»<sup>(١)</sup>.

### [ فصل ]

٩١٨ - وخامسها أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد . وقد روى الترمذى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له»<sup>(٢)</sup>.

### [ فصل ]

٩١٩ - وسادسها أن محبتها أشد الناس عذاباً بها وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها . وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه . فهذا أشد الناس عذاباً في قبره يعمل الهم والغم والحزن الحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه كما قال الإمام (١) أخرجه أحمد (٤/٤١٢)، وصححه ابن حبان (٢٤٧٣) موارد الظمان، والحاكم (٤/٣٠٨) عن أبي موسى الأشعري، وقال الذهبي فيه انقطاع.

(٢) الترمذى (٢٤٦٥).

أحمد . حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه أن حزقييل كان فيمن سبى بختنصر فذكر عنه حديثاً طويلاً وفي آخره قال : فيبيننا أنا نائم على شط الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى وضعني بقاع من الأرض ، قد كانت معركة ، قال وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرت أوصالهم . قال لى إن قوماً يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتي فأدعهم . قال حزقييل فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذى انقطع منه . ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق حتى أم بعضها بعظام نبت عليها اللحم ثم نبت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك . ثم قال ادع أرواحهم . قال فدعوتها فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذى فارق فلما جلسوا وسألتهم فيم كنتم؟ قالوا إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال ، هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك ستتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم قال فنظر في أعمالنا فوجدنا نعيد الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تأله، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تأله، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا .

٩٢٠- ولا يستريح عاشق الدنيا . فقولهم كنا نعيد الأوثان ، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان ، تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم .

٩٢١- والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه . قال تعالى : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ه ترهق أنفسهم وهم كافرون﴾<sup>(١)</sup> قال بعض السلف يعذبهم بجمعها وترهق أنفسهم بحبها ، وهم كافرون بمنع حق الله فيها .

### [ فصل ]

٩٢٢- وسابعها : أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً ، إذ أثر الخيال على الحقيقة . واثنتان على اليقظة ، والظل الزائل على النعيم الدائم . والدار الفانية على الدار الباقية : وباع حياة الأبد فى أرغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظل زائل . إن اللبيب يمثلها لا يخدع كما نزل أعرايى يقوم فقدموا له طعاماً فأكل ثم قام إلى ظل خيمه فنام فإقتلوا الخيمة فأصابته فإنتبه وهو يقول :

(١) سورة التوبة : آية (٥٥) .

وإن امرؤ دنياء أكبر همه  
مستمسك منها بحبل غرور  
وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها  
إن اغتراراً بظلل زائل حمق  
قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره  
وما يحب. فبينما هو كذلك انتبه.

٩٢٣ - وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو علي الطائي حدثنا عبد الرحمن البخاري  
عن ليث قال: رأى عيسى بن مريم الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة. فقال كم  
تزوجتي؟ قالت لا أحصيهم. قال فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت بل كلهم  
قتلته. فقال عيسى يؤساً لأزواجك الباقيين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم  
واحداً واحداً ولا يكونوا منك على حذر!

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها  
على أنهم فيها عُرّة وجوع  
أراها وإن كانت تُحِبُّ فانها  
سحابة صيف عن قليل تقشعُ

٩٢٤ - أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وإنقباض  
إن تبعته لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه  
لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، وأشبه الأشياء بها  
النام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره. فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له. وأشبه  
الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخير، يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح،  
فقال: لا مهر إلا نقد الآخرة فإنتا ضررتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فأثر  
الخطاب العاجلة وقالوا ما على من واصل حبيبته من جناح. فلما كشف قناعها وحل  
إزارها. إذا كل آفة وبلية فمنهم من طلق واستراح. ومنهم من اختار المقام فما  
استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

٩٢٥ - تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق يحيى على غير الفلاح، فقام  
المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالروح، وسروا ليلهم فلم يحمدهم  
القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور  
الجناح، فوقعوا في شبكها فأسلمتهم للذباح.

٩٢٦- قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شماء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها . بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم وإغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادى يا رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

٩٢٧- قال ابن أبي الدنيا: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عباد، حدثنا عوف عن أبي العلاء قال: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت فنظرت فتعجبت من نظرم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت لا. قالت أنا الدنيا قال قلت: أعوذ بالله من شرك . قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم .

٩٢٨- قال ابن أبي الدنيا: وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لي أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة شماء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت عليّ فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر .

٩٢٩- قال: وحدثنا محمد بن علي: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه قال: «إذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحللى والثياب، وإذا هي لا يمر بها أحد إلا جرحته. وإذا هي ادبرت كانت أحسن شيء رآه الناس. وإذا أقبلت أقبح شيء عجوز شماء زرقاء عمشاء. فقلت أعوذ بالله . قالت لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم. قال قلت: من أنت؟ قالت أنا الدنيا .

٩٣٠- ووصف علي رضي الله عنه الدنيا، فقال: دار من صح فيها هرم، ومن سقم فيها ندم. ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن. في حلالها الحساب. وفي حرامها النار.

٩٣١- وقال ابن مسعود رضى الله عنه: الدنيا دار من لا دار له. ومال من لا مال له. ولها يجمع من لا عقل له.

٩٣٢- وذكر ابن أبى الدنيا: أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم إليها عقوبة. فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها. والغناء فيها فقرها. لها فى كل خال قتيل. تذلل من أعزها وتفقر من جمعها. هى كاليسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمداو جرحاته يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزيت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وشوقت لخطاياها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، وهى لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترى وطفى ونسى المعاد فشغل فيها له حتى زلت عنها أقدامه. فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمع عليه سكرات الموت والمه، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها فى كمد، ولم يدرك منها ما طلب ولم يرح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين. وأسر ما تكون فيها أخطر ما تكون لها. فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه. السار فيها غداء ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء. وجعل البقاء فيها إلى فناء. فسروها مشوب بالحزن ما يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر. أمانها كاذبة. وآمالها باطلة. وصفوها كدر. وعيشها نكد. فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خيراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد ايقظت النائم الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ، فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها. وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه. أو يرفع ما وضع ملكه، فزواها عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

٩٣٣- وقال الحسن أيضاً: ابن آدم لا تعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها وغلّق أبوابها. حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل، وكان يقول: إن قوماً



أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها فأهنا ما يكون إذا أهتموها. هيهات هيهات. ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

٩٣٤- وقال المسيح عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، واعبروها ولا تعمروها. واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً. ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه. وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك منتهاه، والدنيا طالبة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه. وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه. يا معشر الحوارين ارضوا بدنئ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنئ الدين مع سلامة الدنيا.

٩٣٥- وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها، تنادى ربها: يا رب لم تبغضني، فيقول: اسكني يا لا شيء، اسكني يا لا شيء. وقال الفضيل: تحب الدنيا يوم القيامة فتتبختر في زيتها ونضرتها. فتقول يا رب اجعلني لأحسن عبادك داراً، فيقول لا أرضاك له، أنت لا شيء فكوني هباءً منثوراً.

### [فصل]

#### في ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

٩٣٦- المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً، وهي ما قبل المياد، وجود، وحالة أخرى وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما في الجنة وإما في النار. ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين في خلود دائم. ثم بين هاتين الحالتين وهي ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال: «مالي وللدينا إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها». وقال: «ما الدنيا في

الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما يرجع». وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى دار الآخرة؛ والمهد هو الركن الأول للقنطرة. واللحد هو الركن الثاني على آخرها، ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيف كان فلا بد من العبور، فمن وقف بينى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور. فهو في غاية الجهل والحمق.

### [فصل]

٩٣٧- المثال الثاني: شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا إنتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألد طعماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيحها أقدر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألد وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقدته يقوى بقدر محبة المحبوب.

٩٣٨- وفي المسند أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه الماء واللبن؟». قال بلى، قال: «فالإم يصير»، قال: إلى ما قد علمت، قال: «فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم». كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

### [فصل]

٩٣٩- المثال الثالث: لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم من الحسرات، مثل أهلها في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فأنتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة فتفرقوا في نواحي الجزيرة ففضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن و ألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه، وأكب بعضهم

على تلك الجحارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله. فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده حمله، ضيقاً، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بدأ ولم يجد له في السفينة موضعاً، فحمله على عنقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت رائحتها وأذاه ننتها، وتولع بعضهم في تلك الغياض ونسى السفينة وأبعد في نزهته، حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيته، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأزهار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سيع يخرج عليه غير منك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجزح بدنه، أو عوسج<sup>(١)</sup> يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهم على وجهه حتى هلك. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردتهم وعاقبة أمرهم. وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيماً قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

### [فصل]

٩٤٠- المثال الرابع: لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة. قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثلكم قوم سلكوا مفازة غرباء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفذوا الزاد وحسروا الظهر ويقوا بين ظهرائي المفازة. لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة. فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه فقالوا إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب. فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء علام أنتم. قالوا على ما ترى؟ قال أرايتم أن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تجمعون لي؟ قالوا لا نعصيك شيئاً. قال عهدكم ومواثيقكم بالله. قال فأعطوه عهدهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال فأوردتهم ماء ورياضاً خضراء قال فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء الرحيل قالوا إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال

(١) نبات شائك من العائلة الباذنجانية.

جُلُ القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده. وما نصنع بعيش هو خير من هذا! قال وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه. فوالله ليصدقنكم في آخره. فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل».

### [فصل]

٩٤١- المثال الخامس: للدنيا وأهلها ما مثلها به النبي ﷺ كظل شجرة، والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ثم راح وتركها فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء. فإنها في خضرتها كشجرة وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل. والعبد مسافر إلى ربه والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبنى تحتها داراً ولا يتخذها قراراً، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

### [فصل]

٩٤٢- المثال السادس: تمثله لها ﷺ بمدخل أصبعه في اليم، فالذي يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. وهذا أيضاً من أحسن الأمثال فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً بعد كل ألف سنة طائر ينقل خردله لفنى الخردل والآخرة لا تفنى. فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل، ولهذا لو أن البحر يمد من بعده سبع أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله لفدت الأبحر والأقلام ولم تنفذ كلمات الله، لأنها لا بداية لها، ولا نهاية لها والأبحر والأقلام متناهية.

٩٤٣- قال الإمام أحمد وغيره: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكماله المقدس مقتض ~~ل~~للكلامه، وكماله من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً، والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم وهو ~~سبحانه~~سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سامة من الكلام وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته. ~~فكلماته~~فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره، وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلهياً لا إله إلا هو. والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة، وساعة من ساعاتها.

## [فصل]

٩٤٤- المثال السابع: ما مثلها به ﷺ في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا». فقال رجل: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: «كيف قلت؟»، قال يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً<sup>(١)</sup> أو يُلَمُّ<sup>(٢)</sup>، إلا آكلة<sup>(٣)</sup> الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاضرتها استقبلت الشمس فثلطت<sup>(٤)</sup> وبالت ثم اجترت فعادت فأكلت فمن أخذ مالا بحقه بُورك فيه، ومن أخذ مالا بغير حقه فمثلته كمثل الذى يأكل ولا يشبع»<sup>(٥)</sup>، فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهرة فشبهها بالزهر فى طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقاءه، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

٩٤٥- وقوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلَمُّ»، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرّة فيها. وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فرمما هلك حبطاً، والحبط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض يقال حبط الرجل والدابة تحبطاً حبطاً إذا أصابه ذلك؛ ولما أصاب الحارث بن مازن عمرو بن تميم ذلك فى سفره فمات حبطاً فنسب الحبطى كما يقال السلمى. فكذلك الشرّ فى المال يقتله شرهه وحرصه. فإن لم يقتله قارب أن يقتله. وهو قوله: «أو يُلَمُّ». وكثير من أرباب الأموال إنما تقتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا فى جمعها واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

٩٤٦- وقوله: «إلا آكلة الخضر»، هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثله بالاشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها: «أكلت حتى إذا امتلأت خاضرتها». وفى لفظ آخر: «امتدت خاضرتها»، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام. وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

(١) حبطاً: أى نخمة وهى امتلاء البطن.

(٢) آكلة الخضر: أى الماشية التى تأكل الخضر.

(٣) آكلة الخضر: أى الماشية التى تأكل الخضر.

(٤) البخارى (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

(٢) يُلَمُّ: يقارب الإهلاك.

(٤) ثلط البعير إذ ألقى رجماً سهلاً رقيقاً.

٩٤٧- وفى قوله: «استقبلت عين الشمس فنبطت وبالت» ثلاث فوائد:

إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبله الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته.

الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره فى المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التى يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعت من المرعى فى بطنها، فاستراحت بإخراجه، ولو بقى فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

٩٤٨- وأول الحديث: «مثل الشره فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلها»، فمثاله مثال للدابة التى حملها شره الأكل على أن يقتلها خطأ أو يلم إذا لم يقتلها، فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال فتتشق أمعاؤها وتهلك، وكذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها، ويحبسها أو يصرفها فى غير حقها.

٩٤٩- وآخر الحديث مثل للمقتصد بأكلة الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها وهكذا. هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال فى حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به فنجاً من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجاً من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

٩٥٠- وفى هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرتة، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً.

٩٥١- وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثّر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه. وبالله التوفيق.

### [فصل]

٩٥٢- المثال الثامن: مارواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن سليمان بن يسار، عن ميمونة قالت: قال رسول الله ﷺ لعمر بن العاص: «الدنيا خضرة حلوة. فمن اتقى الله فيها وأصلح وإلا فهو كالآكل ولا يشبع. وبين الناس في ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع في المشرق والآخر يغيب في المغرب»<sup>(١)</sup>. فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها، وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لاهلها وحببت إليهم لاسيما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل:

ونحن بنو الدنيا ومنها نباتنا وما أنت منه فهو شيء مجيب

٩٥٣- وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما: مصلح متقى، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها في غير حقها فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها فكان كالذي يأكل ولا يشبع وهذا من أحسن الأمثلة، فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة وذلك تابع لقدر الحاجة وليس المقصود منه ذاته ونفسه، فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع. ولهذا قال الإمام أحمد: الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى. وأخبر عن تفاوت الناس في المنزلتين - أعنى منزلة التقوى والإصلاح، ومنزلة الأكل والشهرة - وأن بين الرجلين في ذلك كما بين الكوكبين الغارب في الأفق والطارق منه، وبين ذلك منازل متفاوتة.

### [فصل]

٩٥٥- المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها». قالوا: ومن هوانها ألقوها يارسول الله، قال: «فو الذي نفس محمد بيده الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها». قال الترمذى: حديث حسن صحيح، فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها.

وفى مسند الإمام أحمد فى هذا الحديث: «والذى نفسى بيده الدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها»؛ فأكد ذلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧٠٩٩)، والطبرانى فى الكبير (٢٤/٢٤) مختصراً وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٤٦/١٠) فيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف.

أهون وأحق. سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة، لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلودها. وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان. والله المستعان.

### [فصل]

٩٥٦- المثال العاشر: مثلها مثل البحر الذي لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة، فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمروهم بعملها وركوبها، وهي طاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له والتشهير للآخرة وإرادتها والسعي لها سعيها.

فنهض الموفقون وركبوا السفينة ورغبوا عن حوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحة وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة وهم أهل الدنيا فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض.

فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع، وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر، فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

### [فصل]

٩٥٧- المثال الحادي عشر: مثالها إناء مملوء عسلاً رآه الذباب فأقبل نحوه، فبعضه قعد سى حافة الإناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار، وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الإناء ووسطه فلم يدعه إنغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك في وسطه.

### [فصل]

٩٥٨- المثال الثاني عشر: مثال حب قد نثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة في فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس فيه فخاخ، فجاءت الطير، فمئنا من قنع بالجوانب



ولم يرم نفسه في وسط الحب فأخذ حاجته ومضى، ومنها من حملة الشره على اقتحام معظم الحب، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذه الفخ له.

### [فصل]

٩٥٩- المثال الثالث عشر: كمثل رجل أوقد ناراً عظيمة فجعلت الفراش والجنادب<sup>(١)</sup> يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها، ومن له علم بحالها جعل يستضيء ويستدفيء بها من بعيد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث الذي رواه مالك بن إسماعيل، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن عمر رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إني ممسك بحجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم». وفي لفظ آخر: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاحمون فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبوني وتقاحمون فيها»<sup>(٢)</sup>، وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم إلى الآخرة وهم يتقاحمون في الدنيا تقاحم الفراش.

### [فصل]

٩٥٩- المثال الرابع عشر: مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهلهم فمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا خيمهم وبنوا هنالك الدور والقصور، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته، فقال إني رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم، فاتبعوني أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه، فأطاعته طائفة قليلة: فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجاة أتيتم أتيتم، وصاح السامعون له بأهلهم وأولادهم وعشائهم، فقالوا كيف نرحل من هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطنناه، فقال لهم الناصح لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه وإلا فهو مأخوذ وماله محتاج فثقل على أصحاب الجد<sup>(٣)</sup> والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحقق لى أسوة بالقاعدين،

(١) الجنادب جمع جُنْدَب: نوع من الجراد يطير ويقفز

(٢) أخرجه البخارى (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) عن أبى هريرة، ورواه مسلم أيضا عن جابر (٦٤٨٥).

(٣) أى أصحاب المكانة والمنزلة الرفيعة.

هم أكث من مالا وأهلاً، فما أصابهم أصابني معهم، ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وسبح الجيش أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

٩٦١- وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم: إنى رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان فالتجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ماجئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق»<sup>(١)</sup>.

### [فصل]

٩٦٢- المثال الخامس عشر: رجل هياً داراً وزينها ووضع فيها من جميع الآلات، ودعى الناس إليها، فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير، وقدم إليه طبقاً من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه فى الدار، ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف، يجلس حيث أجلسه. ويأكل ما قدمه له ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه. فدخل الدار كريماً وتمتع فيها كريماً. وفارقها كريماً، ورب الدار غير ذام له، وأما الأحق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان فى الدار يخبئها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الناس. ورب الدار يشاهد ما يصنع. وكرمه يمنعه من إخراجه من داره حتى إذا ظن أنه استبدت تلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفى آلاتها تصرف المالك الحقيقى، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكاها عبيده فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار واقتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

(١) البخارى (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقيقة والله المستعان.

٩٦٣- قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤاده.

٩٦٤- وفى الصحيحين، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا فأحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب وقال، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت يا أبا طلحة: أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال لا، قالت فاحتسب ابنك قال فغضب. قال تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابنى، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكم فى ليلتكما»<sup>(١)</sup>. وذكر الحديث.

### [فصل]

٩٦٥- المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة، فاجأهم العطش، فانتهوا إلى البحر وماؤهم أمر شئ وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته فشربوا منه فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شرباً ازدادوا ظمأً، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً. وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمأه عنه فتباعدهوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة، فحفروا قليلاً فيها فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر هلموا إلى الماء الفرات. وكان منهم المستهزئ ومنهم المعرض الراضى بما هو فيه وكان المجيب واحداً بعد واحد، وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

### [فصل]

٩٦٦- المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل له ثلاثة إخوة فقضى له سفر بعيد طويل لا بد له منه. فدعا إخوته الثلاثة وقال: قد حضر

(١) البخارى (١٣٠١)؛ ومسلم (٢١٤٤)، وقوله «تلطخت أى تقذرت وتدنت - معنى - بسبب الجماع.

ماترون من هذا السفر الطويل وأحوج ماكنت إليكم الآن، فقال: أحدهم أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب وما عندي غير هذا، فقال له لم تغن عني شيئاً فقال للآخر ما عندك ؟ فقال كنت أخاك وصاحبك إلى الآن وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب. فقال له أنا محتاج إلى مرافقتك في مسيرى فقال لا سبيل لك إلى ذلك، فقال: لم تغن عني شيئاً، فقال للثالث ما عندك أنت ؟ فقال كنت صاحبك في صحتك ومرضك وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك في مسيرك، فإن سرتُ سرتُ معك، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبداً، فقال إن كنت لأهون الأصحاب علىّ، وكنت أؤثر عليك صاحبك، فليتنى عرفت حقك وأثرتك عليهما.

فالأول ماله، والثاني أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث عمله، وقد روى في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت. رواه أبو جعفر العجلي في كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة. وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعاً، وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع.

### [فصل]

٩٦٧- المثل الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى داراً لم ير الراءون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقاً وبعث داعياً يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحللى والحلل ومر الناس كلهم عليها وجعل لها أعواناً وخداماً تحت يدها ويد أعوانها زاداً للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غص طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وإبتغى منك زاداً يوصله إلى فأخذه وزوده، ولا تعوقه عن سفره إلى بل أعينه بكل ما يبلغه في سفره ومن مد إليك عينيه ورضى بك وآثرك علىّ. وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان. وإستخديه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش. ومن يأكل منك فأخذه به قليلاً ثم إسترده منه وإسليه إياه كله، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً حتى تنقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة والله المستعان؛ وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله عز وجل: «يادنيا اخدمى من خدمنى واستخدمى من خدمك»<sup>(١)</sup>.

### [فصل]

٩٦٨- المثال التاسع عشر: ملكٌ خط مدينة فى أصلح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياهاً، وشق أنهارها وغرس أشجارها. وقال لرعيته تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها، فمن سبق إلى مكان فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤا مساكنهم فيها. وبقي من أصحاب الخسرات، ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية: وفى الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لهم: لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل، تجث من أصلها. ويذهب ظلها، وينقطع ثمرها وتموت أطيارها، وأما مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد، ونعيمها سرمدي، وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فسمع الناس بها فخرجوا فى طلبها على وجوههم، فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ، فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها، فقليل لهم إنما نزلتم تحتها لتخفوا أنفسهم وتضمروا مراكبكم للسباق، فتهينوا للركوب، وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدرتكم حلبة السباق، فقال الأكثرون كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسيل، والفاكهة النضجة والدعة والراحة ونقتحم هذه الخلبة فى الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها الأمعاء وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلى مالا نراه وذرة منقودة فى اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد، خذ ما نراه ودع شيئاً سمعت به، ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فى بلد بعيد لا ندرى متى نصل إليه. ونهض من كل ألف واحد وقالوا والله ما عقمنا هذا فى ظل زائل تحت شجرة قد دنى قلعها وانقطع ثمرها وموت أطيارها ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول والعيش الهنىء الذى لا ينقطع إلا من

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٤٤/٨) والنضا فى مسند الشهاب (١٤٥٤) عن ابن مسعود وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (١٣٦/٣).

أعجز العجز وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه<sup>(١)</sup> عليه. ويتخذ  
وطنه خشية التأذى بالحر والبرد هل هذا إلا أسفه السفه. فالسباق السباق والبدار البدار.

حكم المنية في البرية جارى      ما هذه الدنيا بدار قرار  
اقضوا مآربكم سراعاً إنما      أعماركم سفرٌ من الأسفار  
وتراكضوا خيل السباق وبادروا      أن تُستردَّ فإنهنَّ عواري  
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل      أنتم على سفر بهذى الدار  
من يرجو طيب العيش فيها إنما      يبنى الرجاء على شفير هار  
والعيش كل العيش بعد فراقها      فى دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا حلبة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا فى ظهور العزائم ولم  
تأخذهم فى سيرهم لومة لائم. والمتخلف فى ظل الشجرة نائم. فوالله ما كان إلا قليل  
حتى ذوت أغصان تلك الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها.  
وانقطع مشربها فقلعها قِيَمها من أصلها فأصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون. وعلى  
ماقاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون.

أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها ناراً تلظى وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع  
أحد منهم الخروج. فقالوا أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه؟  
فقليل لهم ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم. فأروهم من البعد فى قصور مدينة الملك  
وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحشرات ألا يكونوا معهم وزاد  
تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون. وقيل هذا جزاء المتخلفين: ﴿وما ظلمناهم  
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾<sup>(٢)</sup>.

### [فصل]

٩٧٠- المثال العشرون: ما مثلها به النبى ﷺ من الثوب الذى شق وبقي معلقاً  
بخيطة فى آخره، فما بقاء ذلك الخيط؟ قال ابن أبى الدنيا حدثنى الفضل بن جعفر حدثنا  
وهب بن حماد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس

(٢) هو البيت من الوبر أو الشعر أو الصوف، وقيل المنزل أيضاً.  
(١) سورة النحل: آية (١١٨).

ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي معلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»<sup>(١)</sup>.

٩٧١- وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح فانظر إلى ما رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً، ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس هل بقي منها شيء، فقال: «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»<sup>(٢)</sup>.

٩٧٢- وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن حكيم عن ابن عمر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا فيما مضى منه»<sup>(٣)</sup>.

٩٧٣- وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

فالدنيا كلها كيوم واحد بعث رسول الله ﷺ في آخره قبل غروب شمسه بيسير.  
٩٧٤- وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما عنه ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى<sup>(٤)</sup>.

٩٧٥- وكان بعض السلف يقول: تصبروا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، وإنه قد نعت إليكم أنفسكم والموت حبس لا بد منه والله بالمرصاد، وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٣١/٨) وقال حديث غريب.

(٢) مسند أحمد (٦١/٣).

(٣) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/١٠) رجال الصغير والأوسط رجال الصحيح.

(٤) البخارى (٦٥٠٥)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٥) يخرج الإنسان من الدنيا عند موته على ثلاث درجات بيتها آخر سورة الواقعة كما أشار المصنف رحمه الله:

قال الله عز وجل: «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من جهنم وتصلية جهنم». [سورة الواقعة: الآية: ٨٨ - ٩٤].

### [فصل]

٩٧٦- المثال الحادى والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير ملىء ماء وجعل مورداً للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه إلا كدر فى أسفله قد بالت فيه الدواب وخاضته الناس والأنعام. كما روى مسلم فى صحيحه عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم فقال فى خطبته: «إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصابها صاحبها وإنكم منتقلون عنها إلى دار لازوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»<sup>(١)</sup>. وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً فما بقى منها إلا قليل من قليل. ومثل ما بقى منها: كالثغب شرب صفوه وبقي كدره - الثغب: الغدير.

### [فصل]

٩٧٧- المثال الثانى والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت فيها الأحداث والآفات وطرقها المحن، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة فى محل لا يطرقة آفة ولا عاهة، وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فتودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد. وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما فى تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة، وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك، وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل، ونهج لهم الطريق ونصب لهم الأعلام، وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى أثر بعض. فانقسموا فرقاً، فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة، وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك. وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه. فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل فسألوا عن خير ما فى المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه فى مدينته فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها فكان همهم فى تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى الآخرين، وأقبلت فرقة

(١) مسلم (٢٩٦٧)، وقوله: «بصرم» أى بانقطاع، و«حذاء» أى مسرعة الانقطاع، و«الصباية» البقية اليسيرة من الشراب، و«يتصابها صاحبها» أى يشربها.



أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا في كثرتها وهم على مراتب. فمنهم من أحماله ~~البحر~~ البحر. ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر همهم وما يليق بهم. لكن همهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة. وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور في تلك المدينة والاشتغال بطيبتها ولذاتها ونزهها. وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً فإن شاركتمونا في عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها وإلا لم نتمكنكم من النقلة ولا من شيء من الخلع، فوقعت الحرب بينهم فقاتلوا السائرين، فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهلبيهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها، وأقبلت فرقة أخرى على النزه والبطالة والراحة والدعة. وقالوا لا نتعب أنفسنا في عمارتها ولا ننقل منها، ولا نعارض من أراد النقلة ولا نحاربهم ولا نعاونهم، وكان للملك فيها قصر فيه حريم له، وقد أحاط عليه سوراً وأقام عليه حرساً، ومنع أهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه باباً يدخلون منه، فعدوا على جدرانها فنقبوها ووصلوا إلى حريمه فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم. فبينما هم على تلك الحال وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحد منهم من التخلف، فحملوا على تلك الحال وأحضروا بين يدي الملك فاستعرضهم واحداً واحداً، وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه، فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه ورد منها ما لا يصلح له وضرب به وجوه أصحابه، وقابل من نقب حماه وأفسده حريمه بما يقابل به المفسدون فسألوا الرجعة إلى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار. فقال هيئات قد خربت المدينة خراباً لا تعمر بعده أبداً، وليس بعدها إلا المدينة التي لا تخرب أبداً.

### [فصل]

٩٧٨- وقد مثلت الدنيا بتمام، والعيش فيها بالحلم، والموت باليقظة؛ ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذور، والحصاد يوم المعاد. ومثلت بدار لها بابان يدخل منه الناس وباب يخرجون منه. ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون وضربتها الموت؛ ومثلت بطعام مسموم لذيق الطعم طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد

على حاجته كان فيه حقه. ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه كما أشار إليه النبي ﷺ في آكلة الخضر وقد تقدم، ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عيني فتنت بهما الناس، وهي تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وألقتهم في الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحديثاً. والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات، وهم ينافسون في مصارعهم: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾<sup>(١)</sup>، ويكفي في تمثيلها ما مثلها لله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

٩٧٩- قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها.

٩٨٠- قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في الله والدار الآخرة أبداً، ولا تسكن هاتان الرغبةان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً.<sup>(٢)</sup>

٩٨١- قالوا: ويكفي أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها، ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً فاختار جوع يوم وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لاهله، كما تقدم ذكره.

٩٨٢- قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام: قسم: لم يريدوا الدنيا ولم تردهم كالصديق ومن سلك سبيله. وقسم: أرادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر ابن الخطاب ومن سلك سبيله. وقسم: أرادوا الدنيا وأرادتهم كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم، حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادتة ولم يردها. وقسم: أرادوها ولم تردهم كمن أقر الله منها يده، وأسكنها في قلبه وامتنع بجمعها. ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول. والثاني: إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول.

(١) سورة إبراهيم: آية (٤٥).

(٢) هذه إشارة إلى الحديث الذي رواه أبو داود (٢٠٦٩) وأحمد في مسنده (٣٢٦/٤) عن المسور بن مخرمة أن علياً عليه السلام أراد أن يخطب ابنة أبي جهل فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «والله لا تجتمع ابنة رسول الله ﷺ وابنة عدو الله عند رجل واحد».

٩٨٣- قالوا: وقد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدلّه على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس، فقال له: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»<sup>(١)</sup>. فلو كان الغنى أفضل لدله عليه.

٩٨٤- قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها، فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية. هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه، فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان.

٩٨٥- قالوا: وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد، فهذا الزاني المحصن عقوبته الرجم، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد.

٩٨٦- قالوا: وكيف يستوى عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسوته، وخضوعه وتجرع مرارته وتحمل أعبائه ومشاقه، وعزة الغنى ولذته وصولته والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته، فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى، وأين أجر مشقة المجاهدين، إلى أجر عبادة القاعدين في الأمن والدعة والراحة؟.

٩٨٧- قالوا: وكيف يستوى أمران: أحدهما حفت به الجنة والثاني: حفت به النار فإن أصل الشهوات من قبل المال، وأصل المكاره من قبل الفقر.

٩٨٨- قالوا الفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعري والحاجة وآلام الفقر. وكل واحد منها يكفر ما يقاومه من السيئات. وذلك زيادة على أجره بأعمال البر، فقد شارك الأغنياء بأعمال البر، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدى فله سبيل إلى لحاقهم فيه. وله مثل أجورهم، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون، فيقول لو أن لى مالا لعملت بأعمالهم فهو بنيتهم وأجرهما سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري.

٩٨٩- قالوا: والفقير في الدنيا بمنزلة المسجون إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملأها والغنى متخلص من هذا السجن: وقد قال النبي ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) عن سهل ابن سعد، وحسنه النووي في رياض الصالحين (٤٧٥).

وجنة الكافر»<sup>(١)</sup>، فالغنى إن لم يسجن نفسه عن دواعى الغنى وطغيانه، وأرسلها فى ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له، فإنما نال الفضل بتشبيهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره.

٩٩٠- قالوا: وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طبيباته فى الحياة الدنيا، وإنه لحرى أن يكون عوضاً عن طبيبات الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه، بخلاف من استكمل طبيباته فى الآخرة لما منع منها فى الدنيا، وأتى رسول الله ﷺ بسويق لوز فأبى أن يشربه، وقال: «هذا شراب المترفين»<sup>(٢)</sup>.

٩٩١- قالوا: وقد سئل الحسن البصرى ف قيل له: رجلان أحدهما تارك للدنيا، والآخر يكتسبها ويتصدق بها؟ فقال التارك لها أحب إلى.

٩٩٢- قالوا: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة: عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها. فقال الذى لم يلتفت إليها أفضل ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مربها ولم يلتفت إليها ولو أخذها لأنفقها فى سبيل الله.

٩٩٣- قالوا: والفقير الفقيه فى فقره يمكنه إلحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله، فيساويه فى أجره ويتميز عنه بعدم الحساب لعدم المال، فساواه بثوابه، وتخلص حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسائة عام وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

٩٩٤- قال الإمام أحمد: حدثنا عبادة بن مسلم حدثنى يونس بن خباب عن أبى البحتري الطائى عن أبى كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهم وأحدنكم حديثاً فاحفظوه فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه مانقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذى أحدنكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم فيه لله حقاً، فهذا بأفضل المنازل عند الله، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو يقول: لو

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) عن أبى هريرة.

(٢) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٨٩/٢) وقال لا يصح الخبر - يعنى أبو الوزير - وهما مجهولان.

كان لى مال عملت فيه بعمل فلان. قال فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله ما لا ولم يرزقه علماً فهو يتخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان، قال فهو بنيته ووزرهما سواء<sup>(١)</sup>. فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته، والغنى هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل، والفقير إنما نقص بسوء نيته، فلم يتفع الغنى غناه مع التخلف، ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية، ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا ففى هذا بيان كاف شاف فى المسألة حاكم بين الفريقين وبالله التوفيق.

\*\*\*

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٣١).

#### الباب الرابع والعشرون

##### فى ذكر مااحتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

٩٩٥- قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها، ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار، ونحن نحاكمكم إلى محاكمتونا إليه، ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه. ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لايعزل، فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من الفضول، ولكن أخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين وليس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها، وأبعدهم من الفقر والصبر، من كل مظهر للفقر مبطن للحرص، غافل عن ربه متبع لهواه مفرط فى أمر معاده، قد جعل زى الفقر صناعة، وتحلى بما هو أبعد الناس منه بضاعة، أو فقير حاجة فقره إضطراراً لا اختياراً، فزهده زهد إفلاس لازهد رغبة فى الله والدار الآخرة. أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله غير راض عن ربه فى فقره، بل إن أعطى رضى وإن منع سخط، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها، وهو أفقر الناس فيها فهو أرغب شئ فيها، وهى أزهى شئ فيه، وأخرجوا من بيننا ذى الثروة الجموع المتنوع المتكاثرة بماله المستأثر به الذى عض عليه بناجذه، وثنى عليه خناصره، يفرح بزيادته ويأسى على نقصانه. فقلبه به مشغوف، وهو على تحصيله ملهوف، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى، وإن دعى إلى الإيثار أمعن فى الهرب جداً، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم وناقسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهمتهم إلى المسابقة إليه. ينظر غنيهم إلى فقيرهم فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمر إلى اللحاق به، وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاتته بإنفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه، فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة، وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العذاب وأسفل منه. والله المستعان.

٩٩٦- إذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه فى كتابه أعمالاً وأثنى على أصحابها ولا

تحصل إلا بالغنى كالزكاة والإنفاق فى وجوه البر والجهاد فى سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة وإغاثة المحاييج، وفك الرقاب والإطعام فى زمن المسغبة.

٩٩٧- وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته؟، وأين يقع صبره من نفع الغنى بماله فى نصره دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟.

وأين يقع صبر أبى ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين فى الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرته الإسلام حين قال النبى ﷺ: «مانفعنى مال أحد مانفعنى مال أبى بكر»<sup>(١)</sup>.

وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التى قال له رسول الله ﷺ فى بعضها: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»<sup>(٢)</sup>، ثم قال: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت» أو كما قال.

٩٩٨- وإذا تأملت القرآن وجدتم الثناء فيه على المتقين أضغاف الثناء على الفقراء الصابرين. وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى وفسر اليد العليا بالمعطية، والسفلى بالسائلة<sup>(٣)</sup>. وقد عدد الله سبحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التى نقله إليها. وفقره الحالة التى نقله منها وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه. وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾<sup>(٤)</sup> أن المراد به الحالتان أى كل حالة خير لك مما قبلها ولهذا أعقبه بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾<sup>(٥)</sup>. فهنا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة.

٩٩٩- قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾<sup>(٦)</sup>.

١٠٠٠- قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين؛ لتقويتهم إياهم

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٦١) وقال حسن غريب وابن ماجه (٩٤) وصححه ابن حبان (٦٨٥٨) عن أبى هريرة.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٠١) عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة قال الترمذى حسن غريب.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٣٣) عن عبد الله بن عمر بلفظ «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة» وأخرجه البخارى (١٤٢٧) عن حكيم بن جزام بدون هذا التفسير.

(٤) سورة الضحى: الآية (٤).

(٥) سورة الضحى: الآية (٥).

(٦) سورة البقرة: الآية (١٠٥).

بالصدقة عليهم . لإحسان عليهم؛ وإعانتهم على طاعتهم. فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التي تخصهم كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وذكر شهر رمضان فقال: «من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار. وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء»<sup>(١)</sup>، فقد حاز الغني الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذي فطره.

١٠٠١- قالوا: ولو لم يكن للغني الشاكر إلا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر النضر بن شميل عن قُرة، عن سعيد بن المسيب: أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة أنا أفضلكم.

١٠٠٢- قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار. والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

١٠٠٣- وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته»<sup>(٢)</sup>.

١٠٠٤- وقال يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة يرفعه: «كل أمرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس، قال يزيد وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة»<sup>(٣)</sup>.

١٠٠٥- وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»<sup>(٤)</sup>.

١٠٠٦- وروى البيهقي، من حديث أبي يوسف القاضي، عن المختار بن قُفل، عن يرفعه: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء يتخطى الصدقة»<sup>(٥)</sup>.

(١) صحيح ابن خزيمة (١٨٨٧) وساقه بما يدل على ضعفه فقال: وإن صح الخبر.  
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦/١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠/٣) فيه ابن لهيعة وفيه كلام.  
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨، ١٤٧/٤)، وأبو يعلى (١٧٦٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم في المستدرک (٤١٦/١) وأقره الذهبي، وصححه أيضاً ابن حبان (٣٣١٠).  
(٤) أخرجه الترمذی (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٢) وقال الترمذی حسن صحيح.  
(٥) السنن الكبرى للبيهقي (١٨٩/٤)، وأخرجه ابن عدی في الكامل (١٠٩٩/٣)، ورواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي (١١٠/٣) فيه عيسى بن عبد الله بن محمد وهو ضعيف.



١٠٠٧- وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إذا تصدق العبد من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيباً - أخذها الله بيمينه فبربها لأحدهم كما يرى أحدكم فلوله أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم»<sup>(١)</sup>. وفى لفظ البيهقى فى هذا الحديث: «حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد».

١٠٠٨- وقال محمد بن المنكدر: من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان<sup>(٢)</sup>. وقد روى مرفوعاً من غير وجه.

١٠٠٩- وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلباً<sup>(٣)</sup> على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش وأشبع الجياع وكسى العراة من المسلمين وقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»<sup>(٤)</sup>. فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها.

١٠١٠- قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان. وتفريحهما القلب وتقويتها إياه وما يلقى الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم فى قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم، من أجر الصبر على الفقر، نعم إن له لأجراً عظيماً لكن الأجر درجات عند الله.

١٠١١- قالوا: وأيضاً فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عبادة إليه من اتصف بذلك، كما قال النبى: «الخلق عيال الله فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»<sup>(٥)</sup>.

١٠١٢- قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَصْدُوقِينَ وَالْمَصْدُوقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يَضَاعَفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ \* وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ

(١) أخرجه البخارى (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) وقوله: «فلوله أو فصيله» فالقول المهرسمى بذلك لأنه فلى عن أمه أى فصل وعزل، والفصيل ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه.

(٢) السغبان: أى الجوعان.

(٣) أخرجه البخارى (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبى هريرة.

(٤) أخرجه البخارى (٦٠٢٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٥) أخرجه أبو يعلى فى مسنده عن أنس (٣٣١٥)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد فيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك انظر مجمع الزوائد (١٩١/٨).

أجرهم ونر<sup>(١)</sup>. فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات.

١٠١٣- قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله، فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم.

قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم وتطفىء الخطيئة وتحفظ المال، وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان - يعني الصدقة - وتركي النفس وتنميها وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه وتستتر عليه كل غيب - كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة - وتزيد في العمر وتستجلب أذية الناس ومحبتهم. وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر فلا تستعصى عليه. وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

١٠١٤- قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحي والستير والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف. ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم. فصفتة الغنى والجود ويحب البغنى الجواد.

١٠١٥- قالوا ويكتفى في فضل النفع المتعدى بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل. فمن كسى مؤمناً بحساء الله من حلل الجنة. ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآنًا سقاه الله من شراب الجنة، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرّجه بفرجه، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

١٠١٦- قالوا: ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر، ولكن أين تقع من هذه الفضائل وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

١٠١٧- قالوا: وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الحديد: آية (١٨، ١٩).

(٢) البخاري (٥٨٢/٩) معلقاً وأخرجه الترمذي (٢٤٨٦) موصولاً من حديث أبي هريرة.

ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى، فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه. وهذا دليل مستقل في المسألة يوضحه أن الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أعلى من الصابر، فإذا كان الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أفضل من الصابر كان أفضل من الصابر فى درجتين.

١٠١٨- قالوا: وفى الصحيحين، من حديث الزهرى، عن سالم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار»<sup>(١)</sup> فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به.

١٠١٩- قالوا: وقد صرح فى حديث أبى كبشة الأنمارى أن صاحب المال إذا عمل فى ماله بعلمه، واتقى فيه ربه. ووصل به رحمه، وأخرج منه حق الله فهو فى أعلى المنازل عند الله، وهذا تصريح فى تفضيله. وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانياً، وأنه بنيت وقوله وأجرهما سواء. فإن كلاً منهما نوى خير وعمل ما يقدر عليه فالغنى نواه ونفذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه، فاستويا فى الأجر من هذه الجهة، ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استوائهما فى كفيته وتفاصيله، فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التى قارنها القول ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وإن أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

١٠٢٠- وإذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبى ﷺ: «من سأل الله الشهادة صادقاً من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»<sup>(٢)</sup>. ولا ريب أن ما حصل للمقتول فى سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كفيته وصفاته على ما حصل لناوى ذلك إذا مات على فراشه، وإن بلغ منزلة الشهيد فيها هنا أجرين: أجر وقرب، فإن استويا فى أصل الأجر لكن الأعمال التى قام بها العامل تقتضى أثراً رائداً وقرباً خاصاً وهو فضل الله يؤتیه من يشاء، وقد قال ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول

(١) البخارى (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩) عن سهل بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده.

فى النار»، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه»<sup>(١)</sup>، فاستويا فالقاتل فى دخول النار ولا يلزم استواءهما فى الدرجة ومقدار العذاب؛ فأعطى ألفاظ رسول لله حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد.

١٠٢١- يوضح هذا أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور<sup>(٢)</sup> بالأجور، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتبرون ويجاهدون ويتصدقون. قال: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم. ولا يكون أحداً أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». فلو كانوا يلحقون بهم فى مقدار الأجر بمجرد النية لقال لهم انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فنالوا مثل أجرهم، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعق والحج والاعتماد بما يحصل نظيره بالذكر علم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإتفاق، فلما شاركهم فى الذكر بقيت مزية الإتفاق فشكوا إلى رسول الله أن الامتياز لم يزل. وأنهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصلاة، فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

١٠٢٢- قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة، وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم فى الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ثم فضلوكم بالإتفاق فى التكبير والتسبيح والتهليل ما يلحقكم بدرجتهم وقد ساوَيْتموهم أيضاً بحسن النية إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم وفى بعض ألفاظ هذا الحديث: إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم يلحقكم من بعدكم. وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم وإن قالوا قبل، مثل قولهم ﷺ «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» معناه أن فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضاً فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص فوضعتموه فى غير موضعه. وإنما معناه العموم والشمول. وأن فضله عام شامل للأغنياء فلا تذهبون به دونهم. فأين فى هذا الحديث

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨) عن أبي بكر.

(٢) أهل الدثور: أي أصحاب المال الكثير يعني الأغنياء.

١٠٢٣- قالوا: ويحتمل قوله: «ذلك فضل الله» ثلاثة أمور: أحدها: سبقهم لكم الإنفاق. والثاني: مساواتكم لهم في فضيلة الذكر فلم تختصوا به دونهم، والثالث: سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم. وهذا وإن كان لا ذكر له في هذه الرواية فهو مذكور في بعض طرقه. قال البزار في مسنده حدثنا الوليد بن عمر حدثنا محمد بن الزبير حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل به أغنياؤهم، فقالوا يارسول الله إخواننا صدقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا، ولهم أموال يتصدقون منها ويصلون منها الرحمن وينفقونها في سبيل الله، ونحن مساكين لا نقدر على ذلك، فقال: «ألا أخبركم بشيء إذا أنتم فعلتموه أدر كنتم مثل فضلهم؟ قولوا الله أكبر في كل صلاة إحدى عشرة مرة والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، وسبحان الله مثل ذلك تدركون مثل فضلهم»، ففعلوا فذكروا ذلك للأغنياء ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقالوا: هؤلاء إخواننا فعلوا مثل ما نقول، فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يامعشر الفقراء ألا أبشركم أن الفقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام». وتلا موسى بن عبيدة: ﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾<sup>(١)</sup>.

١٠٢٤- قال: فهذا خبر واحد وكلام متصل ذكره بشاره لهم عندما ذكره. مساواة الأغنياء لهم في القول المذكور فأشبهه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهذه البشارة مخصصون فكان السبق لهم دون غيرهم وإن ساووه في القول وساووه في الإنفاق بالنية كما في حديث أبي كبشة المتقدم وحصلت لهم مزية الفقراء.

١٠٢٥- قالت الأغنياء: لقد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتك وهو صريح في تفضيل هذا الحديث لمن أنصف، فإن قوله: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساووه في الذكر كما ساووه في الصلاة والصوم والإيمان، وبقيت مزية الإنفاق، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه، فقال لهم حينئذ «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذا

(١) سورة الحج: آية (٤٧).

صريح جداً في مقصوده، فلما انكسر القوم لتحقيق سبق بالإنفاق الذى عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم، وأن هذا سبق فى مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق. ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم فى المنزلة والدرجة، فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، من الموقوفين للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة.

١٠٢٦- قالوا: وقد سمى سبحانه المال خيراً فى غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتى إلا بالخير كما تقدم وإنما يأتى بالشر معصية الله فى الخير لا نفسه. واعلم أن الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يأتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبى ﷺ بقوله: «نعم المال الصالح مع المرء الصالح»<sup>(٣)</sup>. وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطى حقه. وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين. وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى. وقال سفيان الثوري: المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن سباط: ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان، والخير كالحيل لرجل أجر ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

١٠٢٧- قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سبباً لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس التى هى محل معرفة الله والإيمان به، وتصديق رسله ومحبة والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يذم منه ما استخرجه من غير وجهه وصرف فى غير حقه واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة. فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجمول. قال النبى ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»؛ فذم عبدهما دونهما.

١٠٢٨- قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان عن يزيد بن ميسرة قال: كان رجل ممن مضى جمع مالاً فأوعى ثم أقبل على نفسه وهو فى أهله فقال أنعم سنين، فأتاه ملك

(٢) سورة العاديات: آية (٨).

(١) سورة البقرة: آية (١٨٠).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١٩٧/٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٢٩٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه ابن حبان (٣٢١٠، ٣٢١١) والحاكم فى المستدرک وأقره الذهبى انظر المستدرک (٢/٢، ٢٣٦).

الموت فقرع الباب فى صورة مسكين فخرجوا إليه فقال ادعوا لى صاحب الدار. فقالوا يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار وصنع ذلك وقال: أخبروه أنى ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعاً وقال: لينوا له الكلام. قالوا ما تريد غير سيدنا، بارك الله فيك. قال: لا، فدخل عليه فقال: قم فأوص ما كنت موصياً فإنى قابض نفسك قبل أن أخرج. قال فصرخ أهله وبكوا ثم قال افتحوا الصناديق وافتحوا أوعية المال ففتحوها جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسبه. ويقول: لعنت من مال، أنت الذى أنسيتنى ربى وشغلتنى عن العمل لآخرتى حتى بلغنى أجلى؛ فتكلم المال فقال: لا تسبى، ألم تكن وضعياً فى أعين الناس فرفعتك. ألم ير عليك من أثرى. وكنت تحضر سدد<sup>(١)</sup> الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتتكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون. ألم تكن تنفقتى فى سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أتعاصى عليك؟ وأنت ألوم منى، إنما خلقت أنا وأنتم يابنى آدم من تراب، فمنطلق بير ومنطلق بإثم فكهذا يقول المال فاحذروا.

١٠٢٩- وفى أثر يقول الله تبارك وتعالى: «أموالنا رجعت إلينا سعد بها من سعد، وشقى بها من شقى».

١٠٣٠- قالوا: ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات. وبه قام سوق بر الحج والجهاد وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها وبه يتوصل إلى النكاح الذى هو أفضل من التخلّى لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة. وبه ظهرت صفة الجود والسخاء وبه وقيت الأعراض وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء. وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة، ويهبط إلى أسفل سافلين، وهو مقيم مجد الماجد. وكان بعض السلف يقول: لا مجد إلا بفعل، ولافعال إلا بمال، وكان بعضهم يقول: اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى.

١٠٣١- وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه. وهؤلاء الثلاثة<sup>(٢)</sup> الذين ابتلاهم الله به: الأبرص والأقرع والأعمى. نال به الأعمى رضا

(١) السَّدَد: جمع سُدَّة وهى الساحة بين يدي الباب وقوله سَدَّدَ الملوك: أى أبواب الملوك.

(٢) قصة هؤلاء الثلاثة من بنى إسرائيل: الأبرص والأعمى والأقرع أخرجها البخارى (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) عن أبى هريرة مطولاً فانظرها إن شئت.

ربه، ونالا به سخطه.

والجهاد ذروة سنام العمل، وتارة يكون بالنفس، وتارة يكون بالمال وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع، وبأى شيء فُضِّل عثمان على عليّ وعلى أكثر جهاداً بنفسه وأسبق إسلاماً من عثمان؟ وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف، أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر وتأثيرهما في الدين أعظم من تأثير أهل الصفة.

١٠٣٢- وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته، وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء<sup>(١)</sup>، وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغى بها وجه الله إلا ازداد بها درجة ورفعة. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»<sup>(٢)</sup>. فإن الخير نوعان: خير الآخرة والكفر مضاده؛ وخير الدنيا والفقر مضاده، فالفقر سبب عذاب الدنيا، والكفر سبب عذاب الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء، وأخذها وظيفة الفقراء، وفرق بين اليدين شرعاً وقدرأً، وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ. وجعل الزكاة أوساخ المال، ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفاً ورفعاً لأقدارهم.

١٠٣٣- ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيراً ثم أغناه الله، والله فتح عليه وخوله ووسع عليه، وكان يدخر لأهله قوت سنة، ويعطى العطايا التي لم يعطها أحد غيره، وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ومات عن فدى والنضير وأموال خصه الله بها وقال تعالى: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول»<sup>(٣)</sup>. فترزه ربه سبحانه عن الفقر الذي يسوغ الصدقة، وعوضه عما يزيده عنه بأشرف المال وأحله وأفضله وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً. فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم، ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشئ وغناه

(١) ذلك لما أخرجه البخارى (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، لما اشتد المرض بأبيه سعد وأراد أن يتصدق بثلاثي ماله فقال له النبي ﷺ لا، فقال بالشرط فقال لا ثم قال ﷺ الثلث والثلث كثير «إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس».

(٢) أخرجه النسائي (٢٦٧/٨)، وابن حبان (١٠٢٦) وأحمد (٣٦/٥) عن أبى بكر.

(٣) سورة الحشر: آية (٧).



ﷺ عن الشيء وهو الغنى العالى، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف إلا بأمر سيده.

١٠٣٤- وقد اختلف الفقهاء فى الغنى هل كان ملكاً للنبي ﷺ على قولين: هما روايتان عن أحمد. والتحقيق أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال ﷺ: «والله لا أعطى أحداً ولا أ منع أحداً إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»<sup>(١)</sup>. ذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث فإنه عبد محض من كل وجه لربه عز وجل، والعبد لا مال له فيورث عنه.

فجمع الله سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فأكمل له مراتب الكمال فليست إحدى الطائفتين بأحق من الأخرى.

١٠٣٥- فكان ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك فى غناه. والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأى غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً. وخير بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً ومع هذا فحببت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشيء. بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال: «من ترك مالا فلورثته. ومن ترك كلاً فإلى وعلى»<sup>(٢)</sup>. فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحمل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل اغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة فأنفق غاية الإنفاق وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً. ولا ترك شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً.

١٠٣٦- فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره، ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً فرسول الله وفى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها. وأيضاً فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء. فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى

(١) أخرجه البخارى (٣١١٦) عن معاوية وفيه «والله المعطى وأنا القاسم»، و(٣١١٤) عن جابر وفيه «بعثت قاسماً أقسم بينكم» وأخرجه أحمد (٤٨٢/٢) عن أبي هريرة باللفظ الذى ساقه المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه البخارى (٥٣٧١)، ومسلم (١٦١٩) عن أبي هريرة وقوله «كلاً أى عيالا، والكاء أى العبد، والنقل.

الناس من صار غيره به غنياً.

١٠٣٧- قال على بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يؤمئذ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه. فتمثل مسلمة بيت من شعر أبي طالب، فقال لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير فقال عبد الله بن عمرو، ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير، فيقال مسلمة ألم يقل الله تعالى ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ \* ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى<sup>(١)</sup>. فقال عبد الله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه. وأما العيلة فكل ما كان بأيدي العرب إلا القلة. يقول إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنها. قال وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾<sup>(٢)</sup>. فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لامته وهو يحذر منها. وتعرض عليه فيأبأها وإنما هو ما يعطيه من الثواب، وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر، ودخول الناس في الإسلام، وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

١٠٣٨- وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل عن عبيد الله بن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدى كفوفاً كفوفاً فسرني ذلك: فنزلت: ﴿والضحى﴾ \* والليل﴾ إلى قوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾<sup>(٣)</sup>. قال: أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي<sup>(٤)</sup>.

قالوا: وما ذكرتم من الزهد في الدنيا والتقليل منها، فالزهد لا يتنافى الغنى، بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير فإن الغنى زهد عن قدرة، والفقير عن عجز وبينهما بعد بعيد وقد كان رسول الله ﷺ في حال غناه أزهد الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال وهو أزهد الناس في الدنيا.

(٢) سورة الضحى: آية (٥).

(١) سورة الضحى: آية (٨-٦).

(٣) الحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦١/٧) عن إسماعيل بن عبد الله عن علي بن عبد الله بن عباس

عن أبيه عن جده.

وقوله «كفوفاً كفوفاً» الكفر: القرية الصغيرة.

(٤) الترمذي (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٤١٠٠) وقال الترمذي غريب.

وقد روى الترمذى فى جامعه، من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ قال: «الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته. ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يدك أوثق بما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فى ثوابها لو أنها بقيت لك».

١٠٣٩- وسئل الإمام أحمد: عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهداً؟ قال: نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

١٠٤٠- وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره.

١٠٤١- وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما. فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال، وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة، بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره، فكان شكره وصبره مغلوبين فإن هذا ليس بزاهد.

١٠٤٢- وسمعت شيخ الإسلام<sup>(١)</sup> يقول: الزهد ترك ما لا ينفعك، والورع ترك ما يضر.

١٠٤٣- فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشح والجورس وهو ثلاثة أقسام: زهد فى الحرام، وزهد فى الشبهات والمكروهات، وزهد فى الفضلات. فالأول فرض والثاني فضل والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول وإلا فبالثالث، وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لا بد منه، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة، فزهد الفضيلة يكون ضرورة، فإن إرادة الدنيا فادحة فى إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيد المطلوب: أن لا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدنى منه. وأما توحيد الطلب فى الطلب أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجوازب الهوى، وتسكن الإرادة فى أقطار النفس فتملأها فلا يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق جل جلاله فتتمحض الإرادة له، ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة، فإنه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصده وقطع مواد طمعه اللاتى

(١) أى ابن تيمية - رحمه الله تعالى -

هى من أفسد شىء للقلب، بل أصل المعاصى والفساد والفجور كله من الصمغ، فإرهمه  
يقطع مواده ويفرغ ويملاً البال ويملاً القلب. ويستحث الجوارح ويذهب الوحشة التى  
بين العبد وبين ربه، ويجلب الأنس به ويقوى الرغبة فى ثوابه إن ضعف عن الرغبة فى  
قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبته.

١٠٤٤- فالزاهد أروح الناس بدنأ وقلبأ، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له فى  
إرادة الله والدار الآخرة فرغ قلبه لله وجعل حرصه على التقرب إليه وشحه على وقته  
أن يضيع منه شىء فى غير ما هو أرضى لله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشأ  
وأفرهم عينا وأطيبهم نفسأ وأفرحهم قلبأ، فإن الرغبة فى الدنيا تشتت القلب وتبدد  
الشمع وتطيل الهم والغم والحزن، فهى عذاب حاضر يؤدى إلى عذاب منتظر أشد منه،  
وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة فى الدنيا..

١٠٤٥- قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد - يعنى ابن مسلم  
عن إبراهيم - يعنى ابن ميسرة - عن طاووس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزهد فى  
الدنيا يريح القلب والبدن وأن الرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن»<sup>(١)</sup>.

١٠٤٦- وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين: إحداهما الرغبة فى  
الدنيا والحرص عليها والثانى التقصير فى أعمال البر والطاعة. قال عبد الله بن أحمد:  
حدثنى بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن الحارث قال: حدثنا أبو بكر بن  
عياش عن ليث عن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله  
عز وجل بالهم»<sup>(٢)</sup>.

١٠٤٧- وكما أن الرغبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة فهى أصل معاصى القلب  
من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر. وهذا كله من امتلاء القلب بها  
لأمن كونها فى اليد، وامتلاء القلب بها ينافى الشكر، ورأس الشكر تفرغ القلب منها.

١٠٤٨- وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخيركم فى الدنيا<sup>(٣)</sup> من طال عمره  
وحسن عمله، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره، فنعم المرء وماله وجاهه. إما أن يرفعه

(١) الزهد للإمام أحمد (ص ١٠) وهو حديث مرسل.

(٢) الزهد للإمام أحمد أيضاً (ص ١٠)، وذكره الذهبى فى الميزان (٣٥٦/١) وقال حديث معضل.

(٣) أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب (١٤٠/٢)، والأصبهانى فى الترغيب (١٤٤) عن جابر بن عبد الله.

درجات وإما أن يضعه درجات.

١٠٤٩- وسر المسألة أن طريق الفقر والتقليل طريق سلامة مع الصبر، وطريق الغنى والسعة فى الغالب طريق عطب، فإن اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله. وليس مقصوداً على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع، وكسوة العارى وإغاة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطّر. فطريقه طريق غنيمة وهى فوق السلامة.

١٠٥٠- فمثل صاحب الفقر كمثّل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه فهو يثاب على حسن صبره على حبسه. وأما الغنى، فخطره عظيم فى جمعه وكسبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه فى حقه كان أنفع له.

فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس، والغنى المنفق فى وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد، ولهذا جعله النبى ﷺ قرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها. فهو أحد المحسودين لا ثالث لهما. والجهلة يغبطون المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه ويجعلونه أولى بالחסد من المنفق والعالم المعلم.

١٠٥١- فإن قيل فأيهما أفضل: من يختار الغنى والتصدق والإنفاق فى وجوه البر. أم من يختار الفقر والتقليل ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا، أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك، بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين.

١٠٥٢- قيل: هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه فى وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيس بن سعد يقول: اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ومنهم من اختار الفقر والتقليل كأبى ذر وجماعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة. والفرقة الثالثة لم تختار شيئاً بل كان اختيارها ما اختاره الله لها.

١٠٥٣- وكذلك اختيار طول البقاء فى الدنيا لإقامة دين الله وعبادته، فطائفة اختارته وتمنته، وطائفة أحببت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا، وطائفة ثالثة لم تختار هذا ولا ذاك بل اختارت ما يختاره الله لها. وكان اختيارهم سلفاً بما يريد الله دون مراد معين منهم، وهى حال الصديق رضى الله عنه فإنهم قالوا له فى مرض موته ألا ندعو

لك الطبيب؟ فقال قد رأيته، فقالوا فما قال لك؟ قال لى: إني فعال لما أريد.

١٠٥٤- والأولى حال موسى عليه السلام؛ فإنه لما جاء ملك الموت لطمه<sup>(١)</sup> ففقا عينه ولم يكن ذلك حبا منه للدنيا والعيش فيها ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه فكانه قال للملك الموت أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وأنا في تنفيذ أوامر ربي وإقامة دينه، فلما عرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

١٠٥٥- وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فإن ربه أرسل إليه يخيره، وكان أعلم الخلق بالله. فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختر لقاء الله، ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعا لاختيار ربه عز وجل. فكما أنه لما خيره، ربه عز وجل بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبدا نبيا، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبدا نبيا اختار ما اختاره الله له، فكان اختياره في جميع أموره تابعا لاختيار الله له، ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذلك الوقت ووفى هذا المقام حقه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيار في سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التي تقرر الأمر فيها راضيا بها مختارا لها، ومشاهدا اختيار ربه لها، وهذه غاية العبودية، فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما بشره به في أول سورة الفتح حتى هنأ الصحابة به وقالوا هنيئا لك يا رسول الله، وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنئ به بشر صلوات الله وسلامه عليه.

### [فصل]

١٠٥٦- ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضا، فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

١٠٥٧- فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف. احتج به

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) عن أبي هريرة واللفظ له.

العلماء على مثل ما احتج به أولئك .

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره .

وإذا احتج به الفقير الصابر احتج به الغنى الشاكر .

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها - احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر المبطلين والغلبة عليهم والبطش بهم .

وإذا احتج به أرباب الوفاق والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاج المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب .

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والمغيب احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه .

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها .

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه فإنه ﷺ بعث لإصلاح الدنيا والدين .

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاهما حقها .

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع . وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام .

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله، احتج به من منع لله وعادى لله .

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة .

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والادم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه .

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمستهيات احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهن وآلهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فأجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام. احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ومن يقبل امرأته وهو صائم وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع يد السارق ورجم الزانى وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به أرباب السياسة العادلة المبينة على القرائن الظاهرة، فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة. وأخبر عن نبي الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبها به، فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة، وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين: أحدهما قال التوسعة للحاكم أن يقول للشئ الذى لا يفعله أفعله ليستبين به الحق، ثم قال الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به، وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن فى حياته وبعده، فقال على رضى الله عنه للمرأة التى حملت كتاب حاطب لتخرجن الكتاب أو لأجردنك، وحد عمر رضى الله عنه فى الزنا بالحبل، وفى الخمر بالرائحة.

وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال عليه السلام لابن أبى الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حى بن أخطب: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك». فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به، وجوز لأولياء القتل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على الفرائن المرجحة صدقهم، وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها فى اللعان وأبت أن تلعن للقرينة الظاهرة على صدقه.



وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به فهو حجة لقضاة الحق وولاء العدل، كما أنه حجة على قضاة السوء وولاء الجور والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها وبالله التوفيق.

## الباب الخامس والعشرون

### في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقاذبة فيه

١٠٥٨- لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التسخط، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها - كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة.

١٠٥٩- فمنه الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله: «فصبر جميل»<sup>(١)</sup>. وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون قرَجَه على يديه، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: «كيف تمجدك؟»<sup>(٢)</sup>، وهذا استخبار منه واستعلام بحاله.

١٠٦٠- وأما الأنين فهل يقدح في الصبر، فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين أصحهما الكراهة لما روى عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض.

١٠٦١- وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه قال هؤلاء وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: أخرج إلى كتاب عبد الله بن إدريس فأخرجت الكتاب فقال أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم فأخرجت أحاديث ليث، فقال اقرأ على أحاديث ليث، قال: قلت لطلحة أن طاووس كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات، فما سمعت أبي أن في مرضه إلى أن توفي.

١٠٦٢- والرواية الثانية: أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر. قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع، فقال تعرف فيه شيئاً عن رسول

(١) سورة يوسف: آية (١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١) عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال «كيف تمجدك». وقال الترمذي حسن غريب.

الله ﷻ؟ قال نعم، حديث عائشة وأرأساء وجعل يستحسنه.

١٠٦٣- وقال المروزي: دخلت على أبي عبد الله وهو مريض فسألته فتفرغرت عينيه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة.

١٠٦٤- والتحقيق أن الأئين على قسمين: أئين شكوى فيكره، وأئين استراحة وتفريح فلا يكره والله أعلم.

١٠٦٥- وقد روى في أثر: أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى وقال شقيق البلخي: من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً.

### [فصل]

١٠٦٦- والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال، وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكى ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه.

١٠٦٧- قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا كههمس، عن عبد الله بن شقيق، قال: قال كعب الأحبار: إن من حسن العمل سبعة الحديث ومن شر العمل التحذيف.

قيل لعبد الله ما سبعة الحديث؟ قال سبحان الله وبحمده في خلال الحديث. قيل فما التحذيف؟ قال يصبح الناس بخير فيستلون فيزعمون أنهم بشر.

### [فصل]

١٠٦٨- ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر والدعاء بالويل، ولهذا برئ النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق: صلق رفع صوته عند المصيبة، وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>. قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً.

(١) سورة يوسف: آية (٨٤).

١٠٦٩- وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان».

١٠٧٠- وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبله قال: قال رسول الله ﷺ: «من بث فلم يصبر».

١٠٧١- وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لى فرأى سعيد بن جبيرة متقنعاً، فقال: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة.

١٠٧٢- وقال بكر بن عبد الله المزني: كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة.

١٠٧٣- وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ.

١٠٧٤- وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال: القول السيئ والظن السيئ.

١٠٧٥- ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

١٠٧٦- وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري: مات ابن لى نفيس فقلت لأمه: اتقى الله واحتسبيه، واصبرى، فقالت مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع.

١٠٧٧- وقال عبد الله بن المبارك: أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه في الموت فقال: ابنك يقضى وأنت تصلى؟! فقال إن الرجل إذا كان له عمل يعمل فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله.

١٠٧٨- وقال ثابت: أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأته أحسن شيء شاعرة وأطيبه ريحاً فذكرت له ما رأيت. فقال: تأمرنى يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابنى سوء، والله يا أبا محمد لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة.

١٠٧٩- وما يقدح في الصبر إظهار المصيبة، والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر وقال الحسن بن الصباح في مسنده: حدثنا خلف بن تميم، حدثنا زافر بن سليمان، عن

عبد العزيز بن أبي رواد، عن تافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كتمان المصائب والأمراض والصدقة». وذكر أنه: «من بث الصبر فلم يصبر». وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه: من البر كتمان المصائب وما صبر من بث.

١٠٨٠- ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله، حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب.

١٠٨١- ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فراه يرجف، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد.

١٠٨٢- وقال مغيرة شكى الأحنف إلى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال ما تكرر على. لقد ذهب عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد.

### [فصل]

١٠٨٣- ويضاد الصبر الهلع، وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ذهابها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعٌ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾<sup>(١)</sup>. وهذا تفسير الهلوع.

١٠٨٤- قال الجوهري. الهلع أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع.

١٠٨٥- وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع»<sup>(٢)</sup>.

١٠٨٦- قلت: هنا امران: أمر لفظي وأمر معنوي:

فأما اللفظي: فإنه وصف الشح بكونه هالعا والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعاً، ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدى؛ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم وسر كاتم ونهار صائم ونوم عاصف. كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا كما قالوا نامر ولابن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

(١) سورة المعارج: آية (٢١-١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وأحمد (٢/ ٣٢٠) وصححه ابن حبان (٣٢٥٠) عن أبي هريرة.

وأما المعنوى: فإن الشح والجن أوردى صفتين فى العبد؛ ولا سيما إذا كان شحه هالعاً أى ملق له فى الهلع وجبته نالعاً، أى قد خلع قلبه من مكانه. فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا بيدنه، كما يقال: لا طعنة ولا جفنة؛ ولا يطرد ولا يشرد بل قد قمعه وصغره وفساه الشح والخوف والطمع والصرع، وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستظام والاستكانة وباء بها سريعاً؛ وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا أفضال وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان.

\*\*\*

## الباب السادس والعشرون

### فى بيان دخول الصبر والشكر فى صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور ولو لم يكن الصبر والشكر من الفضيلة إلا ذلك لكفى به

١٠٨٧- أما الصبر، فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة. ففى الصحيحين من حديث الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبى عبد الرحمن السلمى عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل يدعون له ولداً وهو يعافهم ويرزقهم»<sup>(١)</sup>.

١٠٨٨- وفى أسمائه الحسنى: الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبار، وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه عن قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث، ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما، وظهور أثر الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم.

١٠٨٩- والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم فى صفات الرب تعالى أوسع من الصبر ولهذا جاء اسمه الحليم فى القرآن فى غير موضع. ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله تعالى: ﴿كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

١٠٩٠- وفى أثر: «أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»<sup>(٤)</sup>، فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته وما أضيف شئ إلى شئ أزين من

(١) البخارى (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٢) سورة الأحزاب: آية (٥١).

(٣) سورة النساء: آية (١٢).

(٤) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة (٩٥٤/٣) والطبرى فى التفسير (٧/١٩)، وعبد الرزاق فى تفسيره أيضاً (٣١٥/٢) عن هارون بن رباب (بكسر الراء) عن شهر بن حوشب.

حلم إلى من عفو إلى اقتدار. ولهذا كان في دعاء الكرب<sup>(١)</sup> وصف سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليماً من لوازم ذاته سبحانه.

١٠٩١- وأما صبره سبحانه، فمتعلق بكفر العباد وشركهم، ومسيبتهم له سبحانه وأنواع معاصيهم وفجورهم فلا يزعمه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه حتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ولا ينسب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الأعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب. وهذا كله من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول.

١٠٩٢- وأما الصبر فإذا زال متعلقه، كان كسائر الأفعال التي يوجد وجود الحكمة وتزول بزوالها فتأمله فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعشره وقل من تنبه له ونبه عليه وأشكل على كثير منهم هذا الاسم. وقالوا لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحاً ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق كما هو أحق باسم العليم والرحيم والتقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم. وكذا سائر صفاته.

١٠٩٣- ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله». فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه فإن مقابلة أعظم المصبورين وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومن إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدر في كماله وأسمائه وصفاته والإلحاد في آياته وتكذيب رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتن والأذى وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

(١) دعاء الكرب هو: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم» أخرجه البخاري (٦٣٤٥). ومسلم (٢٧٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه.



١٠٩٤- وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه، والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لقد جئتم شيئاً إداً \* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً \* أن دعوا للرحمن ولداً<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾<sup>(٣)</sup>. على قراءة من فتح اللام.

١٠٩٥- فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه.

١٠٩٦- وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستاذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة بفرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمل.

١٠٩٧- وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً<sup>(١)</sup>: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يفرق بنى آدم». وهذا مقتضى الطبيعة؛ لأن كرة الماء تعلق كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

١٠٩٨- وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

(١) سورة فاطر: آية (٤١).

(٢) سورة مريم: آية (٨٨-٩١).

(٣) سورة إبراهيم: آية (٤٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤٣/١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلفظ «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض يستأذن الله في أن ينفذ عليهم فيكفه الله عز وجل» قلت: وأورده ابن الجوزي في الملل المتناهية (٤١/١) وقال العوام ضعيف، والشيخ مجهول - أى الذى روى عنه العوام - وقوله: «ينفضح» أى ينفذ ويسيل فيغرق بنى آدم لكثرة ذنوبهم ومعاصيهم، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه.

١٠٩٩- وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب، ولهذا استعاذ النبي ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»<sup>(١)</sup>؛ فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبب وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاهما قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدّها ومدّها وسلطها على ما شاء وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

١١٠٠- فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده، وإفراجه بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته وهو الذي يدفعه بمشيئته وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيد من فعله بفعله وهو الذي سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم، أرضاه تسبيح ملائكته وعبادة المؤمنين له وحمدهم إياه، وطاعتهم له. فيعيز رضاه من غضبه.

١١٠١- قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه، وأن مقدار يوم من أيامكم عنده إثنتا عشرة ساعة فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك، فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم، فتسبحه حملة العرش وسراقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة حتى يتفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا وسمع، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن من رحمته فتلك ست ساعات. قال: ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً<sup>(٣)</sup>. فتلك تسع ساعات ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله تعالى: ﴿يسسط

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، الترمذى (٣٥٦٦)، النسائى (٢٤٩/٣) عن علي عليه السلام، وقال الترمذى حسن غريب.

(٢) سورة آل عمران: آية (٦). (٣) سورة الشورى: آية (٤٩-٥٠).

الرزق لمن يشاء ويقدر»<sup>(١)</sup>، وقوله: «كل يوم هو في شأن»<sup>(٢)</sup>. قال: هذا شأنكم وشأن ربكم. رواه أبو القاسم الطبراني في السنة، وعثمان بن سعيد الدرامي، وشيخ الإسلام الانصاري، وابن مندة، وابن خزيمة وغيرهم.

١١٠٢- ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم، وما أراه من ملكوت السموات والأرض وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ثم قال: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»<sup>(٣)</sup>. فأخبر أن سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده، ويكذب رسله كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرمانه ما أضاعوه.

وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض من فيهن ولخرب العالم ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب المسككة له من الأرض وهي كلامه وبيته وذينه والقائمون به. فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها.

ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال كان الحلم أصل الصبر. فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور والله أعلم.

### [فصل]

١١٠٣- وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة<sup>(٤)</sup> وفي القرآن تسميته شاكراً قال الله تعالى «وكان الله شاكراً عليماً»<sup>(٥)</sup>، وتسميته أيضاً شكور. قال الله تعالى: «والله شكور حليم»<sup>(٦)</sup>، وقال تعالى: «إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً»<sup>(٧)</sup>. فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور.

- |                             |   |
|-----------------------------|---|
| (١) سورة الرعد: آية (٢٦).   | (٢) سورة الرحمن: آية (٢٩).              |
| (٣) سورة الأنعام: آية (٨٩). | (٤) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وقال حسن غريب. |
| (٥) سورة النساء: آية (١٤٧). | (٦) سورة التغابن: آية (١٧).             |
| (٧) سورة الإنسان: آية (٢٢). |   |

١١٠٤- وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه. وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقى له الشكر بين عبادته ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه. وإذا بذل له شيئاً رده عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك. ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح، ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم. ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوه، أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

١١٠٥- ومن شكره سبحانه أنه يجازى عبده بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمل من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه.

١١٠٦- ومن شكره أنه غفر للمرأة الهنئ بسقيها كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

١١٠٧- فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه، وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لانسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟!

١١٠٨- وتأمل قوله سبحانه: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ \* وكان

الله شاكراً عليماً<sup>(١)</sup>، كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً. فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

١١٠٩- وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه مالا يطيقه، ثم يعذبه على مالا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله. وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزّه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

١١١٠- ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عليه هذا القدر.

١١١١- ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده؛ وكذلك شكره لصاحب «يس» مقامه ودعوته إليه فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك. فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

١١١٢- ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنی أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها. وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها. ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسى القلب والبخيل والجبان والمهين واللثيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال. عليم يحب العلماء رحيم يحب الراحمين محسن يحب المحسنين. شكور يحب الشاكرين. صبور يحب الصابرين جوّاد يحب أهل الجود. ستار يحب أهل الستر قادر يلوم على العجز. والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف. عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافها.

(١) سورة النساء: آية ١٤٧.



## خاتمة

١١١٣- يامن عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقي مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير، ما المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور.

١١١٤- ما تساوى أعمالك لو سلمت عما يظللها أدنى نعمة من نعمه وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رعتها بالله حق رعايتها وهي في تصرفك وطوع يدك.

١١١٥- فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور، نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها، وقال إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر، وإن عصيت فبفضلك وأنا أغفر؛ إن ربنا لغفور شكور.

١١١٦- وأزاح عن العبد العليل، وأمره أن يستعيز به من العجز والكسل، ووعد أنه يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، إن ربنا لغفور شكور.

١١١٧- أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه. ووعد على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياها إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه إن ربنا لغفور شكور.

١١١٨- وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آملاك المحسنين فما قطع طمعها. وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور.

١١١٨- يجود على عبده بالتوافل قبل السؤال، ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والخصى والتراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور.

١١١٩- أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثل ذرة من الخير شكرها وحملها، إن ربنا لغفور شكور.

تعرف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبب إليهم بحلمه وآلته ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلته، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٠- السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن ربنا لغفور شكور.

١١٢١- أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه: «إن رحمته تغلب غضبه»<sup>(١)</sup>. إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٢- يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيعفو له، حتى كأنه لم يكن قط من أهله، إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٣- الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حساب، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور، باب الكرم مناسخ الآمال ومحط الأوزار، وسما عطاء لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار؛ إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٤- لا يلقى وصاياه إلا الصابرون ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٥- فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور. وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فإنه لم يهلك لكنه صبور.

١١٢٦- وبشارك أيها التائب بمغفرته ورحمته إنه غفور شكور.

١١٢٧- من علم أن الرب شكور تنوع في معاملته ومن عرف أنه واسع المغفرة

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة.



تعلق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم يأس من رحمته. إن ربنا لغفور شكور.

١١٢٨- من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه. ومن أحبه أحب أسمائه وصفاته وكانت أثر شيء لديه.

١١٢٩- حياة القلوب فى معرفته ومحبه. وكمال الجوارح فى التقرب إليه بطاعته، والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته.

فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقتطعهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طيبهم، يتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب؛ إنه عفور شكور.

١١٣٠- والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى. وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمداً يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمد الحامدون. وغفل عن ذكره الغافلون، وعدد ما جرى به قلمه، وأحصاه كتابه، وأحاط به علمه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضى الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

يقول راجى عفو المساوى والآثام أبو سهل نجاح عوض صيام عفا الله عنه وستره فى الدارين: وكان الفراغ من التعليق عليه بحمد الله - تعالى - فى الثامن من شهر رجب سنة ألف وأربعمائة وأربع عشرة من الهجرة النبوية الشريفة. بمدينة القاهرة والحمد لله أولاً وأخيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.



٥	مقدمة المحقق
٧	مقدمة الكتاب
١٥	الباب الأول: فى معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها
١٧	الباب الثانى: فى حقيقة الصبر وكلام الناس
٢١	الباب الثالث: فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقة
٢٣	الباب الرابع: فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة
٢٥	الباب الخامس: فى أقسام الصبر باعتبار محله
	الباب السادس: فى أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش
٢٧	الهوى وعجزه عنه
٣٢	الباب السابع: فى بيان أقسامه باعتبار متعلقة
٣٦	الباب الثامن: فى انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به
٣٨	الباب التاسع: فى بيان تفاوت درجات الصبر
٤٨	الباب العاشر: فى انقسام الصبر إلى محمود ومذموم
٥٦	الباب الحادى عشر: فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللثام
٥٨	الباب الثانى عشر: فى الأسباب التى تعين على الصبر
	الباب الثالث عشر: فى بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبر فى حال من
٦٧	الأحوال
٧٤	الباب الرابع عشر: فى بيان أشق الصبر على النفوس
٧٧	الباب الخامس عشر: فى ذكر ما ورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز
٨٢	الباب السادس عشر: فى ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة
١٠١	الباب السابع عشر: فى ذكر الآثار الواردة عن الصحابة فى فضيلة الصبر
	الباب الثامن عشر: فى ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق
١٠٧	الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

الباب التاسع عشر: في أن الصبر نصف الإيمان وأن الإيمان نصفان نصف	
صبر ونصف شكر	١١٦
الباب العشرون: في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر	١١٩
الباب الحادي والعشرون: في الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين	١٥٨
الباب الثاني والعشرون: في اختلاف الناس في الغنى الشاكر والفقر الصابر	
أيهما أفضل وما هو الصواب في ذلك	١٨٤
الباب الثالث والعشرون: في ذكر ما احتجت به الفقهاء من الكتاب والسنة	
والآثار والاعتبار	١٩٠
الباب الرابع والعشرون: في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة	
والآثار والاعتبار	٢٥٦
الباب الخامس والعشرون: في بيان الأمور المضادة للصبر ، والمنافيه له ،	
والقادرة فيه	٢٧٦
الباب السادس والعشرون: في بيان دخول الصبر في صفات الرب جل جلاله	
وتسميته بالصبور الشكور	٢٨١
الخاتمة	٢٨٩
فهرس الموضوعات	٢٩٣

\*\*\*





—